الإمام

عليّ بن أبي طالب

الجزء الثالث

تأليف

عبد الفتّاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان

بيروت

١

لم يكن خافياً عليه ما بيتوا ، بل كان أمامه كما فى كتاب مفتوح . . إن له عينا بكل مكان حسبوا أنهم يأمنون فيه الرقيب ، وله فى أرضهم رجال لم تقعدهم الشدة عن الولاء له ، ونسوة وددن لو افتدينه وجنبنه المصير الذى راح يعده أولئك الخصوم . ولئن كانت مكة لذلك العهد حصن عدوه وموئله ، فإن حركات أهلها كانت لديه محصاة لا يغيب عنها تفصيل . وكانت الكتب ترد منها عليه وهو بظاهر المدينة فى النفر القليل من رجاله الذين خرج بهم يبتغى — فى البدء — أرض الشام . وإنها لتحمل له صوراً واضحة من مأساة الفتنة ، وتكشف عن كثير من الخطوط التى رسمها المتآمرون عليه من أجل السلطان . فما أغفلت الرقاع الآتية من البلدة الحرام حركات الجند المتأهب ، ولا تدبير الحزب المفتون باحتلاب السيادة ، ولا الموارد التى غذت جيش عدوه بالعتاد . . وحتى حديث الهمس والمسارة بين كبار مناوئيه لم يقف به دون علمه أن كان فى خلوة بين الجدران الصماء !

فلمله أسف إذ استعرض هذه الصورة وجال بعين ذهنه فيما تومئ إليه . إنها نذر الانحلال ، وبوادر التدهور الخلق تتجمع فى أفق الإسلام كما تتجمع علائم العاصفة ولما يكد يغيب عن عيون الناس طيف الرسول . فها هى « الدنيا » تنتصر ثانية أو توشك على الانتصار كأنها قد تعجلت الثأر ! . . وها هى « المادة » ترفع ألويتها على أنقاض الروح وما جف بعد المداد الذى سطروا به تعاليم الدين . إن حب الحياة الذى أورد الغابرين مهاوى الملكة قد هم يطوح أمته الناشئة فى الغابرين ، وأهواء الأنفس التى ألهبتها سياط الأطماع راحت ترين على صفاء القلوب . ولو أن الخلاف الناشب كان مناجزة حرة بين فكرة وفكرة لوسعه أن يقدم باسم الثغر كفارس يلق كفؤاً له فى ميدان نزال . ولكنها كانت أشبه بإغارة قطاع طريق استبيحت فيها المبادئ المثلى وجيشت قوى الهدم والظلام

تريد أن تطغى على البناء والنور . وهل غاب يا ترى من حقه جانب عن أولئك الذين قاموا يناصبونه العداء ؟ . . .

ليس هذا عليه بجديد : ليس هذا كله نبت ساعته بل هو قديم ممتد فى غور الماضى كجذور دوحة موغلة فى الأرض حتى الصخر أو نبع الماء . فقد كان دائما فريسة بغضاء مجنونة ، وضحية اختارتها شياطين الحسد لتكون قربانا يتقدم به قومه على مذبحها البغيض . وإنه لصورة أخرى مما أريد برسول الله لولا أن عصمه ربه فأنقذه من بين مخالب الغل الفوار فى الصدور . فاسمعه كيف يجيب عقيلا أخاه حين أتاه منه ما ينبئ عن تجهيز القوم لحربه بعد نكثهم بيعته وخلعهم ما كان فى رقابهم له من ولاء مفروض .

« . . . دع عنك قريشاً وتركاضهم فى الضلال ، وتجوالهم فى الشقاق ، وجماحهم فى التيه . فإنهم قد أجمعوا على حربى كإجماعهم على حرب رسول الله قبلى . . . جزت قريشاً عنى الجوازى ! . . لقد جهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، وقطعوا رحمى . وسلبونى سلطان ابن أمى ، وجدوا فى إطفاء نور الله . . » .

كان يعلم هذا كله من البدء ، ويوطن النفس على الاصطلاء بنيرانه . وما أغفل قط من حسابه أن الزمن سوف يتكشف له يوما عن حرب تشنها عليه النفوس المقروحة وتتقدم فيها بكل سلاح وبأى سلاح تستطيع أن تشهره . فلم يعجب قط حين جاءته الأخبار بائتلاف النقائض عليه ممثلة فى الواتر وفى الموتور . . . نعم ، فقد اجتمع أولياء الدم المهراق بمن عملوا جهد طاقتهم على إراقته وسفكه . . اجتمع بنو أمية وأولياء عثمان الشهيد بأولئك الذين فرشوا الأرض تحت قدمى الخليفة الشيخ بالقتاد ووضعوا الحجر المسموم فى أيدى قاتليه ، وتألفت من النقيضين قوة موحدة الغرض هدفها الأول هو القضاء على مظلوم جديد !

ولكنه تقبل هذا منهم بنفس راضية ، ألهمها حقها الثقة ، فلم تستشعر الخوف من المجهول القادم ، ولا أشفقت مما عسى أن تنجاب عنه الأيام من مصير

مظلم أو مرهوب . أليس طريق الصواب واضح المعالم وإن اعترضه الصخر وتناثرت فيه الأشواك ؟ . . وهل الحق إلا أولى بالبذل وإن سدت سبله المشاق والصعاب ؟ . إنه لكلف دائما باستهداف غايته ، وإنها لأمثل الغايات ، ولن يقعده عنها حائل أو عوت . فليدع إذن أولئك المناجزين وما وطنوا عزمهم عليه ، فما أهونهم عنده إذ اصطنعوا باطلا والتفوا به ينصرونه ، كأنهم عابد الوثن يصنعه بيده من حجر الأرض ثم تعنو جبهته بالسجود له ! وما أكثر مزالقهم بعد ، لأن الخطأ الأول سوف يقود حتما إلى سلسلة أخرى من الأخطاء والضلالات — تماما كطليعة الإبل فى القافلة يجر خلفه قطاراً طويلا من الجمال ! وحسبه الآن ، مصداقا لشعوره ، هذه البوادر التى أخذت تبدو له خلال أعمالهم حين حاولوا التماس المنعة بتأليب القوى عليه وساروا فى الطريق الملتوية معصوبى الأعين . . . فقد تنادوا بدعوة ظالمة ، وأغروا باتباعهم كل مفتون ، وشطروا وحدة الأمة . فلما تبينوا أنفسهم فى ساحة كفاح يجب أن يوفروا عتاده وعدته ، أقبلوا فى لهفة يعدون أيديهم إلى مال حرام فاحتجزوه ، واستباحوه ، ثم قدموه وقوداً لهذا الكفاح الحرام !

هكذا فعل القوم ، وإلى مثل هذا المنحدر انزلقت أقدامهم . . . فقد أباحهم ابن عامر ما جلبه من أموال البصرة بعد خروجه منها ، ووهبهم يعلى بن منية ما حمله من أموال صنعاء . وما كان لأى الرجلين حق فيما وهب وأباح إلا كما لرسول من رسالة مولاه . فقد كانت العادة المسنونة أن يجتمع عمال الأمصار فى موسم الحج بالخليفة كل عام ومعهم ما وسعهم جمعه من خراج ليسلموه إياه كى يضمه إلى بيت المال ويعده للإنفاق فى الأوجة التي يراها تعود بالخير على مجموع الأمة . فهم أمناء حفاظ على ما جلبوه وليسوا يملكون توليه بالبذل ولا بالعطاء . ولكن هذين استهوتهما الدعوة التى تنادت بها عائشة فى أرجاء مكة عقيب مصرع عثمان فانحازا إليها ، وأقرتهما هى وصاحباها على احتجاز أموال المسلمين لخدمة مأرب خاص ، ولتكون عدة الحرب الأهلية التى لن تلبث أن تستشرى وتفكك عرى الإسلام .

لـكم آلم عليا أن يرى صفوة قومه فريسة للهوى المغرض ، هم الذين كانوا أكرم على نفسه من أن ينزلقوا فى مثل هذا الهوى الذى احتفرته لهم الأطماع ، وأولى الناس عنده بمجانبة الباطل ، وأجدرهم بمداناة التنزه والسمو على مآثم الحياة ... ولـكنهم اختاروا لأنفسهم ، وسلـكوا الطريق الذى شاءوا دون تردد كثير . ولعل منهم طائفة استشعروا الندم على ما اقترفوا ، واستجابت لهم ضمائرهم بالوخز ، ولـكنها يقظة ساعة ثم راحت القلوب بعدها فى سبات ! إنه دون ريب ندم موقوف ، ووخز كأنه مس كف حنون ! فلقد ساروا أشواطاً تعذر بعدها النـكوص ، وبدا الهدف البراق يلتمع لهم من قريب على قيد ذراع ! . . .

لات حين ارتداد ! . . . النـكوص على العقب الآن عسير وإن كان فى نصرة واجب ، والإقدام هين يسير وإن كان فى نصرة فتنة ، وما إلى وجهة الحق الذى خلفوه دبر الظهور منفذ بعد أن وقفت نزغات الأنفس وأحلام النصر تسد المسالك كمردة الظلام ! . . . ولـكنك مع هذا لا تعدم عذرا لـكل مفتون ضال يضيفه إلى صحيفته ، ويحرص أن تنعكس أخطاؤه من خلاله كالمآثر ، لأن الإقرار بالذنب على النفس ثقيل . . . وهذه عائشة تزعم أنها ما دعت دعوتها تلك إلا وهى تبتغى من ورائها توحيد الـكلمة ، وما نهضت إلا لتحاجز بين أتباع على وبين الذين تواروا خلف الطلب بدم عثمان . . . تزعم هذا هى التى صاحت صيحة البسوس — غب المصرع — تستنهض الناس للثأر ، ثم سارت على رأسهم تحدوهم للحرب وتشحذ عزائمهم ليثيروا فتنة شعواء على البلاد التى كانت تدين للإمام بالولاء . . فما كان أصدق نظرة ضربتها أم سلمة وأبلغ كلمتها حين أرسلت إليها تقول :

« . . . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على قعود من الإبل من منهل إلى منهل ؟ . . . ما كنت قائلة وقد هتـكت حجابه الذى ضرب الله عليك ؟ . . . الا لو أنى أتيت الذى تريدين ثم قيل لى : ادخلى الجنة ، لاستحييت أن ألقى الله ! . . . »

ولـكن ابنة أبى بكر مضت لطيتها ، ولم تقعدها هـذه النصيحة الخالصة عما انتوته . لقد كانت تشعر أن الأقدار نصبتها لأمر خطير ، وأن فرصة العمر جاءتها أخيراً دون تدبير ! . . ولئن قامت أم سلمة تثبط همتها ، وتحاول بالحجة ومنطق اللسان أن تحول بينها وما تبتغيه فهذا من السيدة الناصحة معلوم مفهوم ولـكنه غير مقبول . فمتى أقرتها عائشة على أمر ؟ . وكيف تنتظر أن تحظى منها بالرضاء والإقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التنافر والازورار ؟ . . . إنها لم تكن قط لها صاحبة ترتاح إليها النفس ، ولم يجمعهما أبدا فـكر وإن جمعهما رجل ، وما زاد ما بينهما — وما نقص — عما يكون عادة بين الضرائر من تباعد المشاعر . وها هو الماضى يطل عليهـا فلا ترى فى ذكرياته إلا صورا من التنافس بين الضرة التى جملها الحسن والضرة التى جملها الصبا والشباب ، تتهافت كلاهما على حب الزوج المحبوب . . . وأما الأمومة فقد كانا فى ميدانها سيان ، حرمتهما الطبيعة نعمتها إذ ضنت عليهما معاً بنسل طاهر من صلب سيد النا س . ولـكن إحداهما ذاقتها من قبل فلما أن احتواها بيت محمد ووسع قلبه الـكبير أبناءها الذين أصابهم ذل اليتم ، كان قلبها ما زال نابضا بعاطفة الأم فراحت تفيض من ذخرها على الزهراء المحرومة من حنان الأم . واستطاعت برقتهـا أن تعوض عليها بعض عواطف خديجة حتى تجاذبت روح المرأة وروح الفتاة . أما الأخرى فـكانت طفلة — طفلة فى حساب الزمن وفى حساب المشاعر الناضجة . . . كان قلبهـا الصغير أضيق من أن تسع رقعته حبا آخر إلى جوار حبها الزوج ، فبقيت عمرها كله مفتونة برجلها دون سواه ، حريصة على ألا يشركها غيرها فيه وإن كان ابنته الزهراء . . .

ولقد كان طبيعياً أن تعترض أم سـلمة سبيل عائشة اليوم ، وتجهد لتحولها عنه . فـا هى إلا أم لفاطمة بالعاطفة والتآلف ، تحرص ما وسعها على إسعاد ابنتها ثم على إسعاد زوجها بعد أن غاب جدثها فى التراب . وإنها لخليقة الآن إذن بأن تحفظ ذكرى الطاهرة التى ارتحلت ، وتجدد ولاءها لها بالولاء لزوجها الإمام . بل الأليق بها فى المحنـة الحاضرة أن تشهر — لو استطاعت — سيفا

في وجوه خصومه ومبغضيه وتقود جحفلا ضخما من الموالين لتقطع على ضرتها وصحبها درب الفتنة الذى ارتادوه وتدفعهم عنه بقوة الحديد ! ولكنها كانت امرأة تعرف ما خلقت له فلم تقحم نفسها فى غير ما هيأتها له الطبيعة ، وآثرت النصح — فى البدء — ترجيه عسى أن يصلح الله به نفوس من جانبوا الروية والحكمة ومالوا مع الهوى الذاتى حيث مال . . . كانت تأمل فى بقية من رشاد بعقول القوم العادين كفيلة بردهم إلى الصواب فعلقت أملها المخدوع بسراب ! .

٢

عاد ثانية إلى الحياة ذلك الصراع الخفى الذى طوته الأعوام . . . برز من الماضى بما فيه من مرارة وذكريات تهيج التنافر القديم ، واستوى قائماً على قدميه ليأخذ مكانه فى قيادة الأحداث . فما ثمة صفحة حب ولا صفحة حرب إلا سطرها مداد العوامل النفسية التى تتناوب القلوب الإنسانية . ولا مصير لأمة أو لفرد إلا استوحت الأقدار عواطف النفوس قبل إبرامه . عائشة تعلم هذا تمام العلم لأنها فى الفتنة القائمة أمثولته الحية . . . فما بالها أغفلته من حسابها اليوم ؟ . أم ترى آثرت أن تنساه لحظة من زمان وهى تحسب أن فسحة الوقت التى مضت راكدة بعد وفاة الرسول قد سلت بذرة النفور من قلب ضرتها ؟ . . إن الزمن لم يفعل شيئا ، ولم يشفها هى أيضاً من شعورها الغابر ، وما استطاع فيما نرى إلا أن يغيب إحساسهما المتبادل تحت ستر رقيق من أعوامه . فلعلها أسيت بعد أن تقدمت إلى أم سلمة تستنصرها على الإمام وأخفقت فيما ترجوه . ولعلها قد استشعرت طعم الندم بعد هذا الرد الذى جاءها ناطقاً بالملام . فما كان أغناها عنه وعما طوى من ترفع واستعلاء . أفماشت حتى ترى تلك ترجيها النصح وتبصرها بمواطن الغى والرشاد ؟ . أما زالت فى عين السيدة نفس الطفلة الصغيرة الغريرة التى يلزمها التدبر ويعوزها حسن الإدراك ؟ .

فى الحق أبداها النصح — فى عين نفسها أيضاً — صغيرة ، هى السيدة

الأولى فى الإسلام التى يتلقف الناس الحكمة من طرف لسانها وينهلون من علمها كما يفعل الظامئ بنبع الماء ، يقبل وهو صاد ويصدر وهو ريان ! . . ولكن ضرتها المتمرسة بالحياة عرفت كيف تلعب أمامها دور المؤدب، وراحت بين وقت وآخر ترسم لها طريق السداد . . . فلم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى تقدمت فيها إليها بالنصح ، ولم ينته عندها دورها الكبير ! وكم طالما بذلت لها الحكمة فى رفق ، ، وبصرتها بعاقبة ما تسير فيه غير مدخرة وسعاً فى الكشف لها عن الحقائق التى سترها هوى النفوس . بل قد عمدت فى أحاديثها إلى صفحات من حياة الرسول تقلبها أمام ناظريها لتريها آيات من إعزازه وتقديره للإمام ، ولتبدى لها صوراً واضحة المعالم بليغة الدلالات قال فيها الإلهام النبوى كلمته العليا فى قدر هذا المظلوم وما سوف يتربص له به أعداؤه البغاة . . . وإن قصة واحدة مما روته لها أم سلمة كانت حرية وحدها بتنكيس السيوف المشرعة وتفريق الجند المتأهب لهذا النضال الحرام . ولكن القدر كان قد أبرم قضاءه فلم يهد النصح المبذول . وكانت القلوب الشائنة قد امتلأت إلى حافتها بأحقاد الماضى ولا بد لها أن تفيض. وعميت العيون التى عصبتها الأغراض فراح أصحابها يتخبطون فى الظلمات المتراكبة حولهم ولا يشعرون أنهم يقتحمون درب الضلال .

على أى حال وضعت عائشة نصح السيدة دبر أذنيها فلم تع منه إلا أنه أتاها على لسان ضرة !.. ومضت فى سبيلها تستعدى على غريمها من توسمت فيهم الاستجابة لدعوتها مبادرين . وما كان أكثر من جمعتها وأياهم وحدة الفكر واتساق الشعور !.. فلتول إذن وجهها إلى معسكرها . . إلى الذين يدينون لها بالولاء وتفنى ذواتهم فى شخصيتها القوية الطاغية . وإذا أريد لدعوة أن تبلغ الأسماع وتهفو النفوس لها بالانصياع فليلتف بها أولا صاحب هيبة أو اسم رنان . وكان هذا ميسوراً اليوم بعد أن انحاز الزبير وطلحة إلى الدعوة فضمنت بهما نصرة الكثير من رجالهم بالكوفة والبصرة . ولكنها شاءت أيضاً لحركتها أن تبدو لغير غرض دنيوى خاص ، وفى سبيل شىء آخر سوى التناحر على الخلافة وجاه السلطان . ولم يكن خافياً عليها أن صاحبيها هذين قد أغرقتهما الأطماع

السياسية حتى الأذنين ، وأن وجودها — دون سواها من ذوى الماضى البراق — إلى جوارها قد يدمغ الدعوة بسمة التطلع إلى زخرف المنصب . فراحت تجد لتضم إليها نوعا آخر من العلية الذين لم تعلق بأذيالهم أمثال هذه الشبهات .

ولم يكن هذا عليها بعزيز — هكذا لاح لها الأمر فى بدئه ومكة إذ ذاك تموج فى موسم الحج بنخبة من الرجال والنساء توفى سمعتهم على مراتب القداسة ، ولأسمائهم رنة فى الأسماء تعنو لها قلوب عامة القوم بالإكبار . وهل ثمة آثر عند الناس من أزواج الرسول ؟ .. إنهم يتنسمون من ثيابهن روح الهداية ويتبعونهن كما يتبعون مشاعل نور . وإن كانت أم سلمة قد أبت الانحياز فحسب عائشة سواها كثيرات . بل كفاها من بينهن أن تضم ابنة عمر الجبار .

وكرة ثانية وحدت العاطفة بين السيدتين ابنتى أول خليفتين فى الإسلام . وكأنما عاد الحزب القرشى الناهض للخلافة الطبيعية إلى الحياة . وكأنما بعث أبو بكر وعمر إلى هذه الدنيا يعيدان ما أبرماه فى البدء ويحولان بين على وبين حقه فى ولاية الأمر كما فعلا غب موت الرسول . ولم يكن عجبا أن تنحاز حفصة إلى جانب عائشة وتشد أزرها فى إشعال نار الفتنة المقبلة ، بل العجب لو ترددت أيما تردد هى التى كانت ذيلا لها طول حياتهما الزوجية تعمل برأيها ، وتسير على السنن الذى ترسمه حتى فى الشئون البيتية ، وترجح كفتها على الدوام لو وقع بينها وبين غيرها من الزوجات أدنى خلاف . . . إن ابنة عمر الجبار لم تنحلها الأقدار شيئاً من شخصية أبيها العاتية فرضيت من قبل أن تعيش فى ظلال عائشة ، وهى اليوم تلعب دورها السابق بنفس الإتقان ، سواء أكان مرد هذا إلى اعتيادها عليه أم إلى بقية من شعورها القديم بالنفور من الرجل الذى نافس أباها ذات يوم على سلطان الإسلام . . . أما بقية من كن بمكة من أزواج محمد فأمرهن على عائشة هين ، فقد ألفوا الانقياد لها وهى بعد طفلة حين كان لها فى بيوت الرسول ما يشبه العرش والصولجان ! .. وها هن أولاء فى ركابها ثانية ، أشارت فتبعنها مسلمات الوجوه ، تماما كما كن فى الماضى لا يصدرن عن عمل قد يغضب سيدة الزوجات ! . .

فلعل عائشة حسبت أنها قد كسبت بهن قوة ، وخرجت بالدعوة من دائرة الشبهة فى خضوعها لشرعة السياسة إلى نطاق العمل فى سبيل مطلب سام يتطلب الفداء ونكران الذات . ولكنها فى الواقع ظلت بعيدة عن الرضا بما فازت به ، وظل أصحابها أيضاً كذلك . وهل فات الناس أن يتبينوا الحقائق الخفية من وراء هذا الستار الرقيق ؟ . . هل يستطيع انضمام زوجات رسول الله إلى دعوتها أن يجعلها فى عيونهم خالصة لوجه الحق بعيدة عن المطامع والآراب ؟ . . هل يستر انحيازهن إلى صفها ما كان معروفا من تكالب كل من عداهن فى ذلك الحزب على أبهة الحكم ! إن طلحة نفسه استشعر فى حركتهم ثغرة وجب أن يسدوها حتى يستقيم لهم الأمر باطمئنان الناس إلى خلوص الدعوة من الأطماع الذاتية وبعدها عن أن تكون مطية لخدمة غرض خاص . وكاشف بهذا صاحبه الزبير ذات يوم :

« . . . ليس شىء أنفع ولا أبلغ فى استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر . . . »

فأسرع يستجيب له . وانطلقا سوياً إلى الرجل الذى لا يشك امرؤ مطلقا فى أنه قد باعد ما بينه وبين الدنيا واشترى دينه بزخرف الحياة . . . فلو أن مثله انضم إلى الحزب لكان عنوانا براقا أمام الشعب . . .

قالا له يبسطان الأمر بالطريقة التى يحسبانها تغريه :

« يا أبا عبد الرحمن . . إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس . فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة . . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها . »

فما أبهظ الثمن الذى يعدانه لو أنهما صدقاه القول ! . . ولكنه فى حساب النفوس النقية هين تافه ، وإن كان جاه المنصب ، وإن كان عز الدنيا ، وإن كان عرشاً يضم ما بين قرنى الشمس ! . .

وتبسم لهما ضاحكا ، ثم قال بهدوء :

« ... أتريدان أن تخرجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ؟

أيها الشيخان ، إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم ، وقد تركت هذا الأمر ، فانصرفا عنى ! . . »

فخرجا من لدنه وقد خبا فى صدريهما أمل وهاج . ومع ذلك فلا بد للقافلة أن تسير ! . . لقد قطعا من الشوط مراحل طويلة وجب بعدها أن يتما الرحلة . أما إلى أين المسير فهذا لعائشة وحدها تبت فيه ، وما عليهما إلا الائتمار بما تراه لأنها تضفى بشخصيتها على حركتهما نوعا من القداسة فى أعين الكثيرين وهو أمر له حسابه فى نجاح المشروع . .

كانت ابنة أبى بكر منذ البدء ترى تسديد الضربة أولا إلى القلب فتتداعى بعده سائر الأعضاء ، وتخف ، لو نجحت ، بقية الأمصار فى الدولة الإسلامية إلى الخضوع . وكانت الخطة فى ظاهرها معقولة ، تتفق وما قامت فيه من وجوب القضاء على رجال الثورة التى قضت على عثمان . وإذ رأت أولئك الغوغاء قد لاذوا بالمدينة ، والتف بهم الأعراب والعبيد فيها ، فقد بان لها أن السير إليهم هو العمل الوحيد الذى يخلص منهم حاضرة الإسلام ويستأصل شأفتهم من بقية البلاد . . ولم يكن رأى الزبير وطلحة يعارض هذا التدبير — أو هكذا فهم الناس مما ردداه . ولكنهما اليوم يستشعران رهبة ، ويتوقعان فشلا ساحقاً لهذه الحملة العسكرية المعدة يقضى إلى أبد الدهر على حلمهما المنشود . فما لرجالهم طاقة بأولئك الثائرين المتأهبين لرد القصاص المنتظر غاية التأهب . ولن يدع ابن أبى طالب أيضا عاصمته نهباً مستباحا للقوى المقتتلة تفعل بها ما تشاء وهو جالس يقلب ناظريه فى سكون. إنه صاحب الرأى الأخير ، وله حق الدفاع عن دولته أمام أى الناس تحدثه نفسه بحمل السلاح ، وليس يملك سواه إقرار النظام فيها سواء بالقضاء على عناصر الشغب أو بالضرب على أيدى غيرهم ممن يحاولون الانفراد دونه بالعمل كأنهم قوامون عليه . ولقد أوضح لهم رأيه من قبل ، ودعاهم إلى الحذر والتريث حتى تسكن الفتنة ، ويتبين كل موقفه منها ، وتخف قبضة الثوار عن عنق الدولة وهو اليوم كمثله بالأمس ، لن يدع هيبته ملهاة فى يدى عابث يسترعبه بالثأر لمظلوم . وهبه خلى بينهم وبين ما يريدون ثم أظهرهم الله على الثائرين .

أفثمة نتيجة سينجاب عنها النصر إلا استتباب الأمر لابن أبى طالب وتوطيد دعائم نظامه ؟ . . .

لغير هذه الخاتمة جيشوا الجيوش ! . . ولو قد كانوا حقاً مخلصين لما ادعوه من وجوب القضاء على عوامل الشغب وتخليص الأمة الإسلامية من شرورها ، إذن لوسعهم أن يتلاقوا والإمام فى نقطة يبدأون العمل منها سويا . وما كان أهون عليهم لو أبدوا له الرغبة فى الائتلاف للقضاء على العدو المشترك وأبلغوه أنهم يملكون بعسكة قوى تأتمر بأمره إن أشار وتنتظر كلمة منه فتقبل مددا . ولكن قصة عملهم على محق الثوار لم تكن غاية يجدون فى سبيلها لذاتها بغية إعلاء كلمة الحق أو تطهير الدولة من فساد محيق ، بل هى وسيلة أريد بها اضطراب أمره ، وذريعة للقضاء على سلطانه قبل أى شىء سواه .

فلير الصاحبان إذاً رأياً . وليجمعا الأنصار والأتباع يعرضان عليهم خلاصة هذا التفكير عسى أن يفوزوا برأى جديد كفيل بما يرومان . وما أيسر إقناع عائشة بالتخلى عن خطتها ، إذا أجمعوا هم الرأى ، ورسموا النهج الذى به يقضون أولا على دولة الإمام ! . .

٣

جمعتهم دار عائشة ، ندوة أصحاب الفتنة المتآمرين إذ ذاك . وغلقت أبوابها عليهم أعوانا وأولياء وكانوا بالأمس خصوما وأعداء ! .. ولكنها شرعة المطامع والأهواء تستذل النفوس حتى لتعرضها فى السوق سلعة رخيصة ، تقوم بجاه منصب أو بريق دينار !

مامن رجل فيهم إلا استبق به مأربه إلى هذا الاجتماع . . . لوحت لهم الدنيا فتبعوها ، وما كانت لتقودهم إلى صواب ! .. إن منهم من خدعته مظاهر الأمور فلم يرسل عينه لتكشف الحقائق الراسبة فى الأعماق . ومنهم من أضله هواه فسار كالمفتون كأنه طائر استهوته حية رقطاء فزحف إلى جحرها وهو مبصر

وليس بيقظان ! . . . ومنهم من لمله علم وقدر ثم آثر أن يمضى قدما على أشلاء ضميره الملقاة فى الطريق ! . . . ولكنهم كلهم جمعهم هدف ووحدتهم فكرة ، وهم اليوم يجهدون لتحقيق رغباتهم وبلوغ آرابهم من أيسر سبيل .

وحين بدأوا الحديث لم يكن ثمة امرؤ بمكة يجهل أنهم قد تجهزوا لغزو المدينة ، فبهذا تحدثت عائشة بعد المصرع ، وإليه دعت الناس . ولعلها اليوم وهى تشهد اجتماع صحبها من خلف ستار لم يطف بخلدها أن خطتها تلك سوف يتناولها التعديل . وإنما أجتمعت بهم لتشاورهم فى الأمر ، وتعرف ماسوف ينجاب عنه النقاش بعد أن أعدت العدة ، وتزودت لحملة « التطهير » بما تستطيع .

ومن البدء ظهر جليا أن غزو المدينة ، واقتحام العرين على أسده ليس بيسور . ذهبت الآن عنهم حدة الحماس . وأفسحت العواطف الصاخبة الطريق أمام العقل والتدبر . إنهم فى كفاح تتأرجح فيه مصايرهم ، ويتجاذبهم الموت والحياة من طرفين . فأولى بهم إذن أن يدرسوا الموقف بهدوء ، ويتبينوا مواقع الخطأ قبل الإقدام . وهل يجديهم أن ينفذوا إلى هدفهم من أضيق باب ؟ .

لأول مرة منذ رفعوا راية العصيان يقرون راغمين بحكمة على ، ولا ينكرون — فى ضمائرهم — بعد نظره وإدراكه السليم للحقائق التى كانت خافية عليهم من قبل أو التى أضلهم عنها هواهم . إن شعورهم ليهيب بهم أن يسددوا أولى الضربات لقلب المدينة عسى أن يقضوا بهذه على غريمهم الممسك بأعنة السلطة . ولكن عقولهم تأبى عليهم الانسياق مع العاطفة الهوجاء ، وتقبض على خناق هاتفها الملحاح . فإذا بهم يرتدون إلى ما ارتآه الإمام فى البدء ، وما نصح به لصاحبيهما الزبير وطلحة من وجوب التريث وإرجاء مقاتلة الثوار حتى يعد عدته وها هى الكثرة منهم — وفيها الزعيمان — ذلك اليوم بدار عائشة فى البلدة الحرام ، تردد رأى على ، وتتوخى الأمانة فى نقله بروحه ومعناه ، فنسمعها تقول دون حرج وبغير إخفاء .

« المـــدينة ؟ ... ليس لنا بأهلها طاقة ، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء . . . »

فأعظم بهـا كلمة حق من لسان باطل ! . . . وأين منها ادعاؤهم السالف أنهم ما خرجوا على سلطة الإمام إلا لأنه أبى عليهم رغبتهم فى المبادرة بالقضاء على رجال الثورة الذين اغتالوا عثمان ؟ . . . إنهم اليوم قد جمعوا الجند والسلاح فلم أحجموا عن المسير إلى وكر الفتنة ! . . وكيف يؤثرون — وهم فى قوتهم المتأهبة — نفس التريث الذى نصحهم به أمير المؤمنين حين كان فى وهن لا يسده عتاد وجنود ؟ ... إن لسان العقول الذى نطقوا به اليوم قد أنصف — يرغمهم — عليا ، وغسل ما أعلقوه بثوبه من ادعائهم القديم ، ثم هلهل عنهم مسوح الرياء التى طالما خطروا بها أمام السذج من الجماهير . فما كانت رغبتهم فى الثأر لعثمان ، ولا حرصهم على تخليص الأمة من طغيان الثوار ، ولا أى من الأسباب التى اعتسفوها هى الدافع لهم على العصيان . . .

وتداولوا فيما بينهم الآراء وعائشة من وراء سترها تنصت ولا يغيب عنها حرف . وبدت الشام لهم ملاذاً أمينا ، وبؤرة تنتشر منها جيوشهم الغازية فتغطى بقية أمصار الدولة وتقضى على الحكم المكروه . وتلقف الزبير الرأى بحماس ، ثم راح يقول :

« نعم إلى الشام ، فيها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتي نجتمع يولنا معاوية . . . » .

ثم ألقى عينه على طلحة ليرى أثر هذا الحديث فيه بما احتواه من أمل معسول!.

ولكن يعلى بن منية كان أقدر من زعيمه على استشفاف الحقائق فصاح وفى صوته رنة تحذير :

« أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا . . . » .

« فقل . . . » .

« إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا فى فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم . . . أفرأيتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ، أتقاتلونه ؟ . . أم تجعلونها شورى فتخرجا منها ؟ . . » .

فلم يدريا ما يقولان . ما زال الخطر الذى يهدد حلمهما جاثما بالشمال ! . .

وما كانا ليغفلا عن هذا ، اليوم ، وما أغفلاه من قبل ، ولكنها السياسة اللعينة تعرف كيف تهادن بين الأعداء المتنافسين حتى حين ، وتدفع الأكف إلى المصافحة إبداء للأمن والطمأنينة وإن انطوت القلوب على توجس مدفون . ولقد صدقهما اليوم ابن منية وأخلص لهما النية . فما عبرت كلماته إلا عما انطوى ذهناهما عليه . فثمة بدمشق قد ربض الغول الأموى يتحفز للوثوب بغية اقتناص الفريسة من المناصب المرتقب بعد المغصوب ! . . .

وسار الحديث ثانية فى فنون فلم يعنيا بالجدل الذى أسفر عنه . بل راحا من أفكارهما فى غمار . . وكانت عائشة ما زالت تصغى للقوم من وراء حجابها والقلق ينهب قلبها خشية أن ينتهى بهم نقاشهم إلى خلاف يجر التخاذل . وكان مروان بن الحكم قد زم شفتيه واكتفى ببسمة صفراء تلون ثغره وتبدى من سخريته ما أراد ألا تكشفه الكلمات : فهو مؤمن بالنتيجة المقدورة ، عالم بها قبل أن تنحسر عنها أسجاف الغيب المجهول . . وهل راوده الشك لحظة واحدة فى أنهم الأداة الطيعة التى سيلتقط بها بنو أمية شرائح الشواء الشهية من فوق النار؟ . .

وكان ابن عامر وسعيد بن العاص يتلاحيان ، ويرمى ثانيهما الأول بنقيصة الجبن إذ فر من البصرة ولم يكفكف فتنتها عليه فيكفيهم مصرا آخر يدين اليوم بطاعة الإمام كما كفاهم معاوية الشام ...

على أن مروان لايني خبثه يلح عليه ، ولا تنى رغبته فى العبث بالصاحبين تراود نفسه حتى يستجيب لها ، ويقذف الشيخين بنصيحة هى فى حقيقتها أحبولة صائد أعدها لصيد غرير ! . . يقول كأنه يخلص المشورة ويمحصهما النصح الذى يزرى بكل ما عداه :

« ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعة مثل بيعة على ؟ . . . لئن أجابوكما فقد عارضتماه ببيعه كبيعته . وإن لم فقد عرفتما ما لكما فى نفوس الناس . . » .

فلو أجاباه لهتكا إذن الستر الذى يبقى عليهما بعض الهيبة والتقدير فى أعين الكثيرين من الأتباع . فقد حرصا دائما على إخفاء الغرض الحقيقى لهذه الحركة ونأيا جهدهما عن الظهور بمظهر الطامع فى الحكم ، المشغوف بابتزازه ولو على

حساب المبادئ . فأحر بهما لو طلبا البيعة أن يبدوا على نقيض ما يرجوان فينفض عنهما من أحسنوا بهما الظن فضلا عن وقوفهما من أمير المؤمنين موقف عداء سافر صريح .

فلعلهما انتبها لأحبولة مروان وما تسوقهما إليه من خطر قبل أن يؤلفا حولها بقية الأمصار . . أو لعلهما حسباها آية من آيات غفلته وليس العهد بحمقه وضعف رأيه عليهما ببعيد . . أو لعلهما أرادا الإبقاء على المظاهر المضللة حتى يئين الكشف عن الأغراض المستورة . وكيفما كان ما فهماه من مرامى هذه النصيحة فإنهما رفضاها دون تردد ، فقال طلحة بحذر السياسى ولباقته :

« إن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم ننقضها ؟ »

وعقب الزبير ، الرجل الصريح الذى يثب قلبه دائماً إلى طرف لسانه :

« ويعنعنا أيضا تثاقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة على ! » .

فهز مروان كتفيه بلا مبالاة وهو يقلب بصره فى الوجوه . إنه على أى حال لن يعدم فرصة أخرى يستطيع أن ينصب فيها شراكه ويوقع الصيد ، وموعدها فى حسبانه قريب . وران الصمت قليلا على القوم ، لحظات أوشك فيها تخاذلهم أن يتجسم حقيقة ماثلة بعد أن فشلوا حتى الآن فى الإجماع على قرار . . . ولكن ابن عامر أتاهم فى اللحظة الأخيرة برأى يكشف الأزمة ، دبت به فى أذهانهم الحياة . . . قال وهو يوجه الخطاب إلى زعيمى الجمع :

« اذهبا إلى البصرة ، فإن لى بها صنائع » .

البصرة ؟ . . . كيف فاتهما أن يفطنا إليها من قبل ؟ . . . أو الكوفة فهما سيان ؟ . . . وهل كشعبيهما فى الدولة الإسلامية شعوب تنضم قلوب أهليها على مثل ما يحسه نحوها أهل المصرين ؟ . . . ومن أولى باحتضان دعوتهما ونصرتها منها ، ولها هوى فى طلحة معروف ؟

أحسن إذن عبد الله ! . . . إنه قد لمح الإعجاب برأيه تلتمع به عيون الشيخين . ورأى أيضاً الموافقة تكاد تلعب على شفاه أكثر المجتمعين ، فسارع يعزز اقتراحه ، ويلق بما يؤيده أمام القوم :

« اذهبا إلى البصرة أيها الشيخان : فإن غلبتم علياً فلكم الشام ، وإن غلبكم علي كان معاوية لكم جنة . . . وهذه كتب أهل البصرة إلى . . . »

هذه حقا هي الخطة المثلى ، وما أجدرهما بالتزامها ما دامت توفر لهما نصراً يعز في سواها . ثم هي قبل هذا كفيلة بأن تبقى هيبتهما عند معاوية ، وتدنيه من الولاء لهما دون أن تقسرهما على الولاء له . فبها سيصبحان في منعة ، ولن يكونا كلا على ابن أبي سفيان ينزلان عند أمره ويتبعانه كالظل . بل ستكون لهما الكلمة ، ويكون الرجل في أيديهما أداة ! . . .

وتدبر مروان الرأي في دخيلته . لتكاد هذه الخطة أن تبعدهما عن كنف سيد بيته وعن العمل كهواه وستطلق أيديهما ولو إلى حين . ومع ذلك فليس ثمة من حرج عليه أن يظهر الموافقة ويتبعهما أينما يسيران . فأيان ذهبا سيستطيع أن ينصب شراكه ؛ وما أهونه من حمى يقودهما إليه ابن عامر الرجل الذي هان شأنه على أهل إقليمه وهو أمير مزود بالنفوذ فقام يدعي الآن القدرة على امتلاك ناصية البصرة وهو الهارب الطريد ! . .

ونادى هاتف القوم عائشة من وراء الحجاب :

« يا أم المؤمنين . دعي المدينة ، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصي معنا إلى البصرة ، فإنا نأتي بلدا مضيما ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة علي بن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة . . . »

٤

أبرموا الأمر . . . حسبهم أن أقرتهم عليه عائشة وتركت عزمها القديم على اقتحام المدينة ، فما كان شأنهم ليستقيم لو أنها خالفتهم ولها كل هذا النفوذ الروحي عند عامة الناس . ووافقهم أيضاً مروان ، عميد الأمويين بالحجاز ، والحليف الذي لا بد سينقاد له أهل بيته ، وكل مغلوب على أطماعه من حاشية عثمان ، وكل عامل في دولته المنهارة يحسب أن نفوذه لا بقاء له في ظلال حكم الإمام .

وسوف يأمن أصحاب الفتنة بهذا كله معاوية ، ويؤلفون وإياه حلفا عاطفياً ينتهى حتما لحلف سياسى تباركه وحدة الهدف واتساق العمل الجاهد لبلوغ غايتهم المشتركة . فهل ينتقض من عنفوانه حركة المقاومة التى دبروها ألا يتحمس لها سعيد بن العاص أو ينأى بجانبه كما بدا منه قبيل ختام الاجتماع ؟ .

كلا ! . ففى غيره من زملائه غناء . بل هو أدنى إلى النزول على عزمهم ومتابعتهم لو جد الجد وأخذ ركبهم فى المسير . فلقد كانوا أعلم به من نفسه وأعلم بأمثاله من عباد الجاه . . . حسبوا هذا حتى ركنوا إليه كأنه يقين ، وباتوا على ثقة من معونة أصحاب المآرب والغايات . إن الأحلام غذاء شهى لبعض الأذهان ولهم منها ذخر لا ينفد معينه . . . وهذا طلحة قبلهم يبسم الأمل فى خاطره وتتهاوى عليه المنى السواطع ! فلم يعد يرى طريق البصرة خطوته الأولى بعد كفاح مرير بقدر ما كان يراه مجازا إلى النصر ! . . وإنه ليكاد أن يجده مفروشاً بالزهور ، ممتداً حتى ملتقى الأفق دون أن تعترضه العقبات والصعاب . وهل يسعه أن يغفل بها حزبه القوى والدور الذى لا ريب سيلعبه فيستميل أهليها إلى جانبه ويجنح بهم إلى الطاعة لدولته المنتظرة ؟ . . أما الكوفة فأمرها وأمر أختها سواء ، وحين يطلق أولى علائم الفتنة القريبة ستعنو هى الأخرى له وبها حزب الزبير صاحبه يعرف كيف يجذبها إلى الخضوع أو تنحدر على أطرافها سيول جيشهما اللجب من البصرة فتحمل قومها على احترام منطق السيف ؟ . . . وما أضعف حيلة ابن أبى طالب بعد هذا وما أقل خطره أمام قوة هذين الإقليمين وبأس حليفتهما الأموية بالشمال ! .

ومع ذلك فقد آثر الصاحبان ألا يغفلا أثر العوامل المادية فى تدبيرهما المقرر . ولم ينسيا الحذر فى غمرة الحلم الجميل تمام النسيان . فأولى بهما أن يعدا كل عدة ، ويضربا فى سبيل غايتهما بالظفر وبالناب ! . . وما دامت لابن عامر صنائع بالبصرة فلتكن لهما مددا . وليجندا منها دعاة يشدون الأزر ويعملون وأولياءهما فى نفس الميدان . أليس على قدر قوة الضربة المسددة إلى صدر على يكون تداعى بنيانه ؟. وهل تكتيل القوى وتجميعها سوى العامل الكفيل بتعجل ساعة النصر المرقوب؟

ومتى كان للزمن حسابه الذى يتقدم على كل حساب إن لم يكن ذلك فى أوقات الكفاح والصراع ؟ .

لهذا قادهما التفكير ، وبه أغرتهما الكتب التى حدثهما ابن عامر أنها جاءته تحمل فى طواياها رغبة صفوة البصريين فى خلع طاعة الإمام . فلم يكن عجباً أن يشاوراه ويلتمسا عنده ما يحقق الخروج بالنوايا المكتوبة إلى مجال العمل الحاسم السريع . . سأله الزبير :

« ومن رجال البصرة يا عبد الله ؟ . »

فقال :

« ثلاثة كلهم سيد مطاع . . كعب بن سور فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة » .

فما بارحوا مكانهم حتى كتبوا لهم يستنهضوهم ويستنهضون بهم أقوامهم للغضب من أجل عثمان ، وللقيام فى ثأره ، وللتأهب لاستقبال جيشهم السائر نحو البصرة الاستقبال المرجو منهم ، والحقيق بسادة مثلهم أن يبادروا إليه . . . وإنك لتلمح فى الكتب ما يثير النخوة ، ويتملق حتى مفاخر الجاهلية القديمة . . اسمعهم كيف أهابوا بهذه الأمجاد التي تقدس الثأر فى كلتهم المبعوثة إلى ابن ربيعة :

« . . . إن أباك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام . . وإنك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . . . ولقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك . . . »

ومع ذلك فما أغنت عنهم كتبهم فتيلا ! . . . لم تؤجج حمية النفوس ، ولم تشعل نار الفتنة المنتظرة . . . ولعل أبلغ رد جاءهم هو ما بعث به إليهم ابن ذلك الرئيس الجاهلى المجيد ! . . فقد كتب لهم فى إيجاز :

« إنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ! . . »

فأصدق بها من كلمة صورت لهم حقيقة ما وعته عنهم القلوب ! . . وهل ظنوا ، هم الذين استعدوا لهم شيعة من البصرة على عثمان وهو فى عقر داره حتى حانت ساعة مصيره ، أن الشعب بها قد فاته ما كانوا دبروه لعثمان بالامس ! . .

لو أن طلحة أنصف لما قام فى الأمر بنفسه ، ولكان وسعه أن يعمل فيه من خلف قفاز يخفى كفه التى جنت على الشيخ المقتول . ولكن الأهواء لا ترى الحقائق وإن تجلت سافرة كشمس الصيف . ورجل بنى تيم يستطيع النسيان حين يريد ، ويستطيع أيضاً أن يغرى غيره على النسيان . فليس كصاحبه الزبير الذى يستبق الحق على لسانه فيقر بالذنب ويعلن الندم عليه . . بل هو ماهر فى مداورة الناس ومداورة نفسه على السواء ! . .

لم تلق إذن دعوتهم بالبصرة أذنا سميعة ، ولم يسارع أهلها إلى طاعتهم وعونهم كما حسبوا ، وكما صور لهم حديث ابن عامر عن صنائعه . . . بان لهم الآن أن سعيد بن العاص لم يكن متجنيا على زميله كل التجنى حين لاحاه خلال اجتماعهم بدار عائشة ، ونصحهم ألا يركنوا إلى كلامه المعسول . . . وراحت كلمات سعيد تقرع ثانية آذانهم ، أعلى جرسا منها من قبل ، وأحد نبرة كأنها صوت نذير :

« . . . يدعوكما إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم فى طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم علياً وهم فى طاعة على ! » .

إن السخرية لتقطر منها فياضة ثم يكون لها فى قلبى الصاحبين مثل طعم العلقم المرير . أما الحيطة فقد ولى زمنها الآن ، والنصح الذى رغبا عنه ذهب مع الماضى ولم يعد فى مقدورهما العودة إلى الانتفاع به . فقد جاءت مشورة ابن عامر بنقيض المرجو من ورائها . وبعد أن كانت لهما بالبصرة كلمة مسموعة لعلها كانت كفيلة بلف قومها حولهما لو أحسنا استغلال الظروف ، أصبحا اليوم والبلدة تكاد تجمع على استنكار الدعوة التى بثاها فيها بعد أن نبهت كتبهما أذهان كثير من أهلها — وفيهم صنائع ابن عامر نفسه ! — إلى ضعف الحجة التى توسلا بها لتبرير العصيان . وكفاهما أن كتبهما تلك قد استقبلت بالبصرة أسوأ استقبال حين ورودها عليها . فما هو أن تلقفها أولئك السادة وأظهروا عليها الناس حتى أقبلت وفودهم من كل مكان يعلنون رأيهم فى الفتنة وفى مثيريها . ووقف فيهم من خطبهم فقال :

« مالنا ولهذا الحى من قريش ! . . أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد

أن دخلنا فيه ، ويدخلونا فى الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ . . . لقد قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . . » .

هذه هى السياسة التى حددها لنفسهم أهل البصرة ، ورسموا بهـا موقفهم من الفتنة المقبلة . إنها سياسة حياد صريح ، لا يتحيف ملتزموه على فريق من أجل فريق ، ولا يبادرون بالنفخ فى نار لم يشعلوا هم جذوتها الأولى . فالرأى عندهم هو أن الأمر أمر العاصمة الإسلامية قبل غيرها من البلاد ، وأمر أهلها من المهاجرين والأنصار قبل غيرهم من المواطنين . . . فهم قتلوا وهم ولوا ، وعليهم التبعة من قبل ومن بعد ، وليس لسواهم أن يقحم نفسه فيما لم يكن له فيه رأى ولا مشورة . وهى ذات السياسة التى التزمها عثمان ابن حنيف عامل الإمام بالبصرة حين أقبلت عليها جيوش عائشة وكان بها معبرا عن الرأى العام فى ولايته أصدق التعبير . فلم يبادر الرجل بقتال جحافل المتمردين ، ولا هز فى وجوههم قناة إذ ذاك . بل صبر عليهم . وترك لشعبه أن ينضم إليهم منه من شاء دون إكراه . وأمهل لهم حتى آذوه ، ونقضوا عهده ، وجازوه شر الجزاء على هذا التسامح الكريم . . .

وعاود أصحاب الفتنة مرة ثانية شعورهم بالنقص ، وبحاجتهم إلى الشخصية التى تضفى على حركتهم قوة معنوية فى أعين الناس بعد هذا الخذلان الذى نم عنه موقف البصرة . . . كرة أخرى وجب أن يقنعوا الشعب بتجرد هذه الحركة عن المطامع الذاتية وبعدها عن خدمة أغراض خاصـــة لامرىء أو لسواه ، فـا يتحقق النجاح لأمر لم يستهدف غاية مثلى تستجيب لها العواطف النبيلة . . . وهل أبلغ فى استمالة أهواء النفوس من رجل نقى الصفحة لم تشب ماضيه شائبة ، ولم يدمغ من قبل بسمة التطلع إلى زخرف الحياة ؟ . . .

وكأنما عجموا الأعواد فلم يروا فيها أقوم من ابن عمر فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه النفوس تنحرف عن الجادة وراحت الدنيا تجذب وراءها البقية الباقية من صفوة صحب رسول الله . عبد الله له وحده فى قلوب أمته مكانة إذ هو وحيد رجال الشورى الذين لم يطمعوا قط فى الخلافة ، ولم تجرفه تيارات السياسة

الهوجاء من قبل ، ولم يأخذ من الدنيا أبداً بنصيب لفرط ورعه وعزوفه عنها ، بل كان فيها يعيش كالغريب منطويا على نفسه ، قد اتخذها لحسب مجازا إلى آخرته . . . ومع أنهم أخفقوا من قبل فى جذبه إلى جانبهم ، فقد رأوا الحاجة تدفعهم ثانية إليه عسى أن ينجحوا اليوم فيتخذوه علما للدعوة يلتف به الكثير من العارفين بنقائه . فإن هو أن تحدث مروان فى شأنه إلى الزبير وطلحة حتى أسرع إليه الشيخان . . .

ولكنهما فى هذه المرة أبعدا عنهما ظنون سعيهما إلى ابتزاز السلطان من ابن أبى طالب ، وحاولا أن يرمما صورة جديدة أنيقة تبدى رغبتهما فى جمع كلمة الأمة الإسلامية ، وتجنيبها الفرقة الوشيكة أن تقع فى صفوفها بسبب اختلاف البلاد على الإمام ، وقيام بعضها بالدعوة لسواه . . .

قالا له وهما يخلطان الذنب بالتوبة ، ويلقيان على غيرهما أمر الخلاف ، ثم يبديان الرأى الذى يريانه يحسم الأمور :

« يا أبا عبد الرحمن . . إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضيناه بالحق فيه . . إن عليا يرى إنفاذ بيعته ، ومعاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نردها شورى . فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهى الهلكة . . » .

فتمهل الزاهد برهة قبل أن يجيب بنبرة اعتذار :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ! »
ثم ارتفع فجأة صوته ، ورمى إليهما بنظرة نفاذة ، وأردف يقول فى صراحة مريرة :

« أيها الشيخان ! . . اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ! . . لن يقاتل عليا إلا من كان خيراً منه ! . . أما الشورى فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما ! . . . » .

فغادراه دون أن يقدرا على جواب ! . . فلما أن قابلا مروان راح يوسوس لهما ثانيـة ، ويدفعهما إلى طريق جديد ظن أنهما يستطيعان من خلاله الفوز برضاء عبد الله ... دفعهما إلى أم المؤمنين حفصة ورضاؤها عن خطتهم معروف ، ورأيها لرأى عائشة تبع من قبل ومن بعد فى كل أمر من الأمور ، لعلها تعرف كيف تحمل أخاها على القبول .

ولـكنها كانت أعلم به منهم ، وأعرف بعناده ، فردتهم عنه . وقالت تجيب الصاحبين :

« لو أطاعنى أطاع عائشة . . دعاه . . »

وبهذا فشل جهدهما فى التستر وراء امرئ نقى الصفحة من المطامع السياسية التى وسمهما بها القوم ووسمتهما جهودهما الدائبة من قبل على الظفر بالسيادة من كل سبيل . ولم يبق إلا أن يوجها الركب للمسير ، وحسبهما أن يكون فيه ابن عامر ، وابن عقبة ، ومروان وأضرابهم من الموغرة صدورهم ، المفتونين بالمناصب وجاه السلطان . . .

٥

دق طبل الحرب حين هتف منادى القوم فى أرجاء مكة :

« أيها الناس . . إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . . » .

فتهافت الناس من كل صوب ، قد استهوتهم الدعوة المغشاة بالجهاد كما يجتذب الضوء اللألاء فراشات رقيقة . وأقبلوا يحملون رءوسهم على أكفهم ، ويلتحقون بكتائب أم المؤمنين .

وتم جهاز الجند ، وزودوا بالمطايا والسلاح مما أعـد ابن منيه وابن عامر بأموال اليمن والبصرة . والتأمت الصفوف ، وتهيأت قافلة القتال للمسير . . .

فإذا « عسكر » قد خلف مريضة ، وخطر أمام هـذا الحشد الزاخر متلع الجيد في الفضاء ، ثم راح يدب مزهوا بين غيره من الإبل والنياق . ألعله استيقن قدره من هذه الأنعام وعزته عليها براكبته المهيبة التي هيأوه لها مطية ؟ . . إنه ليتهادى والعيون ترمقه ، والقلوب تهفو نحوه ثم يستقر لجها وخفقها جميعا على هذا الهودج الفاخر المرتكز على سنامه . فهاهنا سيدة الموقف ، الصارخة الأولى في هذا الوادى وكل هذه الجموع أصداء . . . إنها تخلف اليوم الحذر إلى مهوى الأسنة والسهام المريشة . . . تترك رقة المرأة فى بيتها وتخرج مع القوم فياضة القلب بحمية القتال . . . تسير بهذه الحشود إلى وديان الموت . . . حتى الهودج الذى احتواها فقد هو الآخر دلالته وبدا كحصن منيع يحمل نفوس من التفوا به على ارتقاب صراع خطير .

البلدة يتحدر أهلوها فى دروبها كالسيل ، رجالا ونسوة ، كأن هذه الدروب غدت أنهاراً من الناس ! فما من بيت أغلق بابه إذ ذاك على إنسان وما من أحد آثر القعود إلا القليل . بل خرجت جموعهم تسير فى ظلال زوج الرسول . . . بعضهم قد التحف زرده ليكون درعا يدرأ عن السيدة قبل أن يدرأ عن نفسه ، وحمل سلاحه ليضرب فى سبيلها به وإن اقتضاه الصراع أن يبل مواطىء قدميها بدمه المهراق . . . وبعضهم سار خلفها على هدى دمعه ، لأن لساعة الوداع فى القلوب وقعا تستجيب له العيون البوادر ، ولذعا كألسنة النار هو نتاج الخشية على هذه الأمة من المصير الكامن وراء الفتنة المشبوبة . وحين انتهى بهم الموكب إلى « ذات عرق » وآن لركب القتال أن ينفصل عن مودعيه ، غامت الأعين المتطلعة ، وشرقت الحلوق بالدموع المنثالة ، وسجل القدر فى كتابه ميلاد « يوم النحيب » ! . . . فلقد تجاوبت كثبان الرمل المبثوثة على الأديم بصوت بكاء القوم يرج الأرض والسماء فى آن . واهتزت الصحراء بأنة جامعة صدرت منهم فكأنها ندت من الفضاء الرحيب ! . . . لم يكن من قبل حزن كهذا ، وما أتيح للشمس أن تبرز من برجها على يوم كان أكثر منه باكياً للإسلام وباكيا عليه — ذلك اليوم من ربيع الثانى ، الذى فتح الباب على مصراعيه أمام

الحرب الأهلية لتدلف منه أداتها الرهيبة تمزق وحدة الأمة الإسلامية وتدمر وشائج الصلات القائمة بين أولئك وهؤلاء من الإخوة فى الوطن والله . . .

والتف زوجات محمد بصاحبتهن يذرفن الدمع أسى ولوعة ، ويبدين معه الأسف لهذا الفراق الذى لم يكن فى الحسبان . . . كن جميعا قد عاهدنها على المسير ، وأظهرن العزم ليكن فى الركاب . ولكن اليوم ليس كالأمس ، والمقصد غير المقصد . وما يسعهن أن يسرن الآن وإياها على درب البصرة وقد كانت الوجهة المتفق عليها هى المدينة دون غيرها من البلدان . أما وقد اختلف القصد فقد لذن بالعودة ، والأسى وحده يشيع السيدة الأولى عنهن ويسير خلفها حيثما تسير . والحسرة أيضاً لا تبرحها وقد رأت نفسها تنطلق فى زحمة الحوادث وحيدة إلا برجال — وإن سمت بهم شجاعتهم — ليسوا ممن تطمئن القلوب التى لم تشبها الأغراض إلى نواياهم المكنونة ... وحتى حفصة تخلت هى الأخرى عنها . حفصة صفيتها وظلها الذى لا يغيب ! . . . أم تخلفت برغمها حقا كما أبلغوها إذ حال أخوها بينها وبين الخروج ؟ ... ويغفر الله لابن عمر ! . . . إنه أبى أن يعد الحركة بقوة معنوية هى فى أشد الحاجة إليها الآن ، فلم يقرن بها اسمه اللماع الرائق الصفاء ، ولا اسم أخته . . . فيا ترى هل كان إباؤه هو الأسوة التى اتبعتها أمهات المؤمنين ؟ . . .

لكم أضناها الفكر وهى تقلب الأمر وتستعيد فى ذهنها كل هذه القصة ، هذه الفصول الجريئة التى استهلتها بالتخذيل عن على كتخذيلها عن عثمان إلى أن تصل بها الخاتمة إلى اليوم المغيب القريب عندما تنطق الأسنة ويفتح الموت صدره مرحبا بالرجال ! . . . إنها لا تعلم على أية هيئة سيكون ، ولكنها فى دخيلتها تستشعر الرهبة حين تفكر فيه . فها هى تسير على أرض ميادة لا يستقر فوقها شىء ، خطوها المضطرب سوف يقودها دون ريب إلى مجاز رهيب ، كقاطع غاب يدلج بليل تتخبطه مرابض الوحش ومسارب الأراقم كلما حرك قدميه ! . . . الأفكار فى خاطرها تتلاحق وتزدخر كموج اللجة فى يوم عاصف مجنون الريح تختلط فيه لمعات الضوء الخاطف الرقيق بقتامة الظلال الكثيفة السود . . . إنها تشعر أين

هى ولكنها لا ترى موقعها برأى الذهن المدرك المستنير ــ لا تستطيع أن تهتك كل هذه الظلمات المتراكبة طبقات فوق طبقات ، ويعسر عليها أن تفعل إذا أرادت وإن التمست فى خاطرها أقباس من الضياء الضئيل بين حين وحين . . . خيط الشعاع الخابي الذى يرتسم على صفحة الأفق الدكناء معلنا ولادة الفجر لا يكشف أحناء متاهة ملتوية الدروب أمام حيران ضال . . وهذا قبس أوقدته لها أم سلمة فما لبث أن ابتلعه الاعتداد ، وآخر جاء به ابن عمر فغاب فى ظلمة العناد . . . فلعلها الآن تحس أنها منطلقة إلى طريق ليس فيه نور ، أما اللألاء الباهر فخلف ظهرها خلفته هناك قبل أن تصرخ صرختها وقبل أن يخطر بها « عسكر » التياه الرشيق ، وتركت كل من نكصوا عنها يسبحون فيه ! . . .

ومع ذلك فلا معدى لها عن التقدم . . إن الهائم فى بحار الرمال يرى الموت فى المكث ويجدد السير أمله ، ثم قد يقوده إلى راحة الأمان .. وقد سارت هى . عاودت المسير عسى أن تلمح عند حد الأفق شجرا يانع الخضرة تنعكس ظلاله على الأرض الصفراء .. فماذا يا ترى يخفى لها الزمن فى جعبته ؟ . . النبع والدوح أم السراب الخداع ؟ . .

ولكن نبع الرجاء لم يجف كله فى قلبى الصاحبين . . طلحة قبل زميله كان متفتح النفس ، يستقبل معالم الطريق مشوقا به حنين ، فهو إلى منازل حزبه يسير ... وإنه ليحس القدر ذاته فى ركابه ، يؤيده ويعمل له . وهل كان يحسب من قبل أن يتبعه من الناس كل هؤلاء ؟ . . وإذا كانت نسوة النبي قد قعدن عنه بعد اتفاق فحسبه عائشة تلتف بها الجماهير كأنها العلم والجنود . ثم ها هنا أيضاً سعيد بن العاص ، قد راجع عقله فيما يلوح ورأى الخير فى الانضمام إلى الحركة بعد أن تأبى عنها يوم الاجتماع . . وها هنا المغيرة بن شعبة سيد ثقيف ، وداهية العرب فى الجاهلية وفى الإسلام .. أقبلا معا وهما يجهدان ليستطيعا اللحاق بالركب قبل أن يغيب .

وخف إليهما الزبير وطلحة ، فإذا سعيد ينتحى بالصاحبين ناحية ، ويهمس لهما بسؤال :

« إن ظفرتما أيها الشيخان لمن تجعلان الأمر ؟ . . أصدقانى . . »
فتوجسا شرا منه ، ولكنهما آثرا أن يجيباه :
« لأحدنا أينا اختاره الناس »
« بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه » .
« ولد عثمان ! . ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ »

فلما وضح له أنهما يتخذان من دم الخليفة الصريع أداة تقتضى لهما السيادة ، هز رأسه آسفا وقال :

« لا أرانى إذن أسعى لأخرجها من بنى عبد مناف ! »
واستدار ومعه المغيرة . ولكنهما لم يعودا فى التو ، بل انطلقا إلى صاحبة الهودج . وتقدم سعيد فسألها هى الأخرى :
« أين تريدين ياأم المؤمنين ؟ »
« البصرة » .
« وما تصنعين بها ؟ » .
« أطلب بدم عثمان » .
فاستضحك ساخرا وقال :

« فهؤلاء قتلة عثمان معك ياأم المؤمنين ؟ . . »
ومضى فالتقى بمروان بن الحكم فى نفر من صحبه وأوليائه ، فيهم أبان والوليد ابنا عثمان ، قد انطلقوا جميعاً فى ركاب طلحة والزبير ، يدعون بدعوتهما ، ويميلون حيث يميلان . . فإذا سعيد يصيح فيهم وقد بدوا له مطايا إلى غايات الشيخين ، ويوجه أعنف حديثه إلى ابن الحكم عميد هذا الفريق :

« وأنت أيضاً تريد البصرة ؟ »
« نعم ، أطلب قتلة عثمان . . »
« فهؤلاء هم ! . . »

وأشار إلى حيث كان الصاحبان ، ثم أردف يقول :

« إن هذين الرجلين قتلا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ، قالا نغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة ! . . »

فهل تجنى عليهما سعيد ونسب إليهما ما لم يقولاه ؟ . . أبدا . . بل ليكاد ينقل إلينا نفس الكلمات التي بدرت من أحدهما من قبل ، حين ذهب إليهما عبد الله بن خلف وقد علم بعزمهما السير إلى البصرة يريد لو أقعدهما عنه . . قال ابن خلف إذ ذاك :

« إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه فى عثمان شىء إلا وقد بلغ أهل العراق . وقد كان منكما فى عثمان من التخليب والتأليب ما لا يدفعه عنكما جحود ولا ينفعكما فيه عذر . وأحسن الناس فيكما قولا من أزال عنكما القتل وألزمكما الخذل ! . . وقد بايع الناس علياً بيعة عامة . . فإذا لاموكما غداً ، فماذا تقولان ؟ . . »

فكان الجواب الذى أتاه من طلحة :

« ننكر القتل ونقر بالخذل ! . . ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم عليه ، وقد ندمنا على ما كان منا . . »

وهو الجواب الذى نقلته كلمات سعيد بأمانة تعز عند الرواة ! . .

وهتف سعيد ثانية بمروان ومن معه :

« تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل ! . . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم يا قوم ! »

ونادى المغيرة بعده بصوت جهير :

« أيها الناس . . من كان ها هنا من ثقيف فليرجع . . »

ثم امتطى كل راحلته ، وتبعهما كثيرون تبينوا من الأمر ما كان خافياً عليهم من قبل ، وتركوا بقية الركب تسير إلى مصيرها المجهول . . .

٦

أذن مروان للصلاة . . ابن الحكم دون غيره من أتباع الجمل قام يدعو بدعوة السماء فى الناس ! . . فلعلة فعل الرجل ، وسارع قبل سواه بهذا النداء . وهل كان — فيما عودنا من قبل ومن بعد — إلا مفتوناً بالتدبير ونسج خيوط الأحابيل ! . إنه نفس مروان القديم صانع الدسيسة ، وهو اليوم يعد عدته لنصب شرك جديد ؟ . .

واستجاب القوم للداعى وللدعوة . وتهيأوا لأداء شعيرة الإسلام الأولى فأقبلت حشود الجيش تنتظمها الصفوف ، وتتجه منها العيون والقلوب وجهة واحدة شطر المسجد الحرام — نحو البلد الذى خلفوه منذ قليل وشهد مولد الرسالة السماوية التى رفع محمد مشاعلها تبدد غياهب الظلام . . وران عليهم الخشوع وهم يوشكون أن يلقوا الله فى الصلاة . كل قد اتخذ مكانه فى هدوء ، ساجى البصر ، خاشع الفؤاد ، فلا حركة ولا نأمة إلا ما تهمس به الشفاه من دعاء وتسبيح . . . ولكن إمامهم وحده لم يقف موقفه — بل من هو يا ترى كان ذلك الإمام ؟ . . طلحة أم الزبير ؟ . . الرجل الذى حالفته عائشة من البدء ودعت له بالإمرة حتى فى أيام عثمان ، أم الزميل الجديد الذى ربطته به حوادث الخلاف الجديد ؟ . من ذا يدرى من القوم الحاشد أى الصاحبين سيبرز أمام الصفوف ليؤمهم فى الصلاة ؟ . .

لا أحد يدرى على التحقيق وإن توزعت عواطفهم بين هذا وذاك . فلكل فى الجيش حزب وأعوان . وقد أرهف التساؤل حذر الفريقين معا وخشية الواحد من تقدم زعيم الآخرين إلى الاضطلاع بالإمامة فى هذه اللحظة الحقيقة بأن ترسم المصير السياسى للصاحب وللفريق الذى يناصره فالإمامة عندهم زعامة على الصلاة ، وزعامة بعدها فى كل ميدان للدنيا وللدين . وأحر بمن يتقلدها الآن أن ينعقد له لواء الخلافة من بعد . .

ولكنهم كبحوا عاطفتهم إلى حين . . ادخروها حتى يأتى لهم أن يروا رأى العين من سيكون صاحب الأمر ، وأى الرجلين منهما سيخطو أولى خطواته إلى السيادة إذ يتقدم الصفوف المنتظرة ويرفع صوته بتكبيرة الإحرام ! . . حبسوا الشعور فى الصدور ، فما يحسن أن يدعوا ريح الخلاف تعصف بهم ولما يتبينوا بعد نصيبهم من النصر أو الخذلان ، وأولى بهم وأجمل أن يتريثوا فقد آن وقت الأداء . .

هكذا حرك مروان رماد الغيرة بين الفريقين عسى أن يكشف تحته عن جمر التحاسد والخلاف ، وأوقع فى قلوب كل فريق التوجس من الآخر . فكلاهما الآن على حذر ، وكلاهما أيقن أنها هدنة موقوتة لم تكتب لها حياة طويلة ، لأن ظلها وشيك أن يتقلص غداً إن لم يتقلص اليوم ، ثم يتجاذبون بينهم السيادة كما يحاول الصاحبان جذبها من أمير المؤمنين . أما ابن الحكم فلم يكشف شيئاً مما أضمر قلبه ، بل سار إلى طلحة والزبير وعلى وجهه من سلامة الطوية قناع كثيف . . وإذا به يسألهما فى هدوء :

« على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ؟ »

على أيهما ؟ . . ذات السؤال الذى يراود الآن ذهن كل إنسان . . . ودون الجواب عليه بغضاء ودماء ! . .

فكأنه ألقى عليهما ناراً تتسعر ! . . للحظة ثبتت عيونهما على وجهه نظرة ذاهلة تفصح عن عجبهما تمام الإفصاح . . هذا أمر لم يدر لهما ببال ، أو قد دار ثم أرجآ الجواب عنه حتى حين — حتى اليوم الذى يتدخل فيه القدر على نحو من الأنحاء فيخلى الميدان لأحدهما دون صاحبه ويأتيه بالإمرة له وحده دون شريك . . لقد شغلهما على عن التفكير فى كل ما عداه . . وشغلهما ابتزازهما إياه أريكة الحكم عن التفكير فيمن سيعقبه عليها منهما الاثنين . فالوقت لم يتسع لتدبير كل هذا ، ولا الذهن اتسع لتدبره وإعداد العدة لأى احتمال قريب وبعيد . أما الآن — هذه اللحظة التى أثار فيها ابن الحكم ما كانا يتناولانه بالمطل والتسويف فراراً من الواقع الذى يخشيان . . الآن وقد فاجأهما الرجل بسؤاله العارى عن الكياسة ، أو قل عن المواربة والتمويه —

وصاح به عبد الله بن الزبير فى حنق وفى اعتداد :

« على أبى عبد الله ! » .

« بل على أبى محمد ! » .

فلم تختلج لمروان جارحة . بل نقل بصره وهو ساكن بين ابن الزبير وابن طلحة ، ثم راح يرمق الشيخين بثبات كأنه يستحثهما على الجواب .

ولكن طلحة كان قد حزم أمره . . العمل الحاسم السريع أجدى عليه فى هذا المقام من ألف جواب . فما أسرع أن هم يريد أن ينطلق إلى مكان الإمامة ويتقدم الصفوف . فإذا الزبير يهم كذلك ، كأنما قد استجابا معاً لتوجيه ذهن واحد . وتدافع الرجلان كل يبغى أن يكون له وحده هذا الشرف المأمول ويجهد فى دفع صاحبه عنه ! . وكان لابد أن يثير تدافعهما جدالا كريها كانا فيه كطفلين يتجاذبان بينهما دمية ! ... ولغط لساناهما بملاحاة ، وتلاحى أيضاً عبد الله ومحمد ، ومروان لا تنى البسمة الساخرة الخبيثة تلعب على شفتيه . . . فما كان أعمقها من هوة حفرها لهما بتدبيره ، وما كان أجداها من أحبولة ، ما نصبها حتى تخبط فيها الصيد لا يدرى كيف يكون الخلاص ! . .

وهمس معاذ بن عبيد الله لنفسه وقد شهد هذا السباق العجيب بين زعيميه على إمامة الصلاة :

« والله لو ظفرنا لافتتنا ، ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر ! . . » .

فلعل هذا المشهد كان شعاعاً جديداً أرسله القدر عسى عائشة أن تستضىء به ، وترى مستقبل الحركة التى احتضنتها على هديه . ولكنه لمع هو الآخر فى خاطرها كلمعة البرق ثم غيبته الظلمة ، فلم تتبين شيئاً على سناه . أو هى قد آثرت أن تغضى أيضاً عنه كما أغضت من قبل عن سواه . وكما تفعل الأم التى تشهد الخطر يكاد أن يدهم وليدها فعلت هى إذ استشعرت الخطر على حركتها من فتنة مروان التى ألبسها براءة المظهر وسلامة الطوية . فسرعان ما أرسلت إلى الرجل الخبيث تقول :

« ويحك ! . . أتريد أن تفرق أمرنا ؟ . . »

ثم أصدرت أمرها :

« فليصل ابن أختي . »

بهذا استطاعت أن تجتاز الأزمة العارضة وتسكن الفتنة التي كاد يوقظها مروان . وسعها أن تحسم خلاف الشيخين على السيادة ثم تقف برأيها حائلا بين أعوانها وبين الافتتان بتهدئة نفوسهم المتحفزة للتناحر . . . ولكن رأيها في الواقع لم يكن حكمة كله ولا دواء ناجعاً للداء . ولو قد أتيح لها النصر لتحقق قول معاذ . كذلك هي جنحت به عن موقف الحياد السليم بين صاحبيها المتنافسين حتى أوشك الناس أن يعلموا إلى أين تميل وأي الرجلين تختصه بالتقديم على صاحبه وتستخصه حتما بالاجتباء لمقعد الحكم لو خلى بينهما فيما بعد وبين الاختيار . أو ليس عبد الله هو ابن الزبير من أختها أسماء ؟ . إن حفيد أبي بكر قد بدأ الآن أولى خطواته نحو تحقيق الآمال الضخمة التي تملأ قلبه . مهدت له خالته صاحبة الهودج سبيل الطموح فأخذ يسير قدما فيه ، ولن يتأخر كثيراً ذلك اليوم الذي سنراه فيه قابض على ناصية الأمور ببلاد الإسلام بيد حديدية ، يناجز دولة الأمويين ويقض مضاجع ولاتها ثم يشيع الهزيمة المرة في صفوف جندها حتى ليوشك أن يهدم بنيانها كله في بضعة أعوام .

كانت عائشة برأيها ذاك أن تقدم لأنصار الجمل عنوانا واضحا على موقفها القابل من الصاحبين . وهل كان يغيب عنهم المعنى الذي يضمره اختيار عبد الله للصلاة ؟ . . لئن كان الولد جديرا بالزعامة السياسية فأبوه منه أجدر . ولأولى بالزبير أن يتسلمها منه ثم يفوز أيضا بالزعامة السياسية بعد حين قريب .

هذه الخواطر كانت خليقة بأن تجول بأذهان الناس إذ ذاك ، وتتأرجح بهم بين الرجاء والخوف حسبما كانت مشاعرهم وكان اتجاهها نحو الشيخين . ولم تكن كلها رجماً بالغيب ، ولا أوهاما جسمتها أخيلتهم السباقة إلى اكتناه الحواتيم . فهاهي المقدمات أمامهم جلية ، تنبئ عما سيسفر عنه حجاب المستقبل ، وتومئ إلى أميرهم المنتظر كأنه قد تسنم عرشه ودان له شعبه بالولاء . . . فالزبير الذي ظفر ابنه بالإمامة قد صارت له هو أيضا إمرة الجنود كأنما الأقدار تحرص على تجميع

كل مظاهر السلطان وأدواته فى يديه . . انعقد له لواء الجيش السائر إلى الظفر المرجو فمن ذا يا ترى يقوى على سلبه ثمرة النصر حين يأتى قطافها وقد اجتمعت له قوة الجند والسلاح ؟ . هل يجرؤ أحد حينئذ على مجاهرته بالعداء ؟ . . لعل طلحة غدا يرى من الحكمة أن يؤثر طريق السلامة فيهادن رفيق اليوم ، ويتبع ركاب جبروته مشيراً أو وزيرا أو فى أيما ثوب يختاره له الأمير المرقوب ! .

من يدرى ؟ . لعله سيؤثر هذا لو جرت على سننها البادى مراكب الأحداث . وقد جنح منذ البدء إلى المهادنة فاستجاب لأمر عائشة ، وارتضى فى الزبير إماما يصلى خلفه ويأتم به . قنع من كل أطماعه العريضة بدور الشريك المغلوب على نصيبه ، يملك دون أن يكون له حق التصرف فيما يملك . . حتى مظهر هذه الشركة بدوا كأن قد أرادوا أن يسلبوه إياه . فكان الناس يتجهون للزبير بتحية الإمارة ويدعونه « أيها الأمير » ! . أم ترى هذه دلالة على إمرته الجند فحسب ؟ على أى حال لقد كان اللقب يقترن باسمه هو أيضاً فى قليل من الأحيان كلما طاب لبعض أعوانه أن يشعروا أنفسهم أنهم وأعوان رفيقه بمنزلة سواء ! .

ويبدو أن عائشة أحست أنها تحيفت أكثر مما ينبغى لها على حق مرشحها القديم للخلافة ، لأننا لا نلبث أن نرى مشهداً آخر فى التاريخ تنجاب أسجافه عن أمير للصلاة سوى عبد الله ... فقد أنبأتنا بعض روايات الرواة أنها قدمت أيضاً عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليصلى بالناس . فلعلها أرادت بهذا أن ترد على طلحة بعض اعتباره ، وتوحى إليه أنها ما اختارت ابن الزبير وهى ترمى إلى أمر . ولعل عبد الرحمن وعبد الله كانا يتناوبان بالإمامة فى فترات حسبما سمحت بهذا السوانح ، أو اجتزأ أحدهما بفريق واجتزأ الآخر بفريق من أولئك الأتباع الكثيرين . ومع ذلك فما لهذا كله من دلالة سوى تناحر الفريقين على السيادة ، وجريهما أبدا وراء موكبها الفاخر ! . . ولقد كانت السمة البارزة لهذه الحقبة من الزمان الافتتان بلوغ السلطان حتى أوشكت الخلافة أن تكون صيداً يطمع فيه كل من استشعر فى نفسه قدرة على هز رمح ، أو اجتلاب أعوان ، أو انتحال قصة قد ترفع من قدره فى أعين الناس . دع عنك طلحة فغرامه بها قديم مشهور .

ودع الزبير الذى استهواه صاحبه فأوشك أن يكون فارسها المجلى كما رأيناه . ثم انحرف أيضاً عن عاهل الشام فله وحده حساب وكتاب ! . . . ومل بنا إلى نفر من ركب الفتنة نجد أشخاصاً قد استذلتهم شهوة الحكم أيما استذلال أو استطاع حب السيادة أن يدنى منهم العروش المؤثلة ولو فى يقظة الخيال ! . . فلعلنا لا نحرم ابنى عثمان : الوليد وأباناً ، من لذة الحكم بعد أن علما حديث سعيد بن العاص ! . ومن يدرى ، فقد تجرى لهم ريحهما رخاء . . . وهذا أيضاً مروان بن الحكم كيف لا يأمل أن تجتمع له إمرة الإسلام والمسلمين ذات يوم قريب وهو الذى نفخ فى نيران هذه الفتنة لتفيء عليه المغنم المطلوب ؟ . . لقد كان الرجل هو الخليفة الفعلى ردحاً من عهد عثمان ، بغيره لا تبرم الأمور ولا تساس البلاد ، فهلا يكون حقاً له الآن أن يستأنف سيادته ، بمظهرها وجوهرها كليهما ، حين تنضج ثمار تدبيره ؟ . . إنه لم يتخل قط عن مطمحه حتى بعد أن ذهبت ريح فتنته وفشل تدبيره مع خصوم الإمام . وعندما خانته الأيام ، وسبقه ابن أبى سفيان إلى السطوة بقى وفياً لحلمه يغذوه ويرعاه وهو مستيقن أنه التالى بعده على عرش الأمويين . فلما أن أكره معاوية الناس على البيعة لابنه المفسود يزيد ، كاد مروان يثيرها حرباً شعواء على سيد بيته لولا أن توسل إليه هذا بالمداهنة والدهاء . . كذلك نجد عبد الله بن الزبير بين هذا الفريق المفتون بالسيادة وإن حدثت منه . ولكنه لم يعدم اتساع أفق الآمال ولا انبساط الخيال . والأمل والخيال الوثاب حليفا الشاب وها هو اليوم قد استعان بعدته منهما فطلع على الناس بقصة عجيبة ، زعم فيها أنه الخليفة الشرعى لعثمان عن وصية منه قبيل مصرعه يوم الدار ! فهو إذن أولى بالأمرة من سواه وأجدر وإن كان الساعى إليها أباه .

كانوا بالركب عصبة أربها معا استلاب خلافة ابن أبى طالب ، وأرب كل فرد منها وحده احتيازها لنفسه دون غيره . . . فأعجب به من هدف جمعهم وفرقهم فى آن ! . . وما أشبهها كتيبة تتنازع الأسلاب ولما تبدأ المعركة . ولكنهم حازوا بأخيلتهم النصر ، وأغفلوا حكم الواقع الذى لن يلبث حتى يرفع عن عيونهم غشاوتها . ثم لا يكادون يتبينون مواقفهم حتى يتبدد حلمهم ، ويرقد أكثرهم صرعى على ثرى البصرة . . .

٧

توالت الرقاع على الإمام تحمل له أنباء الفتنة ، والخطة التي رسم القوم العصاة لأنفسهم كي يناوئوه . وما زالت الرسل مقبلة عليه بالأخبار ، محصية حركات حزب عائشة بين يوم ويوم ، من مكة أولا ، ثم من الطريق التي سلكوها وهم يقصدون البصرة بعد أن عقدوا العزم على السير فى عصيانهم إلى مداه . وامل أكثر هذه الكتب وقعا فى نفسه كان كتاب أم سلمة . إن هذه السيدة الفضلى بقيت على ولائها له لم يبدلها الزمن ، ولم تقطع وفاة فاطمة ما كان موصولا بينه وبينها من إكبار وعطف متبادلين منذ دخولها منازل رسول الله . . . فلما عادت من البلدة الحرام بعد أن أعياها رد عائشة عما أبرمته ، سارعت تلقى الإمام فتحدثه وفى عينيها دموع :

« يا أمير المؤمنين . . . لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى لخرجت معك ... فهذا ابنى عمر ، وإنه والله لأعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فاستوص به خيرا يا أمير المؤمنين ... »

فهى وما ملكت ! .. نضحت عنه بمنطقها ، ثم بهذه البضعة الحية منها تذود عنه . . . وكانت بهذا صورة ناطقة للوفاء ، وللفناء فى سبيل ما تؤمن به . . . وإنك لترى أشباها منها كثيرين زخرت بهم هذه الحقبة التى غلبت الأهواء فيها على نبالة النفوس . ولكن الحق أبدا لا يعدم النصير .

ونهض على لشأنه . للواجب الذى ألقته الأقدار على عاتقه ، فإذا هو أشق واجب وأكرهه لقلب سليم ، إن صبر وسالم أكاوه ، وإن قام يقابلهم عدة بعدة وسلاحاً بسلاح لم يأمن أن تتفرق الأمة شيعاً بينهم وبينه ، يضرب بعضها بعضاً ، وتأتى على عنفوانها أداة الحرب ... وها هو الخبر اليقين يأتيه من قثم بن عباس ، وكان قد بعثه إلى مكة يستنبىء له سير الأحداث ، بأن المتآمرين قد اختاروا الطريق الوعر ، لم يقعدهم عنه حلمه ولا تريثه بهم عسى أن يجنحوا إلى الهداية . . أرادوها فتنة وأضرموها ، وانطلق اللهب فى آثارهم صوب البصرة .

فكم غمه ما بلغه ، وأثقل قلبه ، وألقى ستراً من الظلمة أمام عينيه ! . .
لو كانت له أزمة النفوس البشرية لمال بهم عن الغى . ولو كانت بلاغته مغنية فى هذا الوطن لأوسعهم النصح حتى لايبرح المنبر ! . ولكن المحنة أينعت وأوشكت أن تثمر أشلاء ! . وها هى رائحة الحرب تملأ الجو وتزكم الأنوف ، فما بقى غير حديث واحد يصغون إليه : حديث السيوف للسيوف ! . .

ومع ذلك فثمة أمل لا يزال يبرق فى خاطره ويكاد يلهمه الطمأنينة . ولعل القدر يسعفه بتحقيقه فتعلو كلمة العقل الراشد على صخب الهوى العزيز ! . إن البصرة تدين لسلطان عامله فهى أميل إلى الولاء له ، ومسيرهم إليها كفيل بأن يحد من غلوائهم عندما يرون أهلها لا يسارعون بالانحياز إلى فتنتهم . فإذا بان للخواطر أن غالبية سكانها ليست من أصل عربى أوشك استمساكها بدولة الإمام أن يكون حقيقة واقعة بعد أن عرفوه رجلا جعل المساواة التامة بين العناصر جميعها عماد سياسته . هذا ما قر فى ذهن على وزوده بالأمل حينما علم أن العصاة لم يقصدوا الكوفة مباءة العرب الذين تسودهم شريعة العصبيات . . وبه تحدث مظهرا ارتياحه فقال لابن عباس :

« لأن يأتوا البصرة لأحب إلى من أن يأتوا الكوفة » .

« وكيف يا أمير المؤمنين ؟ » .

« إن الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم ؟ » .

فلعل ابن عباس حسب أن رجالات العرب بالكوفة أقدر على الوقوف فى وجه الفتنة وأحرص على كبحها من سواهم لو سار جيشها إليهم ، أو رأى فى افتتان زعمائهم بالسيادة وتناحرهم الرتقب فيما بينهم عليها ما يفسد اتحادهم فى عداء الإمام ، فقال :

« إن الذى يسرك من ذلك ليسوءنى يا أمير المؤمنين . . الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله ، فإذا كان كذلك شغب على الذى قد نال فيفسد بعضهم على بعض » .

وكان رأى قيس بن سعد بن عبادة جامعاً لما أجمله صاحباه ، وكاشفاً عما ينطوى عليه قلبه نحو أصحاب الفتنة وهو يقول :

« . . والله ماغمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأنهما عندنا حلالا الدم لنكثهما بعد البيعة ، ولأنها من علمت مقامها فى الإسلام ، ومكانها من رسول الله ، وفضلها ، ودينها ، وأمومتها منا ومنك . . »

وهز رأسه أسفاً ، ثم أردف يشير بما يراه :

« يا أمير المؤمنين . . إنهما يقدمان البصرة وليس كل أهلها لهما ، وتقدم الكوفة وكل أهلها لك ، وتسير بحقك إلى باطلهم . . لقد كنا نخاف أن يسيرا إلى الشام فيقال صاحبا رسول الله وأم المؤمنين فيشتد البلاء وتعظم الفتنة . . فأما إذ أتيا البصرة وقد سبقت إليها طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليها عاملك — فسر فإن الله معك »

وأى وجهة انتهى إليها عزمهم فقد بقى على عهده جانحاً إلى السلام ، يود لو استجاب خصومه له بالحسنى فجنبوا الأمة شر الانقسام والفرقة . لقد كان المسير إلى الكوفة رأياً صواباً كله قد يحمل عربها على الالتفاف حوله قبل أن تستهويهم مظاهر المروءة التى لبستها الدعوة العائشية ، وقبل أن يفتنهم التشيع للعصبية العربية ، التى يكلفون بها غاية الكلف لاستعلائهم بجنسهم على بقية الأجناس ، والتى لا ريب كانت حرية بأن تميل بهم إلى جوار طلحة والزبير وأضرابهما من رجال العصيان إذ كانوا المعبرين عن خواطر السواد من قريش المفتونة بخلاف الهاشميين . وكانت أيضاً موقعاً وسطا بين الحجاز والشام ، يستطاع منه صد الفتنة لو غالت البصرة وانطلقت إلى الشمال لتتصل بمعاوية ورجاله ، أو شاء ابن أبى سفيان أن يمدها بعونه لتنتزع بقية البلاد الإسلامية من يد الإمام . . ومع ذلك فلم يتخل على قط عن أمله فى معالجة الأمر بالهوادة ، لعل الله أن يصلح النفوس فتفىء إلى السلم . لم يقعده عن غايته تلك حماسة أصحابه ، ولا إيمانهم بحقه وجور مناجزيه عليه . وإنك لتسمع منهم آيات من الوفاء كانت حقيقة بأن تبطر غيره فى مثل هذا الوطن ، وتنحرف به عن هدفه السلمى إلى سل الحسام وهز القناة تعجيلا لنصر مسلح . . وإنك لترى أضراباً من أبى قتادة كثيرين ، يحملهم إليه الولاء وتدعوهم الرغبة الخالصة فى الفناء من أجله ، يهيبون به أن يدفعهم إلى

القتال ، وأن يرمى بهم فى غمرة الوغى كيف شاء ، فإذا به هادىء ساكن ، لا يفتنه كل هذا الوفاء عما عزم عليه من الإعذار قبل تسديد ضربته ، ومن تقديم الهوادة والنصح على التحدث إلى أخصامه بمنطق الحرب .

يقول له أبو قتادة وقد استغرقه حماسه وفاضت به حميته ؛ وهو يهز فى يده حساماً مغموداً :

« يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله قلدنى هذا السيف ، فشمته فطال شيمه . وقد أنى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا ! . . فإن أحببت أن تقدمنى . . . » .

فلا يكون لهذا القول ولأمثاله بضعة من أثر تحوله عما اعتزم عليه . . . إن الحرب التى تنتظره ليست حربا تتهاوى فى حقلها الرءوس وتتمزق الأجسام . . ليست صراعا صاخباً بين الرماح والأسنة . . . ليست كفاحا يقاس فيه النصر بمقدار الأرض التى يحتلها فريق وتنحسر عنها جيـــوش الآخر ؛ بل هى فتنة هوجاء ويل فيها للغالب والمغلوب ، الأمة كلها حقلها وساحتها وحين تحيق الهزيمة بإحدى الطائفتين فستلقى فى قلوب أفرادها بذور حقد تنمو على الزمن دوحا شامخا يظل أبداً ظامئاً للدم ! . . أما النصر فلن يكون فى يد الأخرى غير ثمرة فاسدة مريرة المذاق . . . ولكن الإمام يعزف عن نصر مسلح يجر فى أعقابه حقداً يرسخ بأفئدة غريمه ولا يزول أو يزول الدهر الداهر . إنما غايته أن ينتصر على النفوس الضالة والقلوب التى ضرب الهوى عليها أكنة . آثر أن يسمو بالعواطف الإنسانية إلى ذروتها الطاهرة فتستجيب للنبل والحق المطلق . ويوم يستطيع التغلب بسلاح رفقه على عدوه فستذوى الدوحه الخبيثة فى منبتها قبل أن تبدو لها ساق ، وتمحى كلمة الثأر من سجل العلاقات بين أبناء أمته . . وإنه إذن ليوم النصر المرجى الذى تعقبه وحدة وثيقة تؤلف قومه ، ويرفرف فيه على الرءوس لواء واحد ، ويسجل القدر فى لوحه مجداً للاسلام ليس بعده مجد .

هذا هو الأمل الذى جاش بصدره فعمل جاهداً على تحقيقه ، وبه استهدى وهو يسرع إلى طريق نجد بتلك النواة لجيشه الذى كان قد بدأ يعده لغزو الشام

ولما يتم اكتماله . وكانت خطته أن يسبق أصحاب الجمل ببعض الطريق ثم يردهم بالحسنى عن البصرة قبل أن يبلغوها ويفتنوا الناس . ولم تكن له فسحة من الوقت ليتأهب بما يكفيه من عتاد ورجال تحوطا لما عسى أن يسفر عنه عدوه من لجاج قد يثير حرباً لا تتعادل فيها القوتان . ومع ذلك فإنه لم يتردد كأنما كان موقناً بنصره السلمي عند اللقاء ، وخرج بفئته القليلة دون أن يتعبأ تعبئة حرب تامة ، بلا كفاية من زاد ولا سلاح ، متخففين ما وسعهم كأنهم يسيرون إلى مرتاد نزهة ! . . .

ولقيهم بالطريق عبد الله بن سلام . . . الصحابي الجليل كشفت له نفسه الصافية عن أمر فسارع يرد القوم عن مهوى القضاء المنتظر . وإنه ليندفع إلى الإمام وليأخذ بعنان دابته فيلويه كأنما أراد أن يدفعها عن السير . وكانت الدموع تلتمع في عينيه ، وكيانه كله يهتز بما انطوى عليه صدره من مشاعر كما تهز الزلزلة الأرض . . ثم هتف وصوته المهتاج تفيض منه نبرة التوسل :

« لا تخرج ! . . لا تخرج منها يا أمير المؤمنين ... فو الله لئن خرجت منها . . لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين . . أبداً . . »

فبادرت إلى الشيخ طائفة تصده . وزجرته طائفة . . . وهمت به أخرى تؤذيه بالقول الخشن وتكاد أن تنال منه . . . فإذا علي يصيح بالجمع :

« دعوه فنعم الرجل ! . . . »

أفلسنا نرى الصدق في كلمات هذا الصاحب الكريم ؟ . . لا ريب . فذاك رأي للإمام قديم . وإن قلبه لما زال يردد — حتى في هذه اللحظة التي يستهدي فيها بأمله — نفس هذه الطيرة التي رددها إمامه عبد الله . . إنه منذ قليل طالع صحبه بذات الرأي وهم يوشكون أن يبرحوا المدينة . . . ألم يقل لهم حينذاك :

« . . . إن في سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها . . والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً . . . »

ومن له الآن بمن يضمن اعتصامهم بأمر الله في هذا الزمن الذي حكمته الأهواء ؟ . . .

.. ثم سرى رجال الكتيبة والليل ، يشتدون فى مشيهم قدما . . . وكان يسير على رأسهم وشعوره يعصف به ، ومع ذلك فقد دفع عنه يأسه وراح يضرب مع القوم . . . وإنهم ليتوثبون لغايتهم أيما توثب ، ويسرعون الخطا حتى ليكاد يحملهم من نشاطهم جناح : أفكانوا والقدر أفراس رهان فجهدوا ليغلبوه فى ساحة الزمن ويسبقوا تصريفه المغيب ؟ . لقد تزودوا بالرجاء فى رحلتهم النبيلة فلم يأبهوا فيها بمشقة . وسلوا عزمهم مرهفا كما تسل السيوف البواتر . ومضوا مبادرين نحو ما أرادوه . . . ولكن القدر سبقهم ، وبسط الصحراء الفسيحة أمامهم كسجل مفتوح ، أقدامهم عليها أقلامه التى راحت تخط دراكا سطور المأساة القريبة كلما تقدمت بهم على أنقاء الرمال ! . . .

٨

كانت ليلة من ليالى الخريف ، وسنانة الريح ، شف جوها دفء رقيق لعله بقية الصيف الراحل . . . ساجية كحلم هانىء ، نديه كنسمة البحر ، قد أشاع فيها السحر المطلول أنفاساً ريانة حملت لها بشائر الشتاء . وكانت صافية الأفق كصقال مرآة ، برامق نجمها الساهر الرمل بلمحه فيتألق كذهب سيال ... نقية السما لايشوبها ظل . الصحراء الفضاء تحت صفوها بدت كلوحة الذهن الذاكر ، تلاقى عليها ضياء السماء بلألاء الأرض كالتقاء الماضى الغابر بالحاضر الغض فى خيال مدكر !

الكتيبة الآن تدرج على هدى النجم ، يتراءى رجالها فى خفقات ضوئه كأشباح . لاتكاد السرعة البالغة تتيح لأقدامهم لمس الأرض ... إنهم يتحدرون بين الرمال ولهم مثل صوت اللجة فى بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعته أمامها الريح حين إعصار . كلهم انطوى على الرجا . وإن أحس يد الرهبة تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى فراغ وفراغ . وأينما وجهوا العيون طالعتهم الرمال الجدبية ، صامتة خرساء لاتكشف لهم عن سر القـــوم الذين ركبوا المشقة ليدركوهم . . لا أثر هنا لجيش ، ولا لمدلج بليل . . وحتى مواقع الأقدام التى

لعلها قطعت قبلهم هذا المجاز لم يحفظها الرمل بل انطوت فى خضمه ، ولم يبق لهم سوى أمامهم يتأرجح بخيط .

ولكنهم مضوا يغالبون الصحراء ، ويقتطعون الشقة بعد الشقة من رقعتها المبسوطة لعلها تشرف بهم على الغاية الموجودة فى نهاية الطواف . . . انطلقوا على أديمها المياد صامتين إلا دبيبا مكتوما ينجاب عن وطء الأرجل ، وأنفاساً لاهثة ترددها الصدور ويبددها حفيف النسيم أما المشاعر فلها فى القلوب اصطفاق تدافع وتراجع ، وقد أثارها السكون الذى لف السكون . فما أكثر ما يهيج الهدوء ذكريات النفس فتنبعث خواطرها الدفينـــة فوارة كماء الينبوع ! . وما أسرع ما يلهم الصفاء التأمل ! .

كان ينطاق فى طليعة الكتيبة ، خفيفا مبادرا ينتهب الأرض . ولكنه لم تغمره ضوضاء جيشه ولا ضجيجه . . فى حساب إحساسه كان نائيا عن رجاله بواد سحيق بعيداً عن دنيا الناس ، وقد احتجزته لنفسها الذكرى واحتواه التأمل إنه فى ركاب قافلة الفكر ! . . ولئن ضربت به راحلته مهاد الأرض فليس لوقع أرجلها صوت . . . ولا كل هذه الجلبة المنبعثة من سير جنوده تطرق سمعه. وحين التقت عينه بصفحة هذا المكان السابح فى ضوء النجم ، انبثق أمامه الماضى كانبثاق ألوان الطيف عن وجه النعيم فى يوم ماطر ! . . فها هو الفضاء الرحب يزخر بمشاهد من حياته قديمة . وها هى الصحراء قد انقلبت حكاية تحل تنز بأصوات عادت له من الغابر الغائر فى أعماق ذاكرته كأنها نبت اللحظة الوليدة . . . التقى أمسه على صفحة ذهنه بيومه ، وذابت حدود الزمن وأحيازه فلا سلطان له على الذكريات . وازدحم حوله السكون بالأصداء والصور ، وكلها جلى غض . . وإنه ليتبين منها صورة قريبة إلى قلبه ، فيها صاحب جليل له وللرسول راح يدرج على بساط الرمال وقد براه الهزال وآده ضعفه ، وفيها صدى من الماضى يهتف رءوفا حانيا وراءه : « يمشى وحده . . » . . . ثم تبدو له أخرى تهز مشاعره وتجعل نفسه تسيل من الأسى والتفجع . انطبع عليها ذلك الهزيل الضعيف وهو مسجى ساكن الجوارح على جلد شاة وقد نزفت من أوصاله الحياة . . . فلا يلبث الصدى الرحيم أن يهمس : « يموت وحده . . . »

وقد مشى الصاحب وحده ، ومات وحده مصداقا لحكمة الغيب التى أنطق الله بها لسان رسوله وأعادتها الذكرى ثانية صدى فى أسماع الإمام . وذهب مثلا خالداً فى الأعصر لإنكار الذات والفناء فى سبيل غاية نبيلة ، ولم يبق الزمن منه إلا لمحة فى الخواطر المستعيدة ...

ويهتف الدليل الذى أم الفرقة فى مسراها ، بصوت يشق السكون :
« الربذة . . »

الربذة المنفى الذى انتجعه أبو ذر حين ضاق به عثمان فسيره نآيا به عن أصحاب الثروات ؟ . المثوى الذى ضم رفاته فطهر به ؟ . . روى الله ثرى الشهيد المرهوب ! وأصدق بمحمد إذ قرأ له مصيره هذا وهو بعد فى لوح الغيب : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض . . » وها هى الفلاة . . ها هنا فى ثراها انطوى الشيخ الذى قهر الدنيا لأنها نادته فأدبر ، وراودته فاستعصم منها بإيمانه بالجوهر دون المظهر . . عليها كان محياه ، وفيها رقد جثمانه ، ومنها مجازه من زيف الحياة الرخيصة إلى العيش الآبد فى عالم ليس يكدره سلطان الناس . . .

وألقاها على نظرة عجلى على وادى الرمل تروده إلى ناحية فيها اطلال وفيها آثار . . فاذا عينه تلتمع بدمعة ، وإذا قلبه تملؤه رهبة ، وإذا كيانه كله يحتوى الخشوع وهو يكاد أن يسمع من جانب المثوى الساكن ذات الكلمات النقية التي رددها صاحبه الثاوى منذ أعوام :

« رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيتك يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله . . »

أما الآن فقد مضى محمد ، ومضى أبو ذر ، ومضى فى أعقابهما كثيرون ستظل أحيازهم فى الدنيا فارغة لا يستطيع أن يملأها إنسان . . فكأنما الخير ولى بعدهم على الأثر ، وفارق حتى هذه النفوس التى كان يرتجى منها الخير . فللدنيا اليوم سطوة على الخلق تفتنهم بزخرفها وان انطوى على ضلالة . وتسير بهم كيف تشاء فيتبعونها كأنهم ظلال . . .

وما عتم أن التوى عن الذكرى ذهنه ، وخلف قافلة الفكر ليتابع موكب الحاضر . . . فإن هى إلا لحظة حتى انفرج الأفق الأشهب عن راكب يطير نحوه مع خيوط الفجر . أهذا بعض طلائعه التى بعثها ترود السبل قد جاءه بنبأ عن القوم ؟ . . .

وهدأ سير الركب . وتعلقت أنظار من فيه بالفارس الذى أطلعته جوانب الظلمة الرقيقة . إن عليه لوعثاء مرتحل نشر من البوادى وطوى مراحل صبغت أردانه . وهذه أذياله انبسطت على جانبيه كالجناحين . وفى وجهه وجمة محاذر ، وعلى آثاره انطلقت كتائب القلق تهم أن تغزو القلوب التى لعبت بها أكف التوجس . . . وعندما طالعهم كان أملهم لا يزال معلقاً بخيطه ، ولكنه إذ قاربهم زحف إلى صدورهم خوف غامض هو طليعة ذلك القضاء المرهوب الذى يوشك أن تنفرج عنه شفتاه . . . أفآن يا ترى لهذا الأمل أن يذوى عوده ثم تسقط ثمرته فتضيع بين رمال هذه التاهة كما تغيض قطرة الماء ؟ . . .

على لمح النجم تبينوه وهو يسعى مبادراً إلى مكان الإمام . وحين ترجل كانت أنفاسهم تلاحقه . فلما أن فتح بالحديث فاه سكنت تلك الأنفاس . . تعلقت بالهواء الذى حفهم لا تذهب ولا تروح . . . وأرهفوا حواسهم كلها فنى جوارحهم كلها آذان . . .

وهتف عطاء بن رئاب وفى كلامه مثل رنة النذير :

« لقد أمعنوا يا أمير المؤمنين . . . » .

فما أسرع ما حملت لهم هذه اللحظة كل ماصادفهم من المشاق فى الطريق الذى قطعوه واستشعرت أوصالهم إعياء كان يخفيه عنها شعورهم السالف بقرب النجاح . أما وقد غاض أملهم فإن نشاطهم ذاب فى دفعة واحدة . . رسب إلى القاع وطفت فوقه المتاعب التى كانوا ينفضونها عن كواهلهم من بدء الرحلة . إنك لتنسى أوصابك ولا تحس بها وأنت تستبق الأخطار إلى هدفك المنشود ، حتى إذا كبوت دونه وانقطع بينه وبينك الطريق حضرك من آلامك ماكان هونه أملك . . فالأمل دائما خفيف مفراح ، وعلى النفس اليائسة من قنوطها مثل أوثاق الصخر ؛

ومع ذلك فليس الشعور الذى امتلك الكتيبة الصغيرة كان من خشية عدوها السباق ، ولا إشفاقاً من لقاء الأسنة التى أعدتها لها جيوشه . . . بل هو وليد الأسف على مصير الأمة التى حلقت فى جوها هامة الحرب تنادى بظمأها للدماء ! إن أصابع القدر لتكاد كلها تشير إلى صراع دموى عنيف ينتظر قوى الإسلام فيفرق بين الإقليم والإقليم ، وبين البلدة والبلدة ، وبين المرء وأخيه ، وما لعلى الآن يد بإدراك العصاة قبل أن يشعلوا نار هذا الخلاف الرهيب ، وليس له سلطان على عقولهم يهديها كما يرجو إلى مسالك السلام . . .

أمعنوا ؟ . . . مضوا إذن لطيتهم ضاربين فى الطريق إلى وجهتهم وعما قليل يشارفون أسوار البصرة ثم يدقونها للدخول أفيستجيب لهم أهلها ويلحقون بركب الفتنة أم يصدونهم عما جاءوا فيه ؟ . . لا معدى عن التحام الأسلحة فى الحالين ، وعن ضرب الهام وتمزيق الأجسام ، وإذا تكلم السيف ساعة تحدثت بعده العداوات ، وضربت معاول الفرقة فى بنيان الوحدة الإسلامية ، فلن يستكين لهم عامل على هناك : عثمان بن حنيف ، على الأقل لن يدعهم يبتزون منه سلطان مولاه وهو ساكن ينظر دون أن يهز رمحا أو يحاول رفع حيفهم ولو بإشارة بنان ، وحينئذ لا محيص عن اقتتال الفريقين : أحدهما يضرب ليفوز ، والآخر يدفع ليذود عن كيانه وعن الولاء المفروض عليه حيال صاحب الأمر الشرعى فى البلاد .

وخفض أمير المؤمنين رأسه وهو يطوى على الرثاء جنبيه . . . ما لهذا القدر الذى سبق بالتدبير فأبرم ما شاء ! . . على أنه مع ذلك لم ينفض يديه من رجائه فثمة بقية فيه لعلها تترعرع إن ظل بالنفوس الضالة فضل إدراك . . ومن يدرى ما عسى أن يسفر عنه الغد ؟ . . أما اليوم فواجبه أن يضن على الإعياء بقوى الرجال . لزام عليه التأهب للصراع المنتظر إن طالعته الظروف بالصراع . وهل كان يفوته وجوب الحيطة وأخذ حذره لكل احتمال ودون بلوغه البصرة مراحل تأكل جهد الجيوش المعبأة للحرب بخير عتاد وخير زاد دع عنك كتيبته الصغيرة هذه التى خرجت وليس فى حسبانها خوض غمرة القتال ؟ . .

على هذا حزم أمره فآثر المكث بالربذة حتى يأتيه المدد من الجند والسلاح والمؤونة ، ثم يزحف بأداة قتال مكتملة التعبئة إلى مواقع عدوه . . ذلك أدنى إلى إرهاب العصاة ، وأدعى أن يفيئوا إلى السلم المنشود أو يقمعوا صرعى إن ركبوا طيشهم وقاتلوه . . . وكما ترك لقثم بن عباس أن يشرف على التعبئة بالحجاز فكذلك بعث برسله إلى بقية الأمصار الموالية يستمدها العون ، ويدعو الناس فيها أن ينفروا إليه غير مكرهين . . . كتب لأهل الكوفة يقول :

« أما بعد . . فإنى خرجت من حيى هذا إما ظالما وإما مظلوما ، وإما باغيا وإما مبغياً عليه . وإنى أذكر الله من بلغه كتابى هذا لما نفر إلى . فإن كنت محسناً أعاننى ، وإن كنت مسيئاً استعتبنى . . . » .

وإذا عزم على البقاء حط رجاله الرحال . وغار النجم تلك الليلة والربذة تعج بالقلوب التى عمرها الولاء للرجل الذى ائتلف على هضمه الزمن والنفوس . ولكنه كان راسخ الإيمان بحقه ، عظيم الثقة فى أنه يسير على النهج الواضح المستقيم . وهل عمل قط لدنياه أو انقاد لزخارف الأباطيل التى طالما استهوت من الناس أشدهم أخذا بأسلوب التوقى من إغراء الحياة ؟ . . . إن تحت الثرى قلباً يعلم هذا فيه — وعيه عنه منذ أعوام ، ويود لو هتف به الآن على الملأ الحاشد لو كان لجانب قبره لسان ! . . ها هنا ذاك القلب ، فى هذا الركام الذى لعبت به أيدى الريح وسفت عليه رمال الصحراء ! . . . ولو قد تستطيع أعظم الثاوى أن تتجمع ثم تلتئم بشرا قادرا كما كان أبو ذر لهبت من رقدة العدم تنضح عن الإمام وتسير فى ركابه أينما سار . فما علم هذا الصاحب الذاهب امرءاً يستمسك بالحق كمثل على ويحتذيه ، ولا أحداً أكلف منه بالتزام الجادة السواء . . . لا أحد مطلقاً بعد رسول الله ... وليس أصدق صورة لنفس ابن أبى طالب من تلك التى رسمتها كلماته المزجاة للشهيد الراقد بهذه الفلاة يوم شيعه حين أخرجه عثمان . إنها سكة قلب ملهم مستنير فمل بنا إلى قبر الزاهد نسمعها منه أو لعلنا نجد منها على رفاته بقية آثار ! . . .

« يا أبا ذر . . . إنك غضبت لله فارج من غضبت له . إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك فى أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً . . . يا أبا ذر ، لو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا . . . يا أبا ذر ، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك ! »

فهل من كلمة أبلغ دلالة على الأنفس البشرية بلونيها من هذه التى نطق بها الإمام ؟ . . . إنها لترسم لنا صورة من قلبه النقى كيف كلف بالمثل الأعلى حتى رمى دبر ظهره كل فتنة الحياة ، وتصف السادر فى غمرة الدنيا حتى لينسى أن ثمة نهاية لدنياه . ولسوف ينطلق الزمن فى بروجه بالجميع ، وتنطوى صحائف الرجال فلا ينشرها بعد على الأجيال إلا ذكر يرفع صاحبه أو يهوى به إلى قرار . فإذا ذهب العمر وبقى الذكر فستنشر من أمجاد على أسفار وأسفار تجعله فى الموت أقرب إلى حسد عدوه منه فى حياته . ذلك أنه اشترى الحق بهذه الدنيا فراجت سلعته ، ونفقت بضاعته ، وضلوا هم عن سوائه فأقبلوا على تجارة مآلها عند الأحقاب المتعاقبة ثم عند ربهم بعدهم ، خسران وبوار ! . . .

٩

بهت الليل . . . شحب ظلامه كأن يد السحر راحت ترفع أسجافه واحداً بعد واحد عن وجه الكون حتى بقى منها وشاح رقيق شفاف . وأخذت نضرة الضوء تترقرق فى صفحة الأفق ، على طرف الصحراء البعيد ، وتتكسر موجاتها الصغيرة خابية اللون ، مخافة إذ تهمس بالبشرى عن النهار الوليد . . . وحين جرى اسم الله على وادى الرمل شاعت فيه صحوة الحياة . ففى أركانه رنت دعوة الفجر ، وانطلق داعى السماء يردد نداءه فى الفضاء الرحيب فتخشع له الكائنات ، حتى الحصا والندى ونسمة الريح ... وما أسرع ما استجاب رجال الإمام للنداء ،

كأنه الصوت وهم صداه . خفافا قاموا للصلاة نافضين عنهم مشقة السير وانتظمتهم في عقدها الصفوف . وخفافا ألقوا قلوبهم إلى رب الكون ، متجردة إلا من خفقها الرتيب الوئيد . . .

وسرت على خيط الضوء قافلة تسير ، في خطوها الرفيق وسن وهي تدرج فوق بساط الرمل كأنها تمشي على ماء . . إبلها المكدودة قد أعياها طول السرى حتى أوشكت أخفافها أن تلتصق بالأرض ، وبدت لبطئها لا تقبل ولا تريم . وركبها لفهم برد النوم ونأى بهم عن دنيا الوعي . ولكن نداء الفجر شق عنهم الغطاء ، فأيقظ هاجعهم ، وأسرى الحمية في أوصال البهم فمضت تستبق إلى ذلك الحشد المتهيء لاستقبال بيت الله ، المتولي صوبه بالأفئدة وبالوجوه . . . عندما كان أصحاب الركب على مبعدة حسبوا الحشد قطعة من الليل لم تمسها يد البكور الوضيء ، ولكنه الآن في مجال عيونهم رجال . . . أصحاب وغى كما يلوحون ، فهذه أدراعهم حولهم غطت جانباً من المكان إذ خلعوها وهم يهمون للصلاة . وتلك أنعامهم على كثب رابضة في سكون وتهويم . . . ولو انجاب آخر وشاح من الظلمة لتبينهم الركب ، إلا أن غبشة السحر كانت ترد الأنظار .

مالت القافلة الصغيرة إلى النداء . . . وغمرها مع أضواء الفجر غامر الزحام فاندست فيه . . . تلك الطائفة من أهل الكوفة التي خرجت تروم العمرة قد استقبلت بالطريق أفواجا مناط آمالهم رجال الكوفة ، علقوا بقصبة السواد لأم الصدع الذي يوشك أن يصيب الإسلام . . . فهاهنا الإمام ، وهاهنا صحبه الذين مضوا يتبعونه اتباع الظل ثم تريثوا معه حتى يأتيه المدد الذي بعث يستمده — أفتدع القافلة أمير المؤمنين وتمضي لشأنها صوب مكة ؟ . . . أم تلحق به لكفاح أعدائه الذين ركبوا السرعة فجاوزوا بها يده الممدودة للصلح والسلام ؟ . . . أم الخير يا ترى في الخروج على سلطانه انحيازا إلى الصاحبين وأم المؤمنين ؟ . . . إن طرفا من أنباء الفتنة التي أشعلها حزب الجمل لاريب قد بلغ الركب على ظهور الرواحل التي كانت تجوب الصحراء ، ونتفا منها قد تجمعت في أخلادهم مرة من هنا ومرة من هناك . ولكنهم لم يستشعروا حقيقة الخطر الذي توشك

الأمة أن تكون هدفه إلا في هذه اللحظة ، حين رأوا العزمة التي بدت في عيون هذا الجيش الصغير . . . سينطلق الرجال إذن ، قدما سينقلون ، إلى مكان سوف يخضبه الدم . وهذا القتال الوشيك يهز كيان الأنفس المخلصة للوطن ويزلزل القلوب . إنه يقدها قداً وإن لم تندلع شرارته بعد ، وإن لم يشهر سلاحه ! . . . فللمشاعر عيون . والأفئدة النقية تستطيع أن ترى الأحداث قبل أن تنجاب عنها الغيوب . . .

وغشت الوجوه وجمة مباغتة ، وخالط لونها الأسمر شحوب الحيرة . . . إن الشفاه لتنضم وتنفرج ثم لايند عنها كلام ، والعيون تتذبذب قلقة في محاجرها ، والصدور تضطرب بأنفاسها المحبوسة . وحينما فاءت النفوس إلى أمنها بعض الفيء ، تردد الهمس مخافتاً بين أصحاب الركب :

« . . . إنا لله وإنا إليه راجعون . »

نعم فهذه كلمة من أعيته الحيلة ، وغلب على باله الاضطراب . . وكم من أناس في العالم الإسلامي إذ ذاك كان شأنهم كشأن رجال هذه القافلة الحيرى بين مسلك فريق عائشة وفريق الإمام ، يتجاذبهم شعورهم آونة إلى أولئك وأخرى إلى هؤلاء ، وقد غم عليهم الحق فما عرفوا أي جانب يحتويه . وما أكثر من ظلوا حيارى مضيعين في ميـدان هذا الصراع الأهلي ، لا يقطعون برأي حاسم ، بل يظلون يهمسون لأنفسهم ما همس به لنفسه طارق بن شهاب وقد أوفت به قافلته على أصحاب أمير المؤمنين بالربذة ، تلك الساعة الباكرة من ذلك الصباح :

« . . . آتي عليـا فأقاتل معه الرجلين وأم المؤمنين ؟ أم أخالفه وإن هذا لشديد ؟ . . . » .

ولـكنها حيرة تفسر لنا الأمور أجلى تفسير . فهي مرد توانى الـكثيرين من عامة الناس عن نصرة الإمام ، وعن الخروج في جيشه الناهض لرد العصاة . وهي كذلك نار صهرت القوم فلم يثبت منهم لشدة حرها إلا الخلصاء الذين آمنوا بحق على أثبت الإيمان . فما لحق به إلا عيوف عن الهوى ، زاهد في العرض ونشب دنياه . وما انضم لركب أخصامه إلا كل سادر في غيه ، حريص على إشباع

نهم نفسه من مفاتن الحياة . وهذه الظاهرة النفسية لم تغفل عنها قط نظرة الإمام . فطالما رد الكثيرين عن السير معه . وكم من قبائل أتته تعرض عليه أن تحارب تحت لوائه فأبى عليها أن تنتصر له ، وآثر أن تكف وتقعد عنه . . كان يعلم أن ثمة — سوى الإيمان بقضيته — دوافع من الكسب والغنم فى القتال هى التى استقدمتهم له ، فكان يرفض عونهم ويقول :

« ... الزموا قراركم أيها الناس . فى المهاجرين كفاية ! . . »

وهذه دون شك ، من وجهها الآخر ، خطة رجل يؤثر السلام ، ويكاد أن تسبق رغبته فيه وحرصه عليه ما نعلمه من تكالب بناة الدول على توفير كل أسباب القوة حولهم ليؤيدوا بها ملكهم ويدعموه . . . ولكنه كان صاحب رأى قبل أن يكون صاحب سلطان — صاحب مبدأ سام يعنى بنشره وإقامة دعامته فى نفوس الناس عناية الهداة من أصحاب الرسالات . فما فرح قط بما فى يديه ، ولا استهواه زخرف السطوة الذى أفاءته الخلافة وتقطعت دون بلوغه أعناق سواه . إنما كان خير أمته هو شاغله والغاية التى يسعى لها ، والإمرة وسيلته . وكل دفاعه عن الإمامة كان دفاعا عن الأمة التى علمها لن تنال فى ظل غيره ما تناله فى ظلال سلطانه القويم ... دخل عليه ابن عباس ، ذات يوم قابل وهو بذى قار ، وكان جالسا يخصف نعله ، فما استقر حتى رفع إليه عينه وقال :

« يا ابن عباس . . ماقيمة هذا النعل ؟ . »

« لا قيمة له يا أمير المؤمنين » .

فتبسم يتم الحديث :

« والله لهى أحب إلى من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا ! »

على أن هذه السماحة وهذا الزهد لم يقعدا به عن التزام جانبا الحزم حين تأزف الأمور . فليس بخوار . ولا رهبة تسكن قلبه من مخلوق . وعندما وجب عليه أن يختار بين الصبر على المهانة ، التى لحقته كحاكم شرعى لما خلع طلحة وأصحابه عنهم الولاء له ، وبين السير لهم حتى البصرة لردهم ولو دعت الحال بقوة السلاح ... حين بدا ألا معدى عن المفاضلة بين العنف والتخاذل ، لم يتوان لحظة واحدة

فى طروق السبيل الذى يوائم رجولته ، ويودى به إلى قضاء الواجب المفروض عليه حيال سلامة الدولة الإسلامية وحفظ وحدتها غير مصدوعة ...

ووقف عقيب أداء فريضة الفجر يهم أن يخطب الجميع مفضيا لهم بما قد رآه . فإذا ابنه الحسن ينهض له ، ويقبل نحوه على تردد واستحياء وإن حنانه وإشفاقه على أبيه ليغلبانه حتى أصابه الحسر وذاب فى دموعه الكلام . وتلبث على به هنيهة ، وقطع من الحديث ما كان يتدافع على لسانه منذ لحظات . فلما رأى الفتى ممعنا فى بكائه صاح :

« جئت تحن حنين الجارية ! ... » .

فأغضى الحسن حتى فاءت إليه نفسه الحزينة ، ثم أجاب :

« أمرتك فعصيتنى ، فأنت اليوم تقتل بضيعة ، لا ناصر لك ... » .

فكان بهذه الإشارة منبئا عما طوى عليه نفسه من رأى قديم ... إن خواطر هذا الابن الرقيق الفؤاد لاتشغل من بال الإمام أكثر مما يشغل هذا الجمع الصغير من رقعة الصحراء ، وليست عنده بذات خطر لأنها وليدة عاطفة جياشة حساسة تجسم توافه الأوهام ... إنها رؤى أبدعتها عاطفته ولم ينجبها عقله ، وما بالقلوب تساس عظائم الأمور .

ومع ذلك فقد آثر على أن يدع الحسن وما يراه ، وأن على له فى الكشف الناس عن خاطره المكنون حتى يتبين لهم أين الخطأ وأين الصواب ، ثم يدع الحجة وحدها تأتى بفصل الخطاب ...

قال يستحث الفتى أن يفصح عما أراد :

« حدث القوم بما أمرتنى به ... »

« أمرتك يوم أحيط عثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل ولست بها ، وأمرتك يوم قتل ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب وتأتيك وفود أهل الأمصار وبيعة كل مصر ... وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ماصنعوا أن تلزم دارك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد على يدى غيرك .. فعصيتنى فى ذلك كله ... »

وهذا حديث معاد مردود ! . . وهل كان على يملك أن يدع عثمان محصوراً ثم يكف يده عن الدفاع عنه وتخذيل المتآمرين كلما استطاع ؟ . ألو فعل لأعفاه اعتزاله من عذل أعدائه الذين لم يعوزهم عذله حتى بعد دفعه عن الشيخ المهيض ؟ أم كان ذاك يرفع عنه التبعة أمام التاريخ ؟ . . لقد طالما خرج لماله بينبع حين كانت تعييه الحيل فى إصلاح عثمان والتوفيق بينه وبين الثوار فكان الخليفة إذا تأزمت عليه الأحداث يبعث إليه فيدعوه . فلما جرى القدر بالقضاء فى القتيل فر على من البيعة ، وراح يطاول الناس ويتأبى عليهم لعلهم يختارون للإمرة سواه . ولكن تأبيه لم يغن شيئاً ، ولم ينزع من قلوبهم افتتانهم به فحملوه حملا من داره إلى المسجد فبايعوه . إنه ليرسم صورة حية من حرص الناس عليه يوم البيعة تكاد تنقلنا إلى الجماهير التى أحاطت به حينذاك ، وتحيى بنا فى الجو الذى تم فيه السلطان له إذ يقول :

« ... بسطتم يدى فكففتها ، ومددتموها فقبضتها ، ثم تداككتم على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقطت الرداء ، ووطئ الضعيف . وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياى أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب ... »

فما بال الحسن يقول ما قال ؟ ... وهل أنسى أن البيعة كانت من حق أهل المدينة وحدهم . وأنهم اختاروا من قبل أبا بكر ، وأقروا عمر ، وأبرموا بيعة عثمان ، فلم تأت بيعة الأمصار لكل هؤلاء إلا بعد أن تربعوا عرش الخلافة ؟ . . أم كان يرى أن يدع أبوه الأمر فوضى فى يد الأقاليم الإسلامية — وليس يخلو واحد منها من طامع فى السيادة — فيتفرق أمر الناس بين طائفة من نهازى الفرص والأدعياء ؟ . . ذلك إذن رأى مردود ! . . وأضعف منه أن يصبر الإمام على عباد المنصب فيدعهم يحتلبون الإمرة التى أولاه الشعب ولا يمد يده لإقرار الأمن والنظام . .

ونهض على فاستقبل الجمع . ونقض آراء ولده بما شاء ، حتى إذا انتهى إليه

ذكر حركة العصيان كان لا بد له أن يختار بين مذلة الجبن والتخاذل وبين العنف والاحتكام إلى السيف فصاح :

« . . . والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها ! . . ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه ، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبدا ، حتى يأتي على يومي . . »

١٠

وصل مدد المدينة ، وأخذت الربذة تموج بالرجال . ولكن الكوفة لم ترسل مددها بعد ... الكوفة التي قدمها على الأمصار وآثر أهلها على غيرهم حتى كتب لهم يقول :

« . . . إني اخترتكم والنزول بين أظهركم . . . وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فالإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا . . . »

أفقعدوا عنه أم أريدوا على القعود ؟ ... لا خبر . لم يأته من محمد بن أبي بكر نبأ عن القوم ، ولا كيف استقبلوا رسالته إليهم ومحمداً سفيره . الظن وحده لا يشفع عنده للقطع برأي وإن كانت بنفسه شكوك من واليه أبي موسى الأشعري الذي تملكه طبيعة التردد . . .

بوسعه الآن أن يبدأ الزحف ، وئيدا وئيدا ، ثم يصله رجال الكوفة وهو ببعض الطريق . إن الزمن يمر مسرعا كالغيمة وقت العاصفة التي تزأر في أجوائها هوج الريح . . . وحزب الجمل لا بد قد بلغ البصرة ، وطرق أبوابها أو اغتصبها عنوة . هو لا يخشى أن يفوز طلحة دونه بالخلافة ، أو يفوز الزبير ، ولكنه يود لو استطاع أن يخمد الفتنة قبل أن يملق شررها ببقية البلاد . الصاحبان ليسا عنده بذوي خطر مرهوب لأنه بقدريهما لدى شعبه عليم ، وبمكنون نفسيهما على بينة . الأيام كفيلة بهما وبما انتوياه ، تكشفه اليوم أو غداً أو بعد عام . حتى

لو أتيح لهما الظفر لما أمهل القدر لهما فى الفرح به ، لأن التناحر على السيادة سيقطع ما بينهما فى نهاية الأمر ، ويردهما عدوين يتخاصمان . . . وما كان على بالذى تشكل عليه خبيئة الأنفس التي يشى بها الفعل وتنم عن مكنونها مقدمات من الهوى والشهوات . . . وهذا حديثه عنهما يصورهما كحقيقة الحال ، بما فيها من الأضواء والظلال . . . وصفهما مرة فقال :

« . . . كل واحد منهما يرجو الأمر له ، ويعطفه عليه دون صاحبه . . . لا يمتان إلى الله بحبل ، ولا يمدان إليه بسبب . . . كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعما قليل يكشف قناعه ، والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا ، وليأتين هذا على هذا ! . . . » .

وقر رأيه على المسير فنادى مناديه فى الناس ، ورتب للأهبة جيشه الصغير . الراية لابنه محمد بن الحنفية ، وعلى المقدمة أبو ليلى ، وعلى الميمنة ابن عباس ، يقابله على ميسرة القوم عمر بن أبي سلمة الذى خرج يدرأ عن الإمام فى المقام الذى طالما تمنت أمه زوج رسول الله أن تقوم فيه ... وعندما أوشكت القوة أن تبارح الربذة نهض ابن رفاعة يستنبئ السياسة التى انتهى إليها عزم أميره ، فقال يسأله :

« أى شىء تريد ، وإلى أين تسير بنا يا أمير المؤمنين . . . » .

فأجابه دون تردد :

« إن أريد إلا الإصلاح ، إن قبلوا منا ، وأجابونا إليه » .

« فإن لم يجيبونا ؟ . . . » .

« ندعهم بعذرهم ، ونصبر . . . » .

« فإن لم يرضوا ؟ » .

« ندعهم ما تركونا . . . » .

« فإن لم يتركونا ؟ » .

« امتنعنا منهم » .

وكذلك وضح أنه ما زال يستمسك بالسلم ويحرص عليه حتى اللحظة الأخيرة وإن خالفه أعداؤه وأقاموا على العناد . وسيصبر عليهم جهده ، ويركن للحق

فلا يبادئهم بعدوان ، بل قد عزم أن يمتنع عنهم ما وسعه الامتناع عسى أن يكون في هذه المقاومة السلبية ما يفل من حدة افتئاتهم عليه فيرتدوا إلى محجة الصواب . . .

وهتف ابن غزية الأنصاري مثنياً على هذه السماحة التي تمز في الدعاة دع عنك رجال الحرب والقتال :

« والله لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، ولأنصرن الله كما سمانا أنصارا ! . . . » .

وانطلق الجيش ، يؤمه علي على ناقة حمراء ، والراجز أمامه يهزج للجنود التي أفعم قلوبها الإيمان :

« سيروا أبابيل وحثوا السيرا إذ عزم السير وقولوا خيرا . . . »

إلى ذي قار كان يرنو طرفه فيها يستطيع أن ينتظر مدد الكوفة وهو منها ومن البصرة قريب ، أو ينتظر من ابن أبي بكر أنباء الأشعري ومدى اهتمامه بالدعوة إلى النهوض بالجند والسلاح . . . مضى برجاله يقطع الصحراء ، في تريث ومهل ، يكاد يستنبئ الأرض نفسها خفي الأخبار . ولم يكن طريقه موحشاً كله . بين كل مرحلة وأختها كان يطلع له الناس ، من أهل القبائل الضاربة في البيد ، يعرضون أن يستلحقهم بجيشه ليكون لهم أجر الكفاح من أجل مثله ، وتحت رايته ... ولكنه استمسك بعزمه الأول فردهم . كان يتحرج أن يشرك معه أحداً من الأعراب خشية أن يكونوا ممن أعان على عثمان فيكون فيهم لأعدائه حجة عليه . . . أتته أسد إذ نزل بفيد يعرضون أنفسهم فأباهم ، وأتته بعدهم بكر بن وائل فلم يفوزوا في كتائبه بمكان . . . وعندما بلغ من طريقه بعض مراحله ، استقبل رجلا من أهل الكوفة فاستنبأه خبر بلدته ، لعل لديه من أمر الأشعري نبأ قال يسأله :

« من الرجل ؟ . . . » .

« عامر بن مطر » .

« فما وراءك ؟ . . . » .

فأجاب بعد أن تحدث بطرف من أخبار المصر :

« إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فما هو بصاحبه . . . » .

فمنذ أعلم الوالى المتخاذل أن الإمام كان يضمر لأعدائه غير ما كان يتحدث الناس أنه يبديه ؟ . . . أم هى وسيلة الأشعرى إلى القعود وتثبيط همة أهل إقليمه عن النهوض استجابة لأمر الأمير ؟ . . . وكيف أحل لنفسه أن يتصرف فى الأمر من دون ولى أمره فيسمع حين يشاء وبالشرط الذى يرضاه ، ويرفض إذا شاء ؟ . . .

ولكن الأخبار ما برحت تأتيه دراكا كلما اتسع خطوه فى الفلاة واقترب من ذى قار . . . فى فيد علم طرفا من سياسة أبى موسى ينم عن الحيازه إلى التخاذل والتثبيط . وفى الثعلبية بلغه نبأ المهانة التى لحقت بعثمان بن حنيف ، عامله على البصرة ، من رجال عائشة الذين دخلوا البلدة فى ثياب الغزاة ... وفى الأساد عرف بما أصاب حكيم بن جبلة ، وبالمقتلة التى أشاعها حزب الجمل فى جماعة كبيرة ألصقت بها تهمة اغتيال ابن عفان . . . الله وحده يجزى الطغاة الباغين ! . . . وهل يملك على فى هذه الآونة إلا أن يسترجع ويردد أسفه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب . . . » ؟ . . .

ولكنه ظل يطوى نفسه على أساه فما يستطيع أن يرد الأقدار . ومضى بجنده عبر الصحراء . فإن هو إلا قليل حتى بدا له راكب يسرع السير ، على وجهه وعثاء رحلة طويلة ، وتكاد أن تستروح النفس الملهمة من أردانه ريحاً تشى بسر يطويه . . ولم تخب فراسة الإمام ولم يضله حدسه ، فالراكب كان حقاً على بينة من كثير وكثير . .

وهتف على به يدعوه :

« أيها الراكب ! »

فأقبل .

« أين أتيت الظعينة ؟ . . »

فغلبت الدهشة على سيماه . من أين لأمير المؤمنين علم ما كان ؟ . . ولكن الرجل أحس أنه حيال امرئ بصير ، كأن الأنباء تصل إليه على متن الريح ! . .

وحدث بما شهد ، لم يضمر شيئا . . كل تلك الرحلة التي كان هو دليلها منذ بارح ركب أم المؤمنين مكة حدثهم عنها . . وكان حديثه قصة ضمنت الأعاجيب ! . .

ثم أردف من بعد يتم الكلام :

« وهذه معي ناقتها ، بعتهم بها جملي الأحمر يا أمير المؤمنين . . »

« فهل لك دلالة بذي قار ؟ . . » .

« لعلي أدل الناس . . » .

ثماني ليال مضين عليه وهو بالطريق منذ غادر المدينة ولم يعد بعد محمد ابن أبي بكر من سفارته لأهل الكوفة . إن آفة الأمر هي هذا الأشعري دون ريب ، الذي أباح نفسه ما لا يجوز من عامل مأمور بالطاعة ، وراح يبث العقبات في سبيل الإمام . ولو أنه استجاب للدعوة فبعث من لدنه يحدون جيش علي الصغير لبلغت كتائبه البصرة قبل أن يستطيع أصحاب عائشة أن ينالوها بشيء ولوسع عليا أن ينفذ خطة الإصلاح التي انتواها ساعة الخروج . . ولكن الوالي الماضي سدر في تردده ، وفي تقاعده ، حتى تجمعت كل أسباب الخلاف وافتتن الناس ولج العصاة في الطغيان بعد أن أغراهم النصر الرخيص الذي نالوه بالبصرة على واليها الذي صبر عليهم وجنح للسلام حتى خدعوه . . آفة الخطة كلها هذا الأشعري المتخاذل ، وإنه عن الأحداث اللاحقة لأول مسئول . . وها هو الإمام وقد نزل بذي قار يأتيه عنه ما يثير غضبه ، وعلا بالحزن والأسف قلبه . إن الشيخ المفتون يعمن في عناده إلى غير حدود . . وهل أدل على خطل رأيه وبروز العداء من موقفه من هذه الرسالة الموجزة التي بعث بها هاشم بن عتبة إلى علي وكان قد أرسله للكوفة ليسبر غور ذلك العامل الخارج على طاعة مولاه ؟ . . « . . قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشنآن ! . . »

١١

هذا حديث العرنى ، صاحب عسكر ، الذى تحدث به حين صادف الإمام قبيل ذى قار :

« . . بينا أنا أسير على جمل ، إذ عرض لي راكب فقال :

« يا صاحب الجمل ، أتبيع جملك ؟ »

« نعم »

« بكم ؟ »

« بألف درهم »

« ويحك ! . . . أمجنون أنت ؟ . . جمل يباع بألف ؟ . . »

« نعم . جملى هـــذا . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته . . »

على أى حال قد أرضوه فى نهاية الأمر ، ومنحوه مالا وناقة فى نظير عسكر الجميل . . وسار أمام رواحلهم يدلهم على الطريق . . كلما نزل بأرض أعلن لهم منزله ، أو مر بماء صاح باسمه مهونا عليهم بقية المراحل . إنه لم يكن رجلا يميل للتنازع الذى غمر القوم ، ولا كان يعنى مثلهم بالنشاط السياسى الذى مارسوه . كل همه أن يقطع الأرض ، ويطوى ذى الصحراء الوسيمة ، ويعد بأنفه المرهف فيعرف الفجاج والدروب كأنه يشم ريح فريسة ! . . فهذه هى حياته ، وذلك عمله منذ عرف الحياة ، وعندما أشرف على تلك البقعة أحس أنه قد وصلها وإن لم ترشده إليها المعالم ، وإن لفها الظلام فى وشاح . كان شعوره هو الذى يهديه ، وكان يسبق نظرات عينيه فيعلن المكان قبل أن يتبين للحظه . . وقبل أن يصل إلى مسامعه رغاء بعير أو ثغاء شاة أو حفيف غصن ينم عن الحياة فى جانب هذا البلقع المديد ، رفع العرنى صوته فأعلن المكان :

« الحوأب ! . . »

ولـكن الـكلمة تاهت فى دوى النباح الذى أطلقته كلاب الدائرة الساهرة ، فلم يصل جرسها إلى ساكنة الهودج صافيا يحمل لها دلالته . . آلحوأب يا ترى قال ؟ . . سمعها ولم يعنها ، ولم يعدها الرجل ثانية . . للحظة قضت عائشة ترهف السمع ، وتـكاد أن تمسك الأنفاس . ودت لو أرسلت أذنها عبر هواء الأمسية لتلتقط الـكلمة قبل أن تبددها الريح ! ولـكن حروفها توارت عنها فى ثنايا النباح . الـكلاب الساهرة تلقفتها قبلها بأفواه منهومة ! وراحت حلوقها تتبارى بهرير وعواء وزئير ! . .

ومدت السيدة أصابعها فى قلق فحسرت بعض الستر الذى كان يغشى الهودج ، وألقت نظرة على ما حولها فإذا ابن طلحة منها قريب . .

« أى ماء هذا يا محمد ؟ . . »

« ماء الحوأب يا أم المؤمنين » .

فـكأنما انقضت على فؤادها صخرة . . . وهتفت وهى تلهث حتى لأوشك صوتها أن يبدو قادما من أعماق سحيقة الأغوار :

« ما أرانى إلا راجعة ! . . . »

« راجعة ؟ . . ولم ؟ تقدمى يرحمك الله ! »

فلم تصغ إليه ، إنها لم تعد هى . مضت المرأة الراسخة القلب الثابتة الجنان وجاءت على أثرها أخرى قد ملـكها هلع مجنون ! . . كفها التى حسرت بعض الستر انطلقت تضرب عضد عسكر ، راجفة مضطربة ، بغير وعى ولا إرادة ، وصوتها الهامس اللاهث استحال صرخة مدوية شقت هدأة الفلاة :

« إنى لهيه ! . . ردونى ردونى ! . . »

فيم هذه الثورة وهذا الصراخ ؟ . . العرنى لا يدرى شيئاً ، ولم يدرك أن كلمة من بضعة أحرف تملن موقع مكان لها مثل هذا الأثر المفزع فى نفس أم المؤمنين . اهل الركب كله كان مثله ، ليس على بينة من الدلالة التى عليها دل ماء الحوأب ، فقد تلقفوا الصرخة واجمين ، وراحت الألســـنة تتجاوب بالهمس والتساؤل . وقع الاضطراب فى الجيش المدل يجبرونه كأنما لقيه عدو عنيد

سؤال ، وتناوبته سيوفه من كل جانب . . وأقبل الناس صوبها فى دهشة غامرة ، فأناخوا مطيهم حيث أناخت بعيرها وما زالت تبكى . . . ودلف بينهم فتى أشم فارع ، صلب العود ، يتوثب فى مسيره كأنه ذئب ، أطلس بلونه ، على وجهه المضيم لمح العزم وإن حدثت به السن ، وفى عينيه ومضات رجولة وإن بدا أمرد ، لا لحية له ولا شعر يحف وجنتيه . فما أسرع ما أوسعوا له حين تبينوا فيه عبد الله ابن الزبير ، ربيب عائشة ، وحفيد الصديق . . .

« يا أمه ؟ . . » .

فصاحت ثانية ولما تبرحها غاشية خوفها الجياح :

« أنا والله صاحبة كلاب الحوأب ! . . ردونى . ردونى ! . . »

وكانت صاحبتها حقا ! . ولو أصغت من قبل لنصح أم سلمة لما رأت نفسها بهذا الموقف العسير ، ولغالبت قدرها وتجنبت هـذا المصير . ولـكنها كلمة حق نطق بها رسول الله ذات يوم وهو يلق بعينيه فى غمرة الغيب فيرى زوجه بهذا المكان ، ناهضة فى فتنة شاء لو ارتدت عنها . . ذلك يوم منقوش بذهن عائشة ، لم يبدد ذكراه الزمن ، ولم يغشها النسيان . منذ أيام قلائل أعادتها لذهنها ثانية ضرتها أم سلمة وهى تحاول أن تثنيها عن عزمها فى المسير على رأس جيش العصاة . ولـكنها لم تسمع منها ، ركبها عنادها أو اعتدادها حتى أغفلت ذلك الحديث . . أما الآن فهو يدوى فى سمعها دوى الطبول . ويعيدها بخيالها إلى ذات المشهد الذى مرت عليه الأعوام . . إنها لترى نفسها جالسة وأمامها إناء تأخذ من مائه فتغسل رأس زوجها العظيم ، وإلى جوارها أم سلمة تخلط تمراً بلبن وتمد منه طعاما . . فأى خاطر إذ ذاك قفز بذهن رسول الله حتى جاوز السنين وأشرفت عينه على الموقف الذى تقفه عائشة اليوم ؟ . . أومضة إلهام ؟ . . أفرجة فى ستر الغيب انجابت أمام بصيرته المشرقة اللماحة ؟ . . لقد حرر رأسه من كفيها ، وألق نظرة عجلى تنقلت بين المرأتين وهو يهتف بهما فى صوته الهادئ الرزين قولا تذكر من معناه أنه كان يضم مثل هذه الـكلمات :

« يا ليت شعرى . أيتكن صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . »

فرفعت أم سلمة يدها من الطعام مذعورة ، وسارعت تجيب :

« أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ! »

« كأنى بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب . . . »

وضرب بكفه على ظهر عائشة وهو يتم الحديث :

« إياك أن تكونيها يا حميراء . »

فكانتها ! . . كانتها ولم ينفعها التحذير . . . لودت لو أصغت لنصح أم سلمة فقد وضح كيف أخلصت لها النصح منذ أيام . أكتب عليها أن تكون حقاً صاحبة ذلك القدر المقدور ؟ . . أما يسعها أن تهرب منه ؟ . . لترجعن ! ولتهربن إذن فرار الريم . . .

أفتستطيع ؟ . . لولا ابن اختها لفعلت ، ولارتدت على عقبيها إلى مكة مخلفة ركب الفتنة عن فيه . . ولكن عبد الله كان يدرك الخطر الذى سينجم من فرار عائشة — الخطر على الدعوة الباغية وعلى حزب أبيه ! . . لقد كانت أم المؤمنين لواء جيشهم ، من أجلها تبعهم الناس ، وبها اقتدت العامة المفتونون بالأسماء البراقة . ولو خلى بينها وبين العودة .فأحر بأكثر جندهم أن ينفضوا عنهم ، فتفشل خطتهم ، وتذهب ريحهم ، وتتقوض أركان مطامعهم التى وضعوا أسسها على مناهضة سلطة الإمام .

فليتخذ الفتى إذن قربانا يضحى به على هيكل غرضه ، وليكن قربانه المرئى المسكين . . . ما كان أهون أن ينسب الغفلة إلى الدليل . ويلصق به خطأ هو منه براء عسى أن يبقى على أم المؤمنين بين الصفوف . . فى لحظات قلائل وسعه أن يدبر ، وأن يحكم تدبيره ، وأن ينزع بذرة الخوف من قلب خالته الجزعة . . فلقد أقسم لها وأتاها بشهود من الأعراب أقسموا أمامها أنها واهمة ، وأن الماء ليس بالحوأب الذى كانت تخشاه ، فكانت أول شهادة زور سجلت فى الإسلام ! . .

ولكن عائشة ظلت حيرى بين الشك واليقين . لم يقنعها تماماً قسم عبد الله ، ولا شهادة أعرابه الذين وضع فى أفواههم حيلته الكذابة . وأوشك التردد الذى ملك السيدة أن يفسد على الفتى تدبيره ، ويردها ثانية ميالة إلى الرجوع حرصاً منها على التزام الصراط ، واستجابة لحديث زوجها وتحذيره . . فإن هى إلا لحظات أخرى حتى فتح جعبته على حيلة جديدة ، نجحت حيث أخفقت سابقتها وكانت أجدى عليه .

رد طرفه عن الأفق المترامى ، ثم أقبل وهو يصيح بصوت مدوى الرنين :

« النجاء النجاء ! . . لقد أدرككم والله على بن أبى طالب . . . »

فركبت الناس فزعة جعلتهم يستبقون إلى مطيهم ، يضربون آباطها للفرار . . وكانت عائشة أول الناجين ! . . حملها عسكر ، ومضى بها فى هودجها على رأس الركب .

أما العرنى فقد خلفوه ولم يكد ينجو من سبابهم المقذع ، لأنه تكلم بما عرف وهو لا يعرف أنهم كانوا يؤثرون له السكوت ! . . ومضى الرجل حائراً ، وحيداً فى البيد ، حتى لقيه الإمام ، فروى له حديثه العجيب .

وسار الركب . وجلست أم المؤمنين فى ملاذها تستعيد الأحداث ! . . لنوشك أن نراها فريسة للظنون ، يراودها الشك فيما أكده لها عبد الله . يا ترى أصدقها القول ؟ . . محمد بن طلحة ليس عندها بمتهم ، وقد قرر أنه ذلك الماء . والدليل نفسه كذلك . وقلبها أيضا ! . . . قلبها ما زال يأكله الريب . كلما اهتز بها الهودج نفث ذهنها من ذكرياته شيئا يزيد فى بناء قلقها لبنة . إنها تكاد توقن الآن أن عدوها هى غيرتها ، فلولاها لأبصرت طريقها لا يغشيه ضباب الأغراض ، ولتبينت الحقيقة ، ولرأت الحق فى جانب الإمام ثم لم تتحيف عليه إن لم تعنه وتدعو له . ولكنها نظرة المرأة . . طبيعتها الغلابة هى التى أوقفتها هذا الموقف العسير . وكم من قبل أوفت بها على مثله لم تصغ لصوت العقل . . حتى وزوجها بهذه الحياة كانت عاطفتها تركب بها الشطط ، أم إفراطها فى حب ذلك الزوج هو الذى

جنبها الحكمة ؟ . . . بل هو هذا الحب الذى جرفها تياره فلم تملك معه لقلبها قياداً ولا لعقلها عقالا يمسكه أن ينحرف إلى المغالاة . . إنها لتذكر يوماً حدث هذا فيه ، ولم يحد من غلوائها ولا اندفاعها عنها فى العاطفة أن كان رسول الله منها قريباً يشهد ما تورطت فيه . أم سلمة أيضا شهدته ، وذكرتها بخبره قبيل سير مواكب الفتنة ، فلم يغن عنها التذكير . . أما الآن وقد خلت بنفسها لخيالها يهيم فى الماضى حتى يلم بالحادث الذى أورثها حياء يضرج لونها لهذه الساعة . . كان رسول الله قد هبط إذ ذاك من قديد ذات الشمال ، ومعه بعض نسائه ، فيهن عائشة وفيهن أم سلمة ، فخلا بعلى ناحية يناجيه . وأسرف — فيما بدا لابنة أبى بكر — فى الحديث والمناجاة . ولعبت بقلبها الغيرة فكبحتها ... ، ثم جدت ، ثم زأرت ، ثم عصفت حتى غلبتها على نهاها وحكمتها . . وتوسمت أم سلمة فى صاحبتها أمرا تهم أن تبرمه فردتها عنه . ولكن عائشة لم تصبر ، ولم تسمع للصاحبة الناصحة الأريبة . بل انطلقت غضبى إلى الرجلين لتنفث ما اعتمل بصدرها من غل الغيرة . .

هجمت على على وصاحت به وهى لا تدرى أى خطل تأتيه :

« . . . ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ، أفما تدعنى يا ابن أبى طالب ويومى ! . . . »

فلم يفه بكلمة . بل أغضى عنها فى هدوء وحلم . . .

ولكن محمداً لم يصبر ، حلمه الوسيع ضاق هذه اللحظة عن غيرة زوجه ، فإذا وجهه يندفع إليه الدم ، وإذا بصره يشتعل بالغضب ، فينهرها بحدة غير مألوفة منه :

« ارجعى وراءك ! . . . »

فوقفت باهتة حيرى . . الآن فقط عرفت أنها ركبت الشطط . .

وأتم رسول الله حديثه وهو ما زال غضبان :

« . . . والله لا يبغضه أحد من أهل بيتى ، ولا من غيرهم إلا وهو خارج عن الإيمان ! . . . »

فساقط الندم فى قلبها كمثل الدمع الذى ابتدرت عيناها به ، وجرت قدميها ، وعادت على خزى .

أفكانت هى تبغض عليا كما تعنى كلمة البغض ؟ . . . كلا ، قطعا ! . . وإن هى إلا نزوة نفسية ، أيا ما كانت وكان باعثها ، فقد كانت توقفها منه دائما موقف المنافر . وحتى حين جاءها بمكة نبأ إمرأته وأبت عليه أن يؤول إليه سلطان الإسلام. لم تكن تبغضه . هى لا تستطيع سبيلا إلى بغضه وتحرص أبداً أن تنأى بنفسها عن هذه الخطيئة . فما نسيت أنه كان أدنى قومه إلى قلب محمد ، وآثرهم وأحبهم إليه . وهو لليوم أنقاهم معدنا وأطهرهم طبيعة . . . إنها تعلم هذا ولا يخالجها فيه شك ولكنها مغلوبة على علمها بذلك الشعور المنافر . وهل غاب عنها كيف أوشك زوجها ذات يوم أن يوصى له بالأمر بعده وصاة سافرة لا تحتمل التأويل لولا خشيته أن يتفرق عنه الناس لهذا السبب أو لذاك ؟ . . لم تنس . لا يسعها إلا أن تذكر . كرة أخرى يرن فى سمعها حديث أم سلمة كأن السيدة معها الآن بالهودج تحدثها به . فالحادث وقع فى سفر أيضاً . كسفرها هذا ، وإن طوح به الزمن فى غور الغابر . . . وشهدته معها أم سلمة كالآخر . كانتا ذلك اليوم ورسول الله فى خلوة عندما طرق أبو بكر وعمر الباب ، فقامت السيدتان إلى الحجاب . . .

وأقبل الشيخان وقد أذن لهما فسلما على محمد ، حتى إذا استقر بهما المجلس راحا يحدثانه فيما جاءا فيه . . . قالا له :

« يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر ما تصحبنا . . . فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا . . . » .

فرمى ببصره إلى بعيد ، كأنما ينظر إلى ناحية ليس تصل إليها عينا سواه ، ثم قال بهدوء :

« أما إنى قد أرى مكانه ! . . » .

وعندما توقعا أن يدلهما عنه ، باغتهما بهزة من رأسه وقال فيما يشبه صوت الآسف الحزين :

« . . . لو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون ابن عمران ! . . » .

فغضا الطرف . وخرجا بعد قليل من لدنه لا يلويان . . .

أى الناس يا ترى كان رسول الله يعنيه ؟ . . السيدتان خلف الحجاب يأ كلهما الفضول . لو انساقتا مع الترجيح لوصلتا معا بذهنيهما إلى رجل واحد .. فرد من الصحابة المجتبين يكاد أن يوفى إليه هذا الحديث . إن ثمة دلالة أخرى تشير إليه . . حلقة ها هنا تربط بين حديثه هذا وبين آخر سلف به لسان محمد ذات يوم إلى التصريح ووجه خطابه فيه إذ ذاك إلى ابن عمه فقال :

« . . . أنت منى بمنزلة هارون من موسى . . . » .

ذات الكلمات ، وذات التشبيه ! . . . أعليا كان يعنى وقد قال فيه من قبل نفس ما أعاد ؟ . . لا تعلمان . لا تحبان أن تركنا فى مثل هذه الأمور إلى اتباع الظن الذى قد يخطىء كما يصيب . وإن نهم المرأة إلى الثرثرة ثم إلى إشباع الفضول الغلاب ليدفعهما معا إلى الاستقصاء . ما عليهما من حرج لو فعلتا الآن . وها هى عائشة تهيج بها قبل صاحبتها الرغبة إلى المعرفة واستكناه المجهول ، فتبارح الستر ، وتندفع متسائلة إلى زوجها الكريم :

« يا رسول الله . . . من كنت مستخلفا عليهم ؟ . . . » ..

« خاصف النعل ! . » .

ولم يزد . وتركها لنفسها تحدس كما تشاء . . .

ولكن الظن لم يطل بها مداه . فى لحظات قصار أصبح يقينا لا يغشيه من الشك نقاب . عرفت هذا فى وجه محمد ، ومن لسانه أيضاً بعد قليل ، وقد خرجوا جميعاً يبارحون المكان . . . فعلى مقربة ، وفى ظل سمرة رأت بعينها خاصف النعل المنشود يرتق نعلا لزوجها بين يديه . وعندما ألقت على وجهه نظرة مستطلعة عرفته أى الرجال كان . . . لقد صدق الحدس ، وثبتت الدلالة ، ووضح لديها أن الحلقة بين الحديثين قائمة بلا انفصام .

وهتفت وصوتها هذه المرة به من العجب أكثر مما فيه من الفضول :

« . . . ما أرى إلا عليا يا رسول الله ! » .

« هو ذاك ! . . . » .

ثم ها هى الآن ! . . . فى هذا الهودج على ظهر عسكر ، وبين هذا الحشد المحشود من الجند الشاكى السلاح ، وعلى هذا الطريق المؤدى إلى أسوار البصرة قد خرجت لغاية لا تعلم أى مصير سوف تجره على أمنها ، وعلى الرجل الذى اجتمعت عليه كلمة الشعب قبل كل الرجال . . . وأى خروج ؟ وأى رجل ؟ . . إنه نظير هارون الذى تفرقت عنه بنو إسرائيل !

فرسان حكيم

١

ألقت نظرة من خلل الستر إلى الوراء ، فإذا الصحراء مديدة ، فارغة ، تغرق فى فضائها الرحيب العين . لا أثر ثمة لجيش على ، لا إلى اليمين ولا إلى اليسار . ولا ما ينبئ عن اقترابه . كانت إذن صرخة ابن الزبير حيلة لحملها على المسير . . .

ثم ردت الطرف فطالعت وجهة الركب . بدت الخفير لها على قيد عين . أما البصرة فإن هى إلا مسيرة يوم وبعضه ثم تشارفها . . . وأهلها أمنة لا يدرون على أى حال سوف يصبحهم أو يمسيهم هذا الجيش الزاحف من البلدة الحرام . . . لو ترك الأمر للسيدة لتنادت تطلب من رجالها أن يلووا أعنة المطايا عائدين . ولكن أتستطيع ؟ . . أيسمعون ؟ . . إن كل نقلة خف تدنى جملها من الهدف تحس هى كأنها على فؤادها المثقل . ليست تدرى كيف تبدل شعورها هكذا من النقيض للنقيض . وليست تدرك لم الإقدام ، والإحجام كان أولى وأمثل . الدلالات على خطئها قائمة لها أعلام ، والطريق إلى الحق معلم مرسوم ، يتجه إلى وراء لا إلى أمام ، ومع ذلك فهى تنطلق قدما على كره كأنما شدوها إلى الركب الزاحف ؟ . . . كلما عاودتها الذكرى ورن فى سمعها هاتف الرجوع دوت أصوات سواه فأغرقته فى ضوضائها الرفيعة وراحت تزين لها دعوة الإصلاح . كلاب الحوأب ذاتها عفى على نباحها الدوى الرفيع ! . . وخاصف النعل ذابت صورته فى ضباب الأبنية التى تراقصت أمامها الآن كالأشباح ! . . . فى غمرة قلقها تشبثت بظنها فى أن تكون ذات بركة على الناس . تؤلف بينهم ، وتردهم كرة أخرى إخوانا على صفاء . أما كيف سيكون هذا التوفيق ، وأنى لأداة حربها هذه أن تكون أداة سلام ، فهذا ما لم تكن تدريه ! حسبها أن تضمر نية نقية ثم تفيد من مر الأحداث !

على أن ثمة أمراً آخر كان يدفعها إلى المسير . ليس هو بالحقد على أمير المؤمنين ، ولا بالرغبة فى استنزاف ملكة من يديه . بل تلك الهامة التى تبدو فى الخيال قائمة بناحية من حش كوكب ، على قبر تائه فى اللحود احتوى جثمان الخليفة القتيل . . . لتكاد المشاعر أن تعود إلى خرافة الجاهلية فتسمع روح عثمان على طرف قبره تصيح : « اسقونى » وهى ظمأى إلى الدماء ؟ . الكلف بالثأر كان هو الذى يقود خطا أم المؤمنين . إنها تنهض للقصاص . . . موتورة تسعى إلى رى الهامة الظمآنة ! . . فذلك وحده عذرها فى المسير .

كانت تعلم أن القتلة قد خلفتهم خلفها بمكان غير هذا المكان . وفى الحاضرة خلفتهم ، يملكونها بقوائم المزودة بالحديد والسلاح . وكأن أولى بها أن تضم قواها المجيشة هذه إلى صاحب الأمر الشرعى فتكون عوناً له على الخصوم . ولكنها مضت وانتهى الأمر ، قطعت الشوط كله فليس ثمة مجال إلى النكوس . على أى حال ها هنا جانب من أهل الفتنة يجدر أن ترتوى الظبا منهم فمجيئها إذن لا ينقصه التبرير ! . . . ولو وسعها لثأرت ثم رجعت خفيفة الضمير ، لا يعلق بها ندم على ما سلف منها فى حق الشيخ الذى ألبت عليه إنكار الناس فى كل الأقاليم وكان قذفها فيه أول سلاح ماض أشهر عليه . . . ستأخذ له اليوم بقدر ما أخذت منه ثم تستريح ! . . .

ذلك كان ظنها أو ما عقدت النية عليه . ولكن النوايا مرايا لا تطابق دائماً بين الأصل والخيال . لطالما خالف الفعل النية وقضت الأحداث بغير ما تضمر الطوية عائشة الآن توشك أن تضاها المرآة فلا تعكس من فعالها ما لعلها حسبته نتيجة محتومة لنيتها الخالصة . ستبدى لها بعد قليل صورة قبيحة شوهاء حتى لتنكرها أشد الإنكار ثم تندم أشد الندم ما عاشت فى هذه الحياة . ولكن أنى لها أن تقتحم الغيب وتتبين سره حتى تجتنبه قبل أن تجرى به المقادير ؟ . . .

لا حيلة لها فيما لا حيلة فيه ! . . . أما اليوم فصرخة الهامة ملأت عليها الآفاق ، وأبنية البصرة قربت ما بينها وبين القصاص . . . أتقتحم البلدة ؟ . . . أتسير إلى ثأرها على طريق تمهده الأشلاء ؟ . . كيف لها برضاء ابن حنيف

عما جاءت فيه لتجتنب مقتلة قد يصلاها كثير من الأبرياء ممن لا يد لهم في مصرع عثمان ؟ . . .

هذا عمير التيمي قد أقبل عليها بالجواب المطلوب . فما أسرع أن رأت نفسها قد بارحتها الحيرة حين سمعته يقول :

« يا أم المؤمنين . . . أنشدك بالله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحدا فيكفيكهم . . » .

فهتفت مبسوطة الأسارير :

« إنك لامرؤ صالح ! . . . جئتني بالرأي . . . »

« فعجلي ابن عامر فليدخل ، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمي فيسمعوا ما جئتم فيه . . . » .

فعلت . لولا ما هي فيه من ضيق ما ألقت بدعوتها بين يدي هـذا الذي تعلم أنه طريد أهل البصرة منـــذ وقت قصير . ولـكنه على أي حال أداة . بل الأداة الوحيدة التي تملكها اليوم ولا بد لها من الضرب بها عسى أن تجيء ببعض المأمول ، فلن يعدم الرجل أن يكون له بين جدران البلدة أنصار وإن كانوا من بطانة التفت به أيام إمرته لتصيد الآراب . . . ظهوره لا ريب سيحيي الأمل في نفوس أعوانه القدامى ويدفعهم إلى العمل بجانبه ومن أجل حزبه لعل عهد مجدهم يعود ! . . .

وقد نجحت هذه الفـكرة بعض النجاح ، بل كان لها أثر في تحويل جانب من الرأي العام بالبصرة لناحية عائشة ، وجانب آخر أشاعت في نفوس أصحابه التردد فما يعلمون بأي فريق من الفريقين يلحقون ، وبقيت طائفة على ولائها للإمام لا تحيد . ولم يخف هذا عن الوالي وإن ظلت بنفسه بقية من شك لا يملك معها القطع برأي في مدى تبلبل الأفـكار ، فلما أراد أن يسبر غور النفوس ، دس بالمسجد رجلا قام يتحدث في الملأ الحاشد ويقول :

« . . . أيها الناس . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من المكان الذي يأمن فيه الطير . . وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . . . أطيعونى فيهم فردوهم . . . » .

فما بلغ من كلامه هذا الموضع حتى صاح به آخر معارضا فى استنكار :

أو زعموا أنا قتلة عثمان ! . . إنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلته ، منا ومن غيرنا . وإن كان القوم أخرجوا من ديارهم ، فمن ينعهم ؟ . . الرجال أم البلدان ؟ . » .

عندئذ أيقن ابن حنيف أن للزاحفين ناصراً بدار إمرته . . . نوعا من جيش سرى يتأهب دونهم فى الخفاء . . .

بعثت عائشة إذن بابن عامر إلى البصرة ليتألف صنائعه ويتخذ منهم دعاة يضمنون لحزبها بعض التأييد . وبعثت أيضا بكتب منها إلى وجوه البصرة تناشدهم أن يلتفوا حولها وينصروها . . . بذرت بذرها ثم قرت فى انتظار ساعة الحصاد ! . . .

أما الوالى فقد اضطرب عليه حزمه ، والتوت مسالك البت فى الأمور . الظواهر كلها تفزعه ، وتشير إلى فتنة هوجاء تسندها الأسنة ويسعى إليها القوم ، وإلى عصيان سافر بغير نقاب ينتقص أولا من هيبة مولاه ثم لا يلبث أن تصير له عقبى واحدة جد معلومة هى هدم السلطان القائم على الشعب وبالشعب ولكنه مع ذلك كان يشفق من إطلاق يده فى التصرف حسبما توحى إليه هذه الظواهر . فما يعلم لو ضرب ضربته ودفع بقواه المسلحة لرد العصاة إن كان سوف يرضى الإمام . وما يعلم أيضا لو صبر عليهم وكف عنهم سلاحه أنهم لا يثبون عليه ولا يعاجلونه بالعدوان قبل أن يصله من على أمره الذى يحتذيه . وبين هذين الرأيين تأرجح فكره وحارت نظرته . ولكنه لم يستطع أن يسكن إلى التردد ، بل رأى لزاما عليه أن يستطلع غاية أصحاب عائشة من هذا المسير الذى يوشك أن يحدث فى الإسلام حدثا خطير المغبة . فلما انتهى به هداه إلى هذا الحد سارع فأرسل رسولين من لدنه تخير أن يمثلا الوعى الأهلى أقرب تمثيل : عمران بن حصين ، رجل عامة ، له عاطفتها ، وفيه خفة الفكر التى تستهويها الأعراض قبل الجواهر ، وأبا الأسود الدؤلى ، رجل خاصة ، له عمق

التفكير وعناية بالغوص إلى العوامل الخفية حتى ليحسن استخلاص الرأى من بين غمرة العواطف ، ولا يفوته أن يحكم التدبر قبل اعتناق فكرة من الأفكار وقبل تمحيصها أشد التمحيص . . .

وبلغ الرجلان الحفير فقصدا إلى عائشة ، فلما أذنت لهما تحدثا إليها فى هدوء:

« . . . يا أم المؤمنين ، إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ . . . » .

فأجابتهما :

« والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . . . » .

ثم راحت تسرد عليهما رأيها الجديد فى نقاوة صحيفة عثمان وما كان من قاتليه من استحلال دمه بغير عذر عليه ! . . . نعم رأيها الجديد الذى لم يجل بخلدها إلا بعد ولاية الإمام ! . . . فلما أطنبت فى حديثها بما شاءت انثنت تدعو بدعوة الثأر فى لباس من رقيق الألفاظ :

« . . . إنما خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا . . . لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . . . . . . » .

« فهل معك عهد من رسول الله فى هذا المسير ؟ . . »

فردت وهى تكتم ما هم أن يشتعل بنفسها من الحنق :

« غضبنا لكم من السوط والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل ؟ . . . » .

إن ريحا من الأمانة يهب لا ريب من كلام السيدة حتى ليقرها السامع على ما جاء فيه ، فالقصاص كان غايتها وما لها من غاية سواه ، ولكن أعلى هذا يا ترى كان صاحباها ؟ . . .

ويمم الرسولان شطر العسكر ليعلما رأى الرئيسين المسيطرين على مصائر هذا الجيش وناديا ، فلما أن برز لهما طلحة سألاه :

« ما أقدمك علينا ؟ . . . » .

« الطلب بدم عثمان » .

فانبرى له أبو الأسود يقول :

« يا أبا محمد ، قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا غير مؤامرين لنا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان إذ قتل ولم نغضب لعلى إذ بويع ... ثم بدا لكم فأردتم خلع على ، ونحن على الأمر الأول . فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ! ... »

وقال عمران :

« يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ، ولم نغضب له إذ لم تغضبوا ! . . ثم بايعتم عليا وبايعنا من بايعتم ... فإن كان قتل عثمان صوابا فمسيركم لماذا ؟ . . وإن كان خطأ فحظكم منه الأوفر ! ... »

هنا استطاع طلحة أن يقول :

« يا هذان ! . . إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ! ... » .

فنهضا عنه . وضحت لهما طويته حتى قال أبو الأسود لصاحبه وهما فى الطريق :

« أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك يا عمران ! ... » .

وأتيا الزبير .. فإذا هو أكثر صراحة ، وإذا نفسه الشفافة لا تخفى عنهما شيئاً مما يطويه ، وإذا قلبه يسبق لسانه بالحديث وهو يقول :

« . . . إن طلحة وإياى كروح فى جسدين . وقد كانت منا فى عثمان فلتات احتجنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ... » .

وكانت لهما حجة أخرى إلى جوار ما أخبرا به الرسولين ، قوامها أنهما بايعا الإمام وعنقاهما تحت شفرة السيف ! . . الله وحده يعلم إن كان هذا قد حدث ، ومتى ، وهل ليد على فيه تدبير ! . . ولكنها حجة على أى حال ساقاها تخلصا من عار النكث الذى وقعا فيه ، ما أهون شأنها ، وما أوهى بناءها كأنها نسيج عنكبوت ! . . فلقد غاب عن البيعة كثير ، وأباها كثير فلم يسر إليهم على قط ، ولم يفرضها على أحدهم كرها ، بل خلى بينهم وما اختاروه . . وهل موقف ابن عمر وموقف ابن أبى وقاص وموقف أسامة بن زيد غفلت عنها الأذهان ؟ . .

ولكنها كما أسلفنا حجة على أى حال ، وتبرير لنقض البيعة هو اعتذار عن الذنب بالذنب الممعن فى الخطيئة وفى البطلان . . عذر يخفى وراءه تبييت القوم لم يخف عن ذهن الدؤلى . فحين مضى إلى أميره لم يزد فى رواية خبرهم ورأيه على أن قال :

« يا بن حنيف قد أتيت فانفرْ وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئماً وشمر ! . . »

تلك كانت نصيحته وما هداه إليه إدراكه حقائق الأمور المستورة . دواء الداء عنده قبل استفحاله هو الكى ، ولا إمهال قبل هذا ولا تردد . وبنفس هذا الرأى طالع عائشة أثناء عودته من مجادلة صاحبيها ، لم يخف عنها ولم يداور. سألته إذ ذاك مستطلعة :

« بلغنى أن ابن حنيف يريد قتالى . . . »

فسارع يجابهها بما يراه ، وبما ظن أن الوالى لا ريب سيأخذ به :

« نعم والله ! . . قتالا أهونه تندر منه الرءوس ! . . . »

ولكن ابن حنيف كان لا يزال فى غمرة من الحيرة ، فما سمع دعوة صاحبه له إلى امتشاق الحسام حتى هز رأسه كالأسيف المضيع وهتف :

« إنا لله وإنا إليه راجعون : دارت رحى الإسلام ورب الكعبة . . »

وقال عمران :

« . . . والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لايساوى ما بقى منكم كثير شىء »

« فأشر على . . »

هنا جاء الرجل بالرأى الذى تميله العاطفة المندفعة ولا تميله الحكمة والسياسة التى تحسب قبل كل شىء حساب العواقب والغبات ... قال كاشفا عن فكره :

« إنى قاعد فاقعد ! »

« أقعد ؟ . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين . . »

« بل يحكم الله ما يريد ! . . »

وخرج فلحق بداره وقد أشفق أن يشهر السيف فى وجوه إخوان له فى الإسلام، ولو تبصر لعلمها حربا واجبة..حربا مقدسة تمسك على الإسلام وحدته وترد عوادى

الشقاق عنه . ومن يدرى إن كان قد عولج الأمر بالحزم قبل استفحاله أكان لا يجنب البلاد ويلات الحروب والخلافات اللاحقة الناجمة عن فتنة عائشة وطلحة والزبير . ولكن هكذا كانت نظرته وليس على المواطف رقيب حساب ! ...

وجمع عثمان بن حنيف صحبه من ذوى الرأى يشاورهم فى الأمر . وقام يخطبهم مبينا لهم ما يراه :

« يأيها الناس ... إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . . والله لو علم على أن أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، فلقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ! . وطلبا ثواب الله من العباد ... » .

كان مؤمناً بعدوانهما على حق مولاه وبحسدهما إياه ، يعلم أن نكثهما البيعة له ما وراءه من الأهواء والمطامع الذاتية وإن ألبسوه ثوباً من التمويه . ولكنه مع ذلك لم يرد أن يركب العنف ، ولعله فى هذا كان مشفقا من الشقاق الذى لاح أنه يوشك أن يعم أهل إقليمه ويقسمهم فريقين بين الحزبين . . . فلقد شهد كيف كان موقف عمران يعارض موقف الدؤلى ، وإنهما لمثلان لبقية الناس ... بل قد كاد يركن قليلا إلى التزام واجبه فى إطفاء الفتنة بقوة السلاح ، حتى قال له هشام بن عامر :

« يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره . . . إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتى أمر على ، ولا تحادهم » .

وتفكر ملياً ودفعت الحمية حكيم بن جبلة نهتف به :

« إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناهما ... ووالله ما أبالى أن أقاتلهما وحدى ! أيها الأمير ، هذه دعوة قتيلها شهيد وحيها فائز ، فهلم ! وهذه ربيعة معك ! . . . » .

ولكنه آثر الأولى وجنح للسلام . . .

٢

تحركت قوات عائشة ، وزايلت مواقفها بالحفير . لعل صبر ابن حنيف قد أطمعهم فيه . أولعلهم رأوا أن المربد خيرمكاناً من موقفهم الأول فسعوا إليه . وربما لم يكونوا قد أزمعوا بعد أخذ أخصامهم بحد السيوف وإنما ساروا ليخبروا عزم القوم . . إن فى بالهم أن طائفة من البصريين جمة العديد سوف تنصرهم وإن كان الوالى قد أخذ الحيطة وتواقف جنده مدججين . . .

وتوافد عليهم أهل البلدة ، فيهم المبغض الزارى وفيهم الولى الحميم . ولم ينم عنهم عثمان بن حنيف ، بل خرج فى رجاله حتى غص المكان بأولئك وهؤلاء . أفكان أصحاب الجمل قد جاءتهم الأخبار من عيونهم بأن صنائع ابن عامر فعلوا فعلتهم وأغروا النفوس حتى خلعت أو كادت تخلع طاعة الإمام ؟ . أوشك هذا أن يكون ما عمر أخلادهم وبات إلى حسبانهم أقرب من جند عتاة يعلكون عليهم المسالك ويدفعونهم دفعا عن استهواء الناس وتجييشهم فى صف الفتنة . . وكان حدسهم صوابا أو قريبا من الصواب إذ بدت الطريق أمامهم مكشوفة لا يعترضها حماة . وحتى حين التقوا فى نواحيها ببعض قوات الوالى لم تلقهم مقاومة ، بل أوسعت لهم دون قتال . .

على الملاينة عقد ابن حنيف العزم ، فالسلم رام . كان رأيه بعد أن شاور صحبه أن يكف عن هذه الجيوش النازحة إليه من الجنوب ما كفت عنه ، حتى يأتيه من أمير المؤمنين أمر . كبح عنها سلاحه ، ورد جماح الكثيرين من رجاله الذين كانوا يرون الخير فى المبادرة إلى قط الهام ! . . وبالمربد اجتمع الفريقان ، كل إلى ناحية منه : جيوش عائشة فى الميمنة ، وبالميسرة الوالى وأهل الإقليم . لاموقف سلام كان أدنى للحرب من مقامهم ذاك ، ولا أسنة كأسنتهم أقرب إلى صدور مشرعيها . . لو طارت شررة واحدة فى الجو حينئذ لكانت كفيله بأن ترتد حريقا يؤجج سعر النار ، فالنفوس فى أعماقها ثورة كالبركان قبل أن يدفع حممه ، والحواس متحفزة ، والأعصاب توترت كمثل القوس عند إعدادها للتصويب .

وكان طلحة هو الذى أثار الشررة الأولى . حينما مد بصره بين الجموع المزدخرة لم ير بقعة ميدانا خيراً من هـــذا يخرج منه ملىء الـكفين بالأسلاب ! . . غايته وطائفته من هذه الرحلة كسب الأنصار والأولياء ، وما أقربهم الآن إليه . فقريباً كان للبصرة هوى فيه ، قريبا قبل ما دون العام ، من شهور ، خلال الأحداث التى جرت بمصرع عثمان . فيها له حزب قوى لاريب يسارع إلى نصرته إذا أشار . وفيها أيضاً صنائع ابن عامر ومن عسى أن يكونوا قد اجتذبوا لناحيتهم من أناس استهوتهم الدعوة أو غرتهم الأمانى المبذولة بغير حساب . أما بقية الأهلين ففرقتان واحدة لن ينزع نازع من قلوبها الولاء للإمام ، وثانية حرية بأن تميل مع الهوى ومع الإغراء كل مميل ، وما الأولى عليه بذات خطر بعد أن علم أن ابن حنيف يحد من غلوائها ويكبح حميتها ليبقى على السلام .

فى هذه الحشود الزاخرة وقف طلحة بجانب المربد الأعن يزجى الـكلام رقيقا معسولا يدغدغ به عواطف الناس . فـكأنه نسى ما سلف من عيبه على عثمان وشدته فى التأليب عليه ولم يذكر سوى أنه كان بارا ، فاضـلا ، مظلوما جوزى من مناجزيه أسوأ الجزاء . . أيطل دمه يا ترى ويضيع ؟ . بل القصاص أولى وأقوم وأدعى إلى احترام أوامر الله واجتناب نواهيه :

« . . . أما الطلب بدم الخليفة المظلوم فحد من حدود الله ، فيه إعزاز دين الله وسلطانه وإنـكم أيها الناس إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليـكم ، وإن تركتم لم يكن لـكم سلطان ولم يقم نظام . . . » .

وتـكلم بعده الزبير بمثل كلامه والجموع حولهما تتهاتف وتصيح بين المعارضة والتأييد . ليوشك الأمر أن يصل حد الاقتتال ، فإذا قامت عائشة تتحدث بين الناس فأحر بها أن تـكسب لحزبها أولياء ، وأن تضع عن نفسها هذه المعرة التى لحقتها إذ تركت ما كان أولى بها أن تلتزمه من الحجاب والتستر خلف الجدران . فما زال الناس يلحونها لهذا الخروج ، وما فتئوا ينـكرون منها إذ هى قدوة لنسوة المؤمنين . . .

وقامت ، وخاطبت الجموع بصوت جهير :

« أيها الناس . . . »

فغطى هتافها على الشغب المشبوب ، وألقوا إليها الأسماع .

كرة أخرى جردت عثمان من كل ما سبق أن أعلقته بثوبه حتى أعادت الثوب نقيا ناصع البياض ! . . إن عذرها فى تغيرها هذا معلوم وإن أخذت خصومه أن سموا لها حتى قتلوه ! . . أما الآن فالرجل مظلوم ، ودمه المطلول لا بد أن يرده القصاص .

وقالت للقوم :

« . . . كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا . . فننظر فى ذلك فنجده بريا تقيا وفيا ، ونجدهم فجرة كذبة غدرة ! . . »

فلو قالت هذا قبل بضعة أشهر فلعلها كانت تؤخر نهاية الصريع الشيخ ! . ولكن عائشة اليوم غيرها بالأمس . فقد اجتثت من فؤادها دوحة الغضب واستنبتت على أثرها دوحة رحمة وإشفاق وتشيع لعثمان ! . . من حقها دون ريب أن تحزن للقتيل ، وأن تدعو للثأر ممن بغوا عليه لأن القتل جريمة نكراء لها قصاص مفروض ، وليس يجدر أن يخلى بين قاتل وبين الحياة يستمرئ فيها العبث بالرقاب . وإذا كان تطرفها فى الغضب بالأمس قد أنساها الحكمة حتى أهابت بالمسلمين أن يأخذوا على يد ابن عفان بالعنف ولو قتلوه ، فذلك لم يكن فى حسباننا إقرارا منها لشرعية الجريمة ولادعوة إليها جادة . . كان تأليبها على الخليفة بصورته القاسية تلك خطأ منها بغير شك ، استشعرت له الندم فيما بعد فقامت بحركتها لتكفر عنه . ولكنها الآن تهم أن تعالج نتائجه بخطأ أخشن منه ينصف المظلوم بظلم برئ سواه ! . . ألا تراها كيف راحت تدعو الناس ، إلى جوار حماهم على الثأر للقتيل ، بدعوة جائرة تحيف على حق الإمام أبلغ التحيف وتوشك أن تؤجج عليه نيران الفتنة فى كل الأقطار ؟ . . كانت تقول:

« . . . ألا إن ما ينبغى ولا ينبغى لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة كتاب الله . . . من الرأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به . . . ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله ابن الخطاب ! . . . » .

فيالها من دعوة ! ويالة من منطق ساقته السيدة عجيب ! . . .

وتصايح الناس . وساد الشغب والهرج جوانب الفريقين حتى لقد تقاذفوا بأقذع التهم ثم تحاثوا فيما بينهم بالحصباء . وأوشكت الفتنة أن تشيع فى الصفوف والأكف تشتد على مقابض السيوف ثم تهم أن تهزها للنضال . ولكن عائشة على أى حال قد بلغت بعض شأوها أو شأو حزبها فى الصحيح ؛ ربحت الجولة الأولى من معركة البصرة ، ووسعها أن تعدو على الصقر الهاشمى وهو بعيد فتنال من طرف جناحه بعض ريشات ! . فما انجاب خطابها إلا عن خلاف بين رجال البلدة التى كانت تدين حتى ساعة بطاعة الإمام . وتفرق النفر الأكبر من أصحاب الوالى عنه بعد أن فتنتهم السيدة عما كانوا عليه ، ثم انطوى تحت لوائها منهم فريق عظيم . . .

كادت الأسلحة أن تتحدث بين رجال ابن حنيف : الباقين فى أمره ومن انشقوا عليه وخالفوه . ولولا بقية حكمة تذرع بها الناس لشاعت فيهم المقتلة بأسنتهم . أما عائشة فقد انحدرت برجالها ومن تبعها من مفتونى البصريين إلى المربد فى موضع الدباغين ، وإنها لتشهد كيف أثار وجودها هذا الشقاق بين الإخوة الآمنين ، ولسوف تشهد له آثارا دامية عما قريب .

وخرج جارية بن قدامة وقد بلغه نبأ هذا النزاع فلحق بالقوم . فحين وسعه أن يصل إلى مقام السيدة تقدم إليها وقد ران الحزن على قسمات وجهه وغلفها أسفه ، ثم قال لها فى إنكار :

« يا أم المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان كان أهون علينا من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك . . . أما والله إنه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ! . »

فكأنما فك حديثه عقالا كان يمسك ألسنة الناس ! . . . سرت فيهم الجرأة بعد التهيب ، وغدوا أدنى إلى معارضة أشياع السيدة وجدالهم مما كانوا من قبل . . فاذا رجل ينفلت من بينهم يهتف باسم طلحة ، حتى إذا جاءه صاح به على ملأ من القوم وهو يهز كتابا فى يده أمام عين الزعيم :

« ياطلحة بن عبيد الله . . . أتعرف هذا الكتاب ؟ . . »

فتريث برهة ، والقوم حوله يرهفون الأسماع ، ثم أجاب :

« نعم » .

« فما ردك على ما كنت عليه ؟ . . . »

فلما لم يأته جواب نزع إلى الإيضاح فى غير إبهام وهو يستأنف الحديث :

« . . . كنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى الطلب بدمه ! . . زعمتما أن عليا دعاكما إلى أن تكون البيعة لكما قبله . . . فأبيتما إلا أن تقدماه وبايعتماه . . . فكيف تنكثان ؟ . . . »

« إنه دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلمنا حين عرض علينا أنه غير فاعل . . . ولو فعل لأبى ذلك المهاجرون والأنصار . وخفنا أن نرد بيعته فنقتل فبايعناه كارهين ! . . . »

« فما بدا لكما فى عثمان ؟ . . . »

« ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إياه فلم نجد من ذلك مخرجا إلا الطلب بدمه ! . . »

فخروجهما إذن ندم على ما سلف وتكفيرا ! . . .

« فما تأمرانى به ؟ . . »

« بايعنا على قتال على ونقض بيعته »

« أرأيتما أن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه ، ما نصنع ؟ . . »

« لا تبايعه ! » ،

فارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة وأجاب :

« ما أنصفتما ! . . أتأمرانى أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهى فى أعناقكما ، وتنهيانى عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ . . . »

ثم استطرد وفى صوته نبرة تهكم واستنكار :

« أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئتما ، بايعناكما . . بيسار أيدينا ! . . »

وتوالت بعد هذا مشاهد شتى تؤذى أعين الرجلين وأسماعهما ثم يكون

لها فى فؤاديهما مثل وخز النصال . . . أقبل عليهما فتى من بنى سعد كان سمع حديث ابن قدامة لأم المؤمنين منذ قليل ، فبادرهما بهذا السؤال :

« أرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » .

« لا » .

فهز كتفيه دون اكتراث ، ثم لوى عنهما وجهه وهو يقول :

« ما أنا إذن منكما فى شىء ! . . »

ومضى يتهاتف بشعر يصور سخريته ويزرى بهما أشد الإزراء . . .

إن تلك الفترة من الزمن التى قضياها بالمربد ، والتى حسباها فى البدء أطلعت عليهما أول خيوط شمس النصر ، قد حملت لهما من شكوك الناس ومن لجيهم وتهكمهم أنواعا لم تجر لهم فى حسبان . ولكن ثمة نوع آخر كان أقسى عليهما من سوابقه ، إذ جاءهما على لسان ولى لا ينكر إخلاصة لكليهما أو لأبيه منهما فى القليل . . . فلقد صك سمع طلحة إذا ذاك حديث لولده محمد جثم على صدره وأصاب من براءته ومن كبريائه حتى لأوشك أن يوقع الخلاف بينه وبين فتاه . . . كان ذلك حين أقبل شاب من جهينة ، على محمد بن طلحة ، فقال له :

« . . . أخبرنى يا محمد عن قتلة عثمان . . . »

فتفكر ملياً ، ثم أجابه بالرأى الذى يرتأيه وإن عينه لتقع على البعير الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه :

« دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة الهودج ، وثلث على صاحب الجمل الأحمر الذى كان يمتطيه أبوه ، وثلث على على بن أبى طالب . . . »

فتضاحك الفتى الجهنى وقال :

« ألا أرانى على ضلال ؟ . . »

وانقلب يروم عسكر الإمام ليلحق به وإنه ليهتف وهو يبارح ابن طلحة :

« . . . صدقت على الأولين ، وأخطأت فى الثالث ! . . . » .

وإذ بلغ نبأ هذا الحديث طلحة سارع إلى ابنه يلحاه .

« أتزعم عنا قولك إنى قاتل عثمان وكذلك تشهد على أبيك ؟ . . . »

فلما لم يأته منه إلا الصمت . صاح مغضباً به :

« كن كعبد الله بن الزبير ، فو الله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه . وكف عن قولك أوفارجع ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فسادعامة ! . »

فلم يكتم الشاب حينئذ رأيه ، وقال دون مبالاة :

« ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود ! . . »

٣

ساد البصرة الاضطراب الذى يجىء عادة فى أعقاب الانقسام . لا يتلاقى رجلان من أهلها إلا كان ثالثهما جدالا أو ملاحاة وخصومة أو صراعا قد يوفى على إراقة الدماء . ولا بيت فيها انضم بعد ذلك اليوم على هدوء أو ذاق طعم السلام . ولا قبيلة بقيت لها عروتها وثيقة فأجمعت كلها الرأى على نصرة فريق من المتناجزين دون سواه ... أولئك الذين فتنتهم عائشة بدعوتها رأوا حقاً عليهم الطلب بدم عثمان المظلوم وإن جرت دونه أنهار من الدماء وأنهار . وأولئك الذين حالفوا الإمام ثبتوا حيث أوجب الوفاء عليهم الثبات . ولكنهم فى حقيقة الأمر لم يصدروا فى ثباتهم هذا عن الرغبة وحدها فى استمساكهم بالولاء للأمير الذى بايعوه ، بل عن حافز أقوى وأشد هو عندهم جماع هذه الحياة . . . إنه التقيد بالمبدأ الذى اختطوه لأنفسهم وناخوا عنه ، والتزام محجة المثل الأعلا الذى كالحوا طويلا حتى أوشكت أن تبزغ فى سمائهم شموسه . أما اليوم فثمة غيم فى الأفق كثيف يكاد أن يحجب الضياء . النذر تتجمع حولهم فى كل مكان مشيرة إلى طلوع عهد جديد ، بغيض ، تثور فيه العواصف وتجمح الأعاصير . . . أم هوياترى عود إلى الماضى المظلم ؟ . . أينما وجهوا العين فى صفوف هذا الجيش الذى جاء ليغلبهم على ما كسبوه طالعتهم الوجوه البغيضة . . . بدت أشباح ذلك الماضى الذى انفرط ، وما كاد ، على سحن كثيرين ممن احتوتهم الصفوف . فها هو ابن عامر ، عاملهم القديم الذى قشروه عن البلدة ، يعود ! . . . وهذا ابن عقبة الفاسق

الخليع هو الآخر يعود ! . . . وها هنا أيضاً يرون مروان ابن طريد الرسول . . مروان الطاغيه الذى أشعل النار فى الديار وأودى حمقه بحياة عثمان ! . . . ثمة هؤلاء كلهم ومن أشباههم كثر كلما تطلعت إليهم الأبصار أصابت الحلوق غصة ورجفت القلوب مشفقة على مصائر الأمة التى نكبت بهم فى العهد الخالى ونكب الشعب حتى ساموه الخسف وسلبوه كرامة الحياة . . . أفما وجدت عائشة خيراً من أولئكم ظهيرا يسندون دعوتها ويسيرون حولها فى الركاب ؟ .

ليس الأمر أمر أشخاص ، يؤخر فيه هذا ثم يقدم ذاك . . . ليس قصة خليفة يعزل وآخر على أنقاض عرشه يقوم . بل هو أخطر من هذا وأجل . فما يفيد الناس أن يذهب على ويأتيهم من هو خير منه ، إن استطاعوا إليه السبيل ، أو مثله ، فى القليل ، يقوم على أحوالهم فيحسن القيام . وهل لهم فى الإمام هوى غير هواهم بمثله وأهدافه الكفيلة بأن تهبهم الحرية والعدل والمساواة ؟ . ولكن النفر القادمين من الجنوب زاحفين على صليل السيوف وقعقعة السلاح هم عنوان الكتاب الذى تهم السيدة أن تضمه أمام أهل الإسلام وتقول هاؤم اقرأوه ! . ويا شره من عنوان وأتعس به من كتاب . . .

هذا لا ريب عود إلى ظلام الماضى ، بما فيه من إجحاف بحق الشعوب الإسلامية فى الحياة الأبية التى لا يسيطر عليها طغيان طائفة من الخاصة والأشراف . ليست دعوة الثأر لعثمان إلا غطاء يستر جشع السادة الذين غلبهم الشعب على مآربهم وتحرر من ربقتهم ونأى برقابه أن تطأها أقدامهم الثقيلة . . . إنها غشاء لنهم إلى السلطان والتملك والتحكم كيفما يوحى لأفرادها الاستعلاء . ولو قد أتيح ثانية لهذه الطغمة أن تعود سيرتها الأولى لعرفت كيف تسوس من أبوا أن يقروا لها بذلة العبيد .

ما من رجل بين الذين أوجسوا من حركة عائشة إلا كان يراود خاطره من هذا التفكير نصيب . كلهم لا ينكرون عليها دعوة القصاص ، ولكنهم يعلمونه قصاصاً ظاهره عدل وباطنه هدم . . هو هدم للأسس التى جاهد الشعب

جهاده حتى أقامها بعد مشقة وجلاد وطول كفاح . وهو هدم للمبادئ التي أريد بها لم الأمة بطبقاتها جميعا في وحدة تسودها العدالة الاجتماعية وتنمحي منها فوارق الجنس وفوارق الطبقات . وهو هدم للرجل الفرد الذي يستطيع أن يحقق وحده هذه المثل الكريمة لكل من جمع بينهم الإسلام ثم ينافح عنها ما أفسحت له في رحابها الحياة . . . وإذا كان الأسى قد أخذ بقلوب فريق من أهل البصرة إذ ذاك إذ يشهدون كيف فرقت دعوة أم المؤمنين بينهم وبين إخوتهم . فإن أشد الأسى وآلمه لذعاً أنها باعدت بينهم جميعاً وبين تحقيق المبادئ التي صبوا إليها لأن دونها اليوم ميادين وسيعة من الخلاف والمناجزات . . .

نعم فقد هبت الريح ، وأوشكت النذر المتجمعة أن تشير إلى جو عاصف ونوء قاصف تودي بسفينة الإصلاح . فعنوان الكتاب معروف ! . . . والمستقبل الذي تتحدث عنه صفحاته صورة من الأمس الراحل الذي حسبوه قد ذهب وانطوى ولن يعود . . . ثم ها هم الآن ، فكيف الخلاص ؟ . . .

من استطاع من أهل البصرة صبراً قهر نفسه على الصبر المر ، وقليل استطاع ؛ ومن دان لأميره ابن حنيف بالطاعة سكن كمثله مؤثراً الإبقاء على السلام أن يتمزق إهابه وتتقطع أسبابه ؛ هؤلاء انحرفوا عن جيش عائشة ، ومن لاذوا به ، ووقفوا على فم السكة ناحية المسجد عن يمين الدباغين يعنون الناس ويأخذون عليهم الطريق . ولكن ثمة طائفة أثارتهم خيانة ذلك الفريق من مواطنيهم الذي تنكر لمبدئه وانحاز لعسكر الغزاة ، فلم يملكهم الصبر ، وآدهم الصمت والقعود . . أولئك نفذت أبصارهم إلى ما خلف المظاهر البادية ، وما وراء السلم الذي يلبسهم ثوب تخاذل ثم قد تكون له مغبة تضيع فيها المبادىء التي ناضلوا عليها من قبل ، ويأتيهم غدهم بشر مما كانوا فيه بالأمس في عهد عثمان الذي كان مروان وأضرابه يتربعون عرشه . . لم يستطيعوا صبراً على ما يشهدون ، وهذه ثمار جهادهم توشك أن يبتزها حزب عائشة ، وتلك الطغمة من مواطنيهم الخائنين ، وتلك الشرذمة من الولاة المنبوذين . فحين تسامعوا بالأنباء كان يعتمل في صدورهم مثل إحساس الأسد يتأهب لحماية عرينه ، ويدفع عنه العاديات بالظفر والناب . وكانت الأنفة

فى دمائهم تضطرم كنار . فليس لعلى غضبتهم بقدر ما هى لكيانهم القومى وكرامتهم كشعب له منزلته الواجبة فى نفوس حكامهم وإن كانوا عربا خلصا من ذلك العنصر الذى حسب لنفسه السيادة على بقية الأجناس . فما عادت العنصرية شيئاً يؤمنون به ، بل الإسلام . فلقد علمهم كيف يكون الناس كلهم سواسية ، إخواناً على سواء ، فلا سادة بعد ولا دهماء . . .

بهذا دارت الأمور فى الخواطر ذلك اليوم عند المربد وأصحاب الحمية يرون تلك الطغمة من الخونة ومن الولاة القدامى أهل الطغيان . . . ومنه استشعروا قوة غامرة تدفعهم دفعاً إلى النضال ، حماية لحريتهم وقوميتهم أن تطأها أقدام الأشراف . . . وإنك لتكاد أن تشهد كيف يتوثب بهم حماسهم فلا يستقرون ، ولتسمع أصواتهم اللاغطة تبدأ همسا خافتا ثم تسرى قليلا قليلا ، وتشتد قليلا قليلا ، حتى تعلو فتشبه الصياح . فإذا انزاح عن صدورهم وقر الصبر الذى اصطنعوه ، تبدلت بهم الحال غير الحال ، فلم يصغوا لنصح ناصح ، ولا لردع رادع وإن كان عاملهم وصاحب الأمر فيهم بعد الإمام . بل يتهافتون مغضبين ، وتلعب بهم ثائرة الثورة ، وترتجف فى أكفهم رماحهم ثم يكرون كالسيل الدافق على عسكر عائشة ليس يردهم ولا يرهبهم أنهم قلة أمام كثرة حسنة العتاد . . .

ويصيح حكيم بن جبلة ، الرجل الذى ود لو قاتل وحده جموع الجمل الغزاة ، فيهتف بمن تبعوه من الفرسان :

« إنها قريش ! إنها قريش ! . . ليردينها جبنها والطيش ! . . »

فما أسرع ما يستجيبون لندائه فتنحدر بهم خيلهم حتى تركب زمر الملتحقين بعائشة وجندها حتى لتذهلهم المفاجأة فيقفوا كأنهم حيارى مضيعين . ويشد عليهم حكيم ، وتنزاح قدامهم رويداً رويداً عن الأرض التى كانوا قد اتخذوها لمنزلهم . فلعل فريقاً منهم حسب لو لقى المهاجمين بالأناة وكف عنهم انثنوا عنه . ولكنها كانت دفعة ليس يمسكها صبر ، فإذا الأسنة بعد قليل تعتنق وتتشابك فيختلط فى الغمرة الفريقان . ثم يعلك الحماس طائفة أخرى ممن شهد هذا القتال من أهل البصرة ، أولئك الذين كانت دورهم تشرف على ميدانه ،

فيحصبون بالحجارة وهم بأعالى بيوتهم من كان على قيد مرماها من هذا الفريق أو من ذاك . هنالك سالت الدماء على فم السكة عند المربد حتى أوشك لونها أن يغلب الناس على حكمتهم وكادت الفتنة أن تم فيأ كلهم القتال . ولقد كان أقرب إلى الحدوث أن يتقهقر الفرسان بعد قليل أمام عدوهم حين يرتد إليه جنانه الذى طاشت به المفاجأة فى البدء ، ولكن ما حدث كان النقيض . فإذا برجال عائشة الكثر يجنحون للانسحاب وما تزال الخيل تشد عليهم وتضغط أيما ضغط ، ولولا أن وقعت عليهم ظلمة الليل ما تحاجزوا ولا انثنى عنهم فرسان حكيم .

أمرت عائشة إذن رجالها بالتقهقر إبقاء على هيبتهم أمام الناس أن تنال منها مثل هذه القلة ، أو رغبة فى الظهور كمن يحرص على السلام . فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن يلقفون أنفاسهم مليا ويستريحون . وكان الليل قد غشاهم هنالك بستر وجدوا فيه الأمن والطمأنينة . وبدت لهم من بعيد أشباح خصومهم تنحسر رويدا رويدا عن الساحة التى خلفوها ، وتثوب راجعة إلى البلدة تنفض عنها وعثاء القتال . وإذ حسبوا أنهم الآن قد باتوا بمعتصم يعسر على عدوهم أن يفاجئهم فيه ، فقد أوشكوا أن يجعلوه مثابا . غير أن رجلا من تميم عليما بمواقع الأرض فى أرجاء البصرة ، جاءهم فدعاهم إلى مكان سواه أمثل وأحصن ، فتابعوا رأيه . ومضوا خلفه فى وادى الموت ، خلال القبور ، تحت ستر المساء حتى انتهوا إلى دار الرزق فضربوا فى ساحها معسكرهم ، ثم أقبلوا فى همة وجلد يعدون العدة ويتأهبون لمعركة الغد . لقد عزموا أمرهم على الأخذ بالثأر حين يسفر النهار .

فأى مشاعر كانت تتناوب الوالى تلك الليلة وقد ثاب إلى دار الإمارة ؟ . إنه ليرى بعينيه كيف اشتبكت عليه الأمور وغدت هوادته شراً لن يسلم معه هو أو امرؤ ممن بايعه على السلام . فعددهم جميعاً قليل ، وعدوهم فى منعة بمن أجلب معه ومن حالفوه من رجال الإقليم . لقد حمق حقاً حكيم إذ ركب حزب الجمل بفرسانه وإن أوشك أن تظهره عليهم شجاعته وكادت تدنيه من النصر . ولكنها كانت دفعة ، وكانت غمرة حقيق بجندهم الضخم أن يثوب من غشيتها فيعود

أقوى على معاودة الصراع بعد قليل . وها هم لا ريب قد ملكوا أعصابهم ، وراحوا يتأهبون . أفيهجمون ؟ . أيسيرون إليه فى جحافلهم عند إشراقة الصبح ليقهروه ؟ . ومن له بقتالهم لو عقدوا العزم حقاً على القتال ؟ ...

ثمة أمل واحد كان ما زال يداعب قلب ابن حنيف : أن يثبتوا عند عهدهم له فيصبروا عليه حتى يأتيه رد من الإمام . فقد كان ذلك عهدهم قبل أن يفجأهم حكيم ... لقيهم الوالى غب قدومهم فسألهم :

« ما نقمتم على صاحبكم ؟ ... » .

فقال له الصاحبان :

« لم نره أولى بها منا . وقد صنع ما صنع ... » .

فلم يحاجهما فى شىء ، وإنما أجاب وهو يبغى أن يسود بينه وبينهما الأمن والصفاء :

« ... فإن الرجل أمرنى . فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى بالناس حتى يأتينا كتابه ... » .

فأظهرا الرضا ووافقاه ، وكتب بهذا إلى أمير المؤمنين ...

ولكنه الآن لا يأمن أن يظلا على ذلك العهد بعد ما كان من ثورة حكيم . بل هو لم يأمنه كذلك من قبل وفى حزبهما كل أولئك الرجال أصحاب الخدع المفتونين بالغدر وتدبير المؤامرات أم يصبر يا ترى مروان . ويجنح للسلم أشياعه من صنائع العهد البائد ولن يأتى من على إلا ما يفضح تبييتهم ويكشفهم أمام الناس عرايا لا يستر غاياتهم تمويه ؟ ... قلبه يقول لا ، وماضيهم أيضا ، وسيرى كيف يغدرون ...

وغدا الرجل فسار والشمس ، كلما قطع من الطريق شوطا تكاثرت عليه الأنباء عن تأهب القوم للقتال . ولكنه رأى لزاما عليه أن يلقاهم عسى أن يؤيدوا له عهدهم بالسكون . وسار فوجدهم بساحة دار الرزق على رجل، مدججين شاكين . وما نحسبه قد مشى إليهم يبغى قتالا وهو أعلم بما صار إليه من فقر فى السلاح والنصير بعد أن فتنوا عنه كل أولئك الجوع من أهل الإقليم . لقد كان كل أربه

أن يقفوا مواقفهم ، بسلام ، حتى يأتيه جواب أمير المؤمنين وما نحسب أيضاً أن ثمة طائفة من أهل البصرة كانوا يطمعون أن يفوزا على خصومهم بحد السيوف . ولكن ابن جبلة كان لا يقر هذه السياسة ومن تابعه من عبد القيس ، وإنهم لقلة . غير أنه كان أنفذ من صاحبه بصراً وأجلى بصيرة ولو أطاعه ابن حنيف منذ البدء فالتقى جموع عائشة بالعنف لما وسعها أن تقص هكذا جناحيه ، وتجعل لها اليد العليا فى مصائر الأمور . . .

وفى لمحة عين تبدل الجو ، وذاعت فى ثناياه رائحة الحرب . . . فما بدا حكيم ورجاله أمام أصحاب الجمل حتى طارت الشررة التى أججت النار . . . لم يصبر هو أن يدع أعوان الباطل وأمنهم ، ولم يصبروا أن يدعوه ولا ينالوا منه ثأر ليلة الأمس . وكان شديد الإيمان بما يقوم فيه وإن أورده هلكه . وكان مشبوب الحدة فوار الغضبة فما يطيق أن يعترض سبيله شيء . وإنه ليمضى إلى القوم وهو يزمجر كالليث ، ويندفع سخطه من فيه كسم الرقطاء ينوش عائشة التى يراها أصل كل هذا البلاء ... وعندما يلحاه رجل من الناس على نيله من السيدة بلسانه الهدار بالزراية يسرع فيلقمه الرمح جواباً على هذا اللوم ! . . نعم قد فعل ، ثم عاود أيضاً فطعن امرأة قدحت فيه كما قدح ذاك وصاحت به فى إنكار :

« يا ابن الخبيثة ! . . ألأم المؤمنين تقول هذا ؟ . . . »

على أى حال ، مالاح حكيم ورجاله لأشياع الجمل حتى شب القتال . الله يدرى أيهم أنشبه ، وإن كان لصحب عائشة دم عند عبد القيس قد يناديهم للثأر ، وكانت لابن جبلة دفعة قد لا يطيق معها الصبر على قناته أن تظل نظيفة لا يلوثها دم ! . .

وقعت الواقعة . وحمى فيها الصراع والشمس تخطو أولى الخطا نحو الضحوة وتأور لهبه وهى تجنح للغرب . قضوا النهار كله يتقاتلون ، ولا يصغون لغير صليل السلاح . لم يصخ منهم واحد لصوت العقل كأنما همهم أن يحيلوا مواقع الأقدام تحتهم بركة قانية ! . . وحين بلغ من جزع عائشة أن دفعت مناديا يدعوهم للكف غرق صوته فى هدير المعركة . وبقوا على حالهم مفتونين عن التبصر حتى كثر القتلى فيهم وشاعت الجراحة . . .

ثم تداعوا إلى الصلح حين لم يعد منه محيص بعد أن نالت الوغى منهم أيما منال ثابت نفوسهم أخيراً إلى قرار ، فأوقفوا عجلة الموت . . . شدوا على رحاها الدائرة وقد كادت أن تردهم إلى مهل وتراب ! . . وتواقفوا على أشلاء صرعاهم متحاجزين ، منكسى القنا والرماح . . .

كذلك جاءت هدنتهم غب محنة ولأواء ، فكتبوا عهداً بينهم وأبرموه أن يقيم كل فريق منهما حيث أدركه الصلح على مافى يده لا يضار فى مسجد ولا سوق ولا طريق ، على أن يبعثوا أمينا إلى المدينة يأتيهم بحقيقة مبايعة الزبير وطلحة أمير المؤمنين ، فإن كانت عن رضا دخلا فيما دخل فيه الناس أو غادرا البصرة ، وإن كانت كرها فلهما الأمر فى البلدة وخرج منها عثمان بن حنيف .

وعلى هذه الهدنة جفت الصحف ورفعت الأقلام ! . . .

٤

أقرت السيوف فى أغمادها بعد الهدنة ؟ . . أبقيت صفحة الماء هادئة لا يحركها شىء ؟ . . لم يتح ذلك ، وجاء الأمر على نقيض ما كان الناس يرجون كأنما إذ أنسوا للسلم من وراء ذلك العهد المكتوب إنما كانوا فى حلم سوف تبدده يقظة مباغتة يذوب بها فى أضواء النهار .

وكان أولى القوم بعلم زيف عهدهم أولئك الذين جاءوا فى ذيل عسكر يقطعون الفلاة لأمرهم وحدهم مبيتوه . فهذا الحزب من قريش رسم خطاه قبل أن يسير ورتب مواطىء أقدامه بحيث تقوده فى نهاية الشوط إلى الهدف المأمول . ما كان لهم من غاية إلا نقض بيعة الإمام واحتلاب سلطانة تحت ستر موهوه بدم الخليفة القتيل . استباحوا فى البدء ذلك الدم ثم قاموا من بعد ينوحون عليه كالثواكل . وذوو الغايات ، فى سبيل مآربهم ، لا يأنفون من ركوب كل محظور

أرسلوا إذن أمينهم عقب الهدنة إلى المدينة ليأتى لهم من لدن أهلها بحقيقة مبايعة الصاحبين أمير المؤمنين . . . فكأن هذين قد غابت عنهما الحقيقة

أو ألبست بشبهة ! .. ولو قد آثرا تجنب الانحياز إلى هواها لطالما الناس بالصدق الذى لا يغشاه زيف ولا تمويه ، ولصارحاهم بما يعلمان أو بما يكتمان . . . إن فى جعبتهما كتاباً يجيد رسم هذه الحقيقة ، ولكنهما ليسا من الإخلاص لعهدهما فى درجة تدفعهما لنشر ذلك الكتاب ! . . من خطل الرأى — فيما يظنان — أن ينشراه ، ومن الإدراك السياسى ـ الذى لا يتكلم بغير لغة التوصل إلى الغايات بأى سبيل — بحيث يقدمان الكتمان ويطويان على سطوره الوفاض . . . وإذا أتيح لامرىء أن يقرأ ما فيه لرآه جاءهما من أمير المؤمنين ، يلزمهما به الحجة ويلزمهما البيعة التى أراداها بالنكث إذ كانت كادعائهما من غير رضا واقتناع .. كتب لهما على يدحض زعمهما ويقيم الأمور حيث يجب أن تقام :

« . . . قد علمتما — وإن كتمتما ! — أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى . . وإنكما ممن أرادنى وبايعنى ... فإن كنتما بايعتمانى طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب . وإن كنتما بايعتمانى كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية !.. ولعمرى ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . . . » .

ثم عرج على قصة مصرع سلفه ، فأنصف غاية الإنصاف إذ أراد أن يجعل الحكم بينه وبينهما فيها كل رجل من المدينة آثر أن ينأى بجانبه عن التشيع له والانحياز لصفهما ، لعلهما بهذا التحكيم يأمنان أن يتحيف عليهما الناس بالاتهام . قال بذيل ذلك الخطاب ولم يغفل أن يسديهما النصح خالصا لوجه الله :

« ... وقد زعمتما أنى قتلت عثمان . فبينى وبينكما من تخلف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتمل ... فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار ! ... » .

ولكنهما آثرا أن يطويا الكتاب عن الأنظار كما طويا من قبل حقيقة ما كان من بيعتهما التى كانت عن رضا واختيار . . . أفأمنا يا ترى الناس أن يعلموا ما أخفياه ؟ .

بل الحق معلم له نور يهتك دائماً حجب الظلمات . وإذا كانت البصرة ، موئلهما الآن ، بعيدة عن يد الإمام . فما هي بعيدة عن الأخبار تسرى إليها مع الركبان من كل إقليم ، ومن جارتها الكوفة قبل غيرها من البلدان . فإلى هذه كتب على يروى نبأ صاحبيه ، وموقفهما وموقفه من عثمان بن عفان ، لم يستر شيئاً إلا رواه فى هوادة وترفق وإن وسعه أن يعنف ولا يجاوز بالعنف حد الإنصاف :

« إنى مخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه . إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلا من المهاجرين . أكثر استعتابه ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف . وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . . . » .

بمثل هذا تناقلت الألسنة حقيقة القضية التى أخفوا خلفها المطامع والآراب . وبأعنف منه وأقرب إلى الصراحة التى ترسم مكان الصاحبين فى مأساة المصرع فلا تغفل أدق الخطوط ، كان الإمام يتحدث فتطير أحاديثه إلى كل مكان . . . وصلهما طرف من كلامه هذا بغير شك ، ووصل أيضا حليفتهما فجعلهم جميعاً أدنى إلى مجالس الاتهام ! . . ولقد ألقاه ذات مرة حديثاً مدويا زلزل تحتهم أركان الأرض ، وجاوز فيه الهوادة إلى الصراحة المريرة ، فهل ارعووا وسالموه ؟ .

كلا ، بل لجوا فى الغى ! . . ومضوا فى طريقهم — وهم الفئة الباغية كما طبعهم بلفظه — يطلبون حقاً هم تركوه ، ودما هم سفكوه ! . . فلعلهم — إذ فتنوا أهل البصرة — قد حسبوا أن قد ملكوا فى أيمانهم الشمس ، لو شاءوا أطلعوها أو شاءوا طمسوها ! . . فكذلك كان شأنهم من البيعة ، قالوا قلدناه إياها كرها وعلى الناس أن يؤمنوا بما يقولون ، على الأمة جمعاء أن تخلعها من أعناقها لأنهم أرادوا النكث وحنث اليمين ! . أما المدينة فإنها نظرة إلى خلاص أو تلبث إلى خلاص أو تلبث إلى حين . وهل كانت إلا عهداً كبيعتهم تلك يجوز عليها نقس ما جاز على سابقتها منذ قليل ؟ .

إنك لن تحسب أن الحال قرت بالبصرة تلو ذلك العهد المكتوب ، وساد فى جنبات البلدة الهدوء . . . عبثا تضع الحطب بين ألسنة النار ثم تكف عنه الاشتعال ! . . عبثا تسكت زمزمة الريح ! . . عبثا تقف محاجزا فى مسيل الطوفان ! . .

لم يهدأ الخلاف بالبلدة وإن خفت حدته بين الحزبين . ففى النفوس نزع ليس للعقول عليه سلطان . وقد بقى من فريق الولاء ابن جبلة وفرسانه ، وأهله وشيعته من عبد القيس ، لا يزالون يضطربون غيظا وموجدة أن يروادوله الحق هكذا تدول تحت أبصارهم وتهدم الولى والنصير . وبقى الفريق الثانى على ما كان عليه من خطته المرسومة ، يرتب ويبيت وينتظر ساعة التنفيذ . كل طائفة كانت تتوجس شراً من غريمتها ، وتتوقع منها الغدر فى كل حركة . فإذا اقترب بعض الموالين عفواً من منازل الغزاة كانوا فى حسبان هؤلاء قادمين فى شر ، أو مرت بضعة من أصحاب الجمل دانية من رجال عامل الاقليم استقبلوها بالتحفز إذ يحسبونها تحمل الغدر . ولقد حدث يوما أن أقبل محمد بن طلحة فقام مقاما قريباً من عثمان ابن حنيف ، فأسرع نحوه الحرس فنحوه خشية أن يكون قد أقبل ينتزع حياة واليهم غيلة . ولو شهد هذا الحديث فريق مسلح من أعوان محمد لما انجاب إلا عن معركة خطيرة . . . .

على هذا التوتر كانت الحال بين الحزبين ، لم تهدأ ثائرتها الهدوء الذى كان تحتمه الهدنة . بل بقى الناس يتوشهم قلق خفى كأنما تشيع فى الجو أنفاس الفتنة ، ويمتلىء الهواء حولهم برائحة الدم . وما كانوا فى شعورهم هذا إلا صادقين لأن الزمن كان يثب بهم وثباً إلى محنة مجتاحة . فإن هى إلا ليلة ذات ظلام ورياح حتى زأر قصف الأحداث .

كانت العاصفة تدوى زمزمتها بين دروب البلدة حتى بدت معها البصرة كغاب ملأته ليوث هائجة وأسود غضاب . والليل فى بكوره ذاعت فيه وحشة السحر المتأخر . وكانت أعين السماء وسنانة ، رانت عليها كسف من الغيم حتى طمست النجوم . وأسبل الظلام أستاره على الطرقات ، كثيفة لا تنم عن شىء ،

فلا أضواء ولا ظلال . ولولا حركة الريح وهى تذرع المكان فى خطوات نشوان لا يعرف إلى أين يتجه به السير ، لكان أشبه بمقبرة ثقيلة الصمت ، ساعة هجوع الأحياء ، لا تسودها إلا هدأة الموت . . .

وكان المسجد بادى الفراغ ، يوشك أن يخلو من الناس إلا نفراً تفرقوا فى جنباته ، لفوا أردانهم حولهم اتقاء قرة الليلة ، والتصقت لحاهم بركبهم وهم منكمشون فى جلسة القرفصاء . . . ولكن ثمة أيضا أشياء غير الجسوم المرتجفة أحتوتها الثياب — ثمة سيوفا ونصالا مخبوءة ، أعدت للحظة الطعان .

إنك لو كنت معهم يومذاك ، لشهدت من مجلسك فى عيون هذا الفريق من المنكمشين لمعة تحفز ، ولأوشكت أن تقرأ لغتها فلا يفوتك أن تراها حروفا إذا التأمت لكونت لفظة الغدر ! . . كيف استباحوا هذا ؟ . . وفى وقت هدنة ؟ . . وفى بيت الله ؟ . . ولكنها شريعة السياسة تستهين حين تشاء بكل الشرائع ، ولا يقعدها عن تحقيق آرابها وازع أو دافع . . .

اجتمعت تلك الطائفة من رجال الجمل بمسجد البصرة ، تلك الأمسية المظلمة من أماسى الشتاء ، لا يعلم عنهم غيرهم إلا أنهم جاءوا يصلون . وكان موعدالعشاء لم يحن ، فأهل البلدة درجوا على تأخيرها منذ دخلهم الإسلام . والليل ما زال فى بكوره وإن تقدمت الظلمة السابغة بغمره . . ولم يكن كثيرون من أهل الولاء للإمام قد حضروا بعد ، فبالوقت فسحة ممدودة ، والرياح الهوجاء ترود طرقات البلدة وتعوقهم بعض التعويق . ولم يكن الوالى نفسه قد حضر لإمامة المصلين ، وإنما انتشر نفر من حرسه خارج المسجد وبمقربة منه يسهرون على سلامته حين يجىء . . . وها قد أوشك أن يبدو لهم خلال ساعة أو بعضها ليقوم بفريضة الله ، ويؤدى بالناس الصلاة . . .

ولكنها صلاة لم يكتب لها الأداء فى موعدها المفروض. لأمر أو لآخر حسب النفر من أصحاب الجمل أن ابن حنيف قد أبطأ فدفعوا ولياً لهم هو عبد الرحمن ابن عتاب ، ليأخذ مكانه أمام صفوف المصلين . . . أكان ذلك حرصا منهم ألا يؤخروا الصلاة أم لغاية عزموا عزمهم عليها من قبل ؟ . . . على أى حال كان

فعلهم نكثا لما عاهدوا عليه الوالى من قيامه وحده بالإمامة . فإذا أضفنا إلى هذا ما تواضع الناس عليه بالبصرة من تأخير العشاء ، لتوقعنا كيف يستقبل حرس ابن حنيف هذا الخرق للهدنة بين أميرهم وهؤلاء الخصوم . نعم قد استقبلوه بالغضبة الواجبة منهم لحق ولى أمرهم أن يضيع ويسلبه أعداؤه تحت ستر الصلاة ، فما أن رأوا عبد الرحمن يتقدم نحو المحراب حتى أشهروا السلاح فى الوجوه لعل أصحابها يفيئون إلى العهد ويرتدعون عما أوشكوا أن يقترفوه .

فإذا المسجد فى الحال ينقلب إلى ساحة قتال . . . فى لمحة عين ظهر السلاح الخبيء تحت الأثواب ليعمل فى الصدور والرقاب، وفى لحظة ضاق المسجد الوسيع عن كانوا فيه ، وانقلب القلة من أصحاب الجمل المتفرقين بجنباته إلى كثرة غالبة تملأ رحابه حتى يضيق بها ، كأنما أطلعتها الأرض أو أمطرتها السماء . . . وهل يسع الحرس أن يردوا كل هذه الجموع المبثوثة حولهم فى كل مكان تنوشهم من كل جانب ، وما يعدون أربعين رجلا أمام قوة مناجزة تستطيع لو شاءت أن تقتلع حصنا باذخا ذا معاقل وأسوار ؟ .

ولكنهم مع ذلك جالدوا القوم جلاداً شديداً ، وصبروا لهم ما أمكنتهم أسنتهم وما بقيت أقدامهم تمس بطونها صفحة الأرض . فلم يلقوا السلاح من أكفهم قط ، ولا نبت بهم مواقفهم أو تزحزحوا قيد شبر ، بل ظلوا حيث كانوا لايريمون حتى تخطفهم الموت ، واحداً إثر واحد ، كراماً . ووقعوا صرعى بأحناء المسجد ، تروى دماؤهم رحابه . . .

فلعل رجال عائشة قد ازدهاهم هذا النصر الذى أحرزوه وإن جاءهم على حساب هيبة بيت الله والمفروض من توقيره . إنهم لا ريب كانوا يدفعون عن حياتهم أن يسترخصها حرس ابن حنيف ، أو هكذا بدوا فى عيون أنفسهم وهم يغفلون أنه لولا عدوانهم على حق الوالى فى إمامة الصلاة لم يكن ذلك الدفاع . . ولكنه نصر حازوه كيفما كانت المقدمات والأسباب ، وسواء أ كانوا قد بيتوا من قبل عزمهم عليه أو جاءهم عفوا بغير تبييت ، فإنهم راحوا يفيدون منه ، ويتبعونه الخطوات الباقية التى توفى بهم على تمام الانتصار .

نسوا وشيكا فريضة العشاء ، ونسوا هــذه الإمامة التى خاضوا من أجلها نهراً من دم ، وذكروا عامل الإقليم . فى هذه الآونة التى قضوا فيها على فرقة حرسه ذكروه . ولم يشاءوا أن يصبروا هنيهة حتى يأتيهم فينبئوه لو كانوا قد عدى عليهم وهم براء لوسعهم الصبر والانتظار لأن العنف ليس شيمة البرىء المنتصر بل التعذير . ولو ساروا إلى ابن حنيف — إذ استبطأوه — يشكون إليه ما كان من حرسه الملق برحبة المسجد لا تسع لهم تبرير سفك تلك الدماء . . ولـكنهم لغير هذا مشوا إليه ، تحت فحمة الليل . . . إنما ليتبعوا الضربة الضربة ، أقوى هذه المرة وأشد ، عسى أن يفرغوا من أمر هذه البلدة ، وواليها ، وما بقى فى أحنائها من قوى ما زالت تصدهم عن السلطان المطلوب . . .

إلى قصر الإمرة مضوا فى غاشية المساء والريح حولهم تدوى وتعصف ، لا يتريثون ولا يمهلون . وكان ابن حنيف لم يبرحها بعد لأداء العشاء ، وبضعة من جنوده على حوافيها تسهر عليه أن يناله بعد تأزم الأحداث مكروه ... ولم يكن الرجل يعلم شيئاً عن وقعة المسجد ، ولا ما أصاب حرسه ، فهو بهذه الغفلة فى طمأنينة وأمان ، وكانت فرقته الساهرة برحبة الدار قد لاذت بمواضع منها تمتنع فيها من قصف الريح ، والسماء تمطر غيثا كأنه الطوفان . كل ما حول القصر لا يشى بمحنة وشيكة ولا ينبىء عن اقتراب خطر الهدوء فى جنباته ، والسلام فى قلوب ساكنيه .

ولـكن ظلالا ، تحركت فى أطراف الرحبة ، خافية فى ثنايا الظلام السابغ عن العيون ، مضت تزدلف كالأشباح ، ليس لسيرها على الأرض وقع مسموع ، ضلت عنها أسماع فرقة الحراسة وأبصارها الحديدة ، بين زمجرة العاصفة وجهامة المساء الضرير . كذلك تسلل رجال عائشة إلى دار الإمرة ، وكذلك باغتوا الجنود . . . وعندما أوشكت حركاتهم أن تنبه إليهم الحرس ، كانت أسيافهم قد سبقت إلى الرقاب تطيح بها ولما يكد فرد من جند الوالى يبعث من صدره صيحة استغاثة . . .

وعلى الأثر عصف الهاجمون بالدار ، على رأسهم قائدهم رائد الغدر مروان

ومن خلفه طلحة ورديفة الزبير . . . من عجب أن يخرج الشيخان مخرجا كهذا لا يحمد عند أضرابهما من ذوى القلوب التى تدين بشرعة الفروسية وهى مروءة وإيثار ولكنهما الآن حقيقان بأن ينسيا ما هو أمثل بهما فى غمرة النصر . حريان بأن يركبا فى سبيل هدفهما كل صعب ومحظور . . .

ألقوا قياد رحلتهما إذن إلى ابن الحكم يفعل كما يلى عليه طبعه فلما أمكنهم الحظ من حرس القصر وتركوهم صرعى برحبته بعد أن أضافوا إلى سجل القتلى من ضحاياهم تلك الليلة أربعين جثة جديدة ، وجهوا نحو ابن حنيف وهو وحيد مهيض النصر . . .

ولكن كرامة الوالى أوقفته أمامهم على قدميه ، يذود كريما عن نفسه ويدفعهم حسبما يستطيع . . . ونال منهم ونالوا منه ، وتكاثر عليه أعوانهم حتى ضيقوا الحلقة عليه ، فوقع أسيرا فى يد مروان .

واستقبله الطاغية ببسمة حاقدة ، وبنظرة أفعى رقطاء . ما لأعزل عند ابن الحكم حرمة تمنعه منه ، ولغير الرفق بهذا الضعيف يتسع قلبه ، فالرحمة على أموى مثله حرام ! . . وإنك لترى كيف يخلص الرجل لطبعه فيفعل كوحش الفلاة إذ يلغ فى دماء فريسته وإن لم تهمد بعد فى قبضة الموت ! . . يقبل فيأخذ بخانق الأمير . ويدفع به إلى بضعة من رجاله كزبانية النار يقيدونه ويشلون حراكه . فإذا رآه قد فقد القدرة على مقاومته أخذ سوطه وراح يجلده حتى كلت يداه فلعل مروءة الفروسية قد استيقظت هذه الآونة بجنبي طلحة والزبير وهما يشهدان المنظر الأليم . ولكنها كانت يقظة موقوتة لم تغن شيئا عن ابن حنيف ولم تنقذه من قسوة جلاده . بل ومضت لحظة بأعين الصاحبين فى نظرة إنكار ثم توارت كخطفة البرق ! . . الوحش الأموى كان إذ ذاك أجدى على قضيتهما من الوالى المغلوب ! . . .

وعند ما حسب الناس أن خطوط الدم التى رسمها السوط على جسد الأسير قد روى غليل مروان ، كانوا لا يدركون نزوات طبعه الكلف بالنكال . . . فقد أكب على الوالى ، المهيض كأنه حطام ، وراح يتم رسالة التعذيب ! . . مضى

وأنيابه منفرجة عن بسمة شامتة ، يشد شعر الرجل ، ويسله شعرة شعرة ، من رأسه ، ومن لحيته ، ومن حاجبيه ، وحتى من أهداب عينيه . وإنه ليستعذب أن يشهد كيف يتجسم الألم الصارخ فى ملامح الوجه الذى خضبته الدموع والدماء ، ويحس فى تعذيب غريمه لذة سابغة ، ومسلاة أى مسلاة . . .

ويستقيل ابن حنيف قدره وهو يجاهد ليكتم وجعه ، ثم يرفع إلى معذبه عينين تبديان الجلد والتصبر من وراء ضباب الدمع ، ويهتف بصوت خافت كله أنين :

« أما أنك إن فتنى بها فى الدنيا يامروان ، لم تفتنى بها فى الآخرة . . . » .

ولكنها شكاية لا تحد من طغيان الجبار ، يمضى لشأنه ، يعذب فريسته وإن راحت فى غشية ، ليتم ما لم يؤده بعد من رسالة النكال ! . .

٥

أضحت البصرة لقى مستباحا لحزب عائشة بعد أسر ابن حنيف ، فقد عملوا وفق خطتهم ، وأخذوا القصر ، وسيطروا على جند الوالى ، وأمكنهم الليل من إنفاذ بقية المؤامرة فلم يصبح الصباح إلا وفى أيديهم أيضاً بيت المال . . .

وغشيت البلدة غشية من القلق والتردد ، ثم لم يلبث أكثر سكانها المسالمين أن عرفوا إلى أى جانب يميلون . وهل يسعهم اليوم خلاف قد شهدوا مغبته ، وأمثولته البادية عاملهم المسكين ؟ . . اليد العليا الآن لأصحاب عسكر ، ومالناس بساحة غيرهم ملاذ . . .

ووقف طلحة وقد غدت السلطة بين أصابعه كالخيوط ، فخطب الجموع التى التأمت بدافع من الخوف وبدافع من الفضول ، فقال :

« أيها الناس . . . يا أهل البصرة . . . توبة بحوبة ! . . . » .

فدعاهم إذن أن يتوبوا عما اقترفوه ، أم كان يرى أن الخليفة القتيل قد أثم ثم تاب فلا عليه من بأس ؟ . . هذا رأى لعائشة قديم ، يردده الشيخ التيمى بألفاظ أبدتها أم المؤمنين فى رسم آخر يوم قالت : « استتابوه ثم قتلوه . . . » .

وسرت همهمة خافتة من أفواه الحشد ، ولـكنها لم تقطع على الخطيب الكلام :

« .. إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ، ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه . . » .

فلم يصبر بعض السامعين على هذه المغالطة الصارخة وموقف طلحة من ابن عفان معروف . فصاح أحدهم به مجاهراً بكلمة الحق التى لا ينبغى أن تضيع بين زخرف الأحاديث :

« يا أبا محمد ! . . قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! . . . »

فأرتج على الشيخ وأصابه الحسر ! . . ورأى الزبير أن أمرهما يوشك بهذه الفلتة القديمة من صاحبه أن ينقلب وبالا ساعة النصر الحاسم ، فسارع يتبوأ مكان زميله ، وقال لذلك المجادل العنيد :

« فهل جاءكم منى كتاب ؟ . » .

واستطاع بهذه اللفتة أن ينأى بأفكار القوم عما أوشكوا أن يلجوا فيه . ولـكنها أيضا كانت بادرة الاختلاف ، أو نقطة التحول فى ذلك الوفاق الظاهر بينه وبين صاحبه لو أتيح للزمن أن يمتد بهما وهما على الحلف الذى أملته وحدة الهدف . فالزبير لا ريب أنقى صحيفة من صاحبه لو كانت النقاوة عنوانا لموقفهما من عثمان . وهو بهذا أدعى أن يلتف به الناس دونه وأدنى أن يتبعوه . ومن قبل آثره معاوية بالتقدم ، لنفس السبب فيما حسب ، فدعاه بلقب الإمارة ، وآثرته أيضا عائشة فقدمت ابنه للصلاة بالناس !...

ولـكنه مع ذلك لم يكن موفقا تمام التوفيق فى خطابه . . . ازدهاه نصره المفاجىء فأنساه كيف يجب عليه فى هذه الآونة الفاصلة أن يمسح على رءوس الجماهير المفتونين ببطولة الأبطال فيحدثهم الحديث الذى لا يسىء إلى مشاعرهم ، وكلهم دون ريب منضم على هوى للإمام وتقدير وإن خشوا القوة الظافرة فـكتموا عواطفهم . نعم ، فقد زلق لسان الزبير ، ومضى به فى غمرة زهوه بظفره ينال من على — من بطلهم ويلحاه ، والقوم يشدون على صدورهم أن تنفث فى وجهه حقيقة ما يشعرون . حتى إذا بلغ من ذمه ولحيه مبلغا ترخص فيه

الخشية على الحياة ، انتفض امرؤ قائما من بين الجمع ، يصيح مغضبا بلا مبالاة :

« أيها الرجل ! .. أنصت حتى نتكلم ... » .

فاضطرب على الأثر حبل الهدوء . كل من فى الحشد ألقى عيناً على هذا الجرىء من عبد القيس أتبعها كلمة إعجاب أو نفثة عجب ، فقد وضع الرجل فى هذه اللحظة رأسه على كفه .

وكان عبد الله بن الزبير فى الحاضرين ، فبدا له أن ترك العبدى وشأنه كفيل بأن يفسد عليهم الأمر ويطمع فيهم الجموع ... هذا « ابن جبلة » جديد ... من نفس القبيلة التى ما فتئت ترفع عليهم علم العصيان ، فليرده إذن عما يروم . . .

وهتف به عبد الله :

« ومالك أنت وللكلام ! . . »

فلم يأبه له . بل مضى وما أراد ، يجبههم باستئثارهم وحدهم باختيار الخلفاء — وقتلهم أيضاً ! — دون مشورة من البصريين ، فكيف بهم اليوم يسألون البصرة فى أمر لم تكن لها يد فيه ؟ .

وأصغى الناس للعبدى وهو يتم حجته :

« ... ثم اخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم أنكرتم منه شيئاً فقتلتموه ، عن غير مشورة منا ! . . ثم بايعتم علياً ، عن غير مشورة منا ، فما الذى نقمتما عليه فنقاتله ؟ . . هل استأثر بفىء ؟ . . أو عمل بغير الحق ؟ . . أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ . . »

فاستعصى عليهم الجواب ! . . ولكن للقوى لغة أخرى غير منطق الحجة هى حديث السيف . وهل كانت القوة المادية إلا ضعفا يستتر دائما خلف مظاهره التى تشيع الرهبة ولا تشيع قط الرضا والاقتناع ؟ . .

لذلك ملك أصحاب الجمل ما يملك أشباههم من الأقوياء الضعفاء فى مثل هذا الموطن الذى يزرى بالعتاد والسلاح ، فقاموا إلى الرجل يهمون أن يقتلوه عسى أن يخرسوا لسانه عن كلمة حق يستطيع أن يقذفها رافع الرأس وهو يهزأ بأعتى الأسلحة والجيوش ! . . أفعبد الله بن الزبير يا ترى قد أغراهم به ليأمن أن تهدر أمام الناس هيبة حزبه الكبير ؟ . .

ولـكنهم على أى حال لم يقدروا على النيل من العبدى ذلك النهار، فقد وقفت لهم عشيرته تحميه ، وتمنعه أن يصيبه عدوان العادين . وعندما بدا لأخصامه أن انسياقهم لدفعتهم قد يؤجج عليهم النار فى وقتهم فيه أحوج إلى اكتساب رضوان الناس ، كفوا أيديهم عن الرجل ، سكتوا عنه وهم يضمرون فى نفوسهم أن يؤخروا ضربتهم المسددة إلى قلبه حتى حين ...

ولم يطل بهم الإضمار ولا الانتظار ، فما أن جاء الغد حتى نالوا منه وطرهم فقتلوه . لم تغن عنه عشيرته شيئا هذه المرة ولم تحاجز دونه ، شهدتهم الشمس فى شروقها صرعى على الثرى مجندلين ، سبعين رجلا ، حول جثة صاحبهم الشجاع .

ليست هذه قصة الغدر الأولى بصحائف البصرة فى تلك الحقبة القصيرة من أحقاب التاريخ ، لا ولا الأخيرة فمثلها حدث كثير ، ولعل العذر الذى يقف بجانب الشيخين فى أمثال هذا العدوان أنهما كانا يبنيان ملـكا جديدا فليس يضير إن قام البناء على جثث وأشلاء ! وأنهما أيضا كانا أمام سيل عرم من أعوان لهما انضمت نفوسهم على حب الغدر وأفعمها الـكلف بالدس والتآمر ! . . وهل من عجب أن تصدر هذه الأفعال من رجال كان فيهم مروان وأشباه له كثيرون ؟ . . إنما العجب أن تمر الصفحات التى سطروها نقية لا يدونها قلم غمسوه فى مداد من دم . .

ثم ها هم الآن ! . . البصرة اليوم قد غدت تحت الأقدام وإن هى إلا فترة من الزمن وجيزة ثم تدين لهم بالطاعة . كل ما كان يمنيهم فى البدء أن يملـكوا مواردها . وقد فعلوا الآن سيطروا على قواها المادية جميعا فغدت فى أيديهم مصائر الأمور . استولوا على السلاح ، وأخضعوا الحرس، وملـكوا ثروة الإقليم بعد أن استولوا على بيت المال . ولم تعد ثمة حيالهم غير نفوس يسير عليهم ابتزاز ولائها أو حياتها لو عرفوا كيف يبذرون الذهب أو يهزون السيف ! . . فعلى الشدة والمال تقوى دعائم الملك العضود المنشود . .

ومضوا إلى بيت المال خفاقاً على أجنحة النصر وقد عزموا أن يشتروا الولاء بالسخاء ويبذلوا لأعوانهم من أهل البصرة عن الطاعة أرزاقا وأعطية .

ولكن ابن الزبير وحده ليس يرى ما يرون. أبى عليه شحه وغل كفيه أن يرتضى سياستهم المرسومة ، فراح يحاج أباه :

« إن ارتزق الناس تفرقوا . . »

فلم يأبه له . وأقبل وصحبه يفرقون الأموال ويغدقون منها على صنائعهم وأوليائهم وقد قر فى أخلادهم أن البصرة كلها رهينة بهذه الدنانير ، آتية على رنينها ولمعها لتاقى لديهم السمع والخضوع . وهل من رجل فيها يجسر الآن على مجاهرتهم بخلاف ؟ . . لقد تقلص منها اليوم ظل الإمام ، وغدا واليه فى أيديهم لا يملك من نفسه غير ما يشاءون . ولسوف ينال منهم كفاء عنته جزاءاً يستنزفه ما بقى فيه من دماء . .

تركوه لقية فى يد عائشة تختار له المصير الذى تراه حقيقاً بأمثاله من العصاة ، لعله يكون أمثولة تردع عنهم من تحدثه نفسه بعده بمناجزة حزبهم الظافر . وكانت السيدة اليوم غيرها بالأمس ، أولتها الحرب قسوة العنف بعد رقة الضعف ، فلم ترفق بأسيرها المخذول ، ولم ترع فيه الأمن الذى يفيئه الأسر ولا الرحمة الواجبة من القوى القاهر على المهيض المقهور ، بل اصطنعت شدة الطغاة وهتفت بابان ابن عثمان إذ جاءها يستلهمها رأيها فى ابن حنيف :

« اقتلوه ! . »

فأسرع الفتى يتعجل فى الرجل قضاء الله، بل قضاء السيدة التي لبست ثوب الخصم وثوب الحكم فى آن ، وأوشك أن يتلون سيفه بدم الضحية . ولكن امرأة أخرى — امرأة لم تأكل الأحداث من قلبها رقة الأنوثة ولم يجف فيها نبع الرحمة ، هالها الحكم فصاحت منكرة ، ومتوسلة ، فى رنة بها ضراعة وبها تأنيب :

« نشدتك بالله يا أم المؤمنين فى عثمان وصحبته لرسول الله . . نشدتك بالله ! . »

فأغضت عائشة ، ثم تحدثت هامسة بعد قليل :

« ردوا أباناً . . . »

فردوه . وألقت إليه بأمرها الجديد . هذه المرة بدت قسمات وجهها ألين وأرق :

« احبسوه ولا تقتلوه . »

فأحنى لها الفتى رأســه موافقا ، ومضى عنها كارهاً لأمرها وإن لم يسمه العصيان ، حتى لقد قال قبل أن يبرح :

« لو علمت أنك تدعيننى لهذا لم أرجع ! . . »

على أن الغدرة التي نزلت برجل عبد القيس وعشيرته السبعين ، والمؤامرة التى قضت على الحرس ساعة المشاء وعصفت بقصر الإمارة ومن فيه ، والجزاء الباغى الذى أصاب الوالى المخذول لم تذهب كلها هباء فى ربع خال ، بل كان لها صدى له دوى شديد . ابن جبلة ساهر لم تنم عينه ، ولم يطر جنانه ، ولم تذهب الأمثولة القاسية التى رسموها على صفحة وجه أميره بشجاعة قلبه الثابت الركين . فما جاءته أخبار البغى حتى هب كالليث وقد أثاره من أولئــكم القوم انحدارهم مع الطغيان ، ونقضهم الهدنة التي عاهدوا عليها ابن حنيف . ووقف غاضبا يزأر فى أعوانه وفرسانه :

« لست أخاف الله إن لم أنصره ! . . »

وتأهب للسير نحو مجتمع القوم وهو يهدر هديره . وعلمت عائشة نبأه فناشها القلق خشية أن تستشرى فتنته ويتألب على حزبها الناس . ورأت من الحــكمة أن تسكن الثورة قبل أن تضطرم وتتسعر فأرسلت إلى صاحبها تقول :

« إن حكيا فى الجمع . لا تحبسا عثمان ودعاه ... »

وتناقلت الألسن رسالة أم المؤمنين وما احتوت من رفق على الوالى الأسير . فلعل السيدة رأت أن تحرير هذا الذى نــكلوا به كان كفيلا أن يهدىء ثائرة من غضبوا له ، ويفرق الناس عن حكيم . . .

على أنها ضربة سياسية — لو كانت السيدة قد عنتها حقا — لم تأخذ من تدبير ابن جبلة ، ولم تصبه على غرة منه ، فقد كان أمعن فى المــكر وأقدر على إحسان التدبير . نظر الرجل فيما حوله نهاله أن يسير هكذا إلى قوم كثر كاملى التعبئة وهو فى نفر من فرسانه قليل ، فهداه دهاؤه أن يستغل نزوة النفس البشرية وكلفها بعرض الحياة . فإذا به يذيع على الطوائف المضمرة بقية من غضب على

المنتصرين أن هؤلاء قد زووا عنهم ما يستحقونه من عطاء وأباحوه أولياءهم فحسب . . . فمن أراد رزقا فليسر خلفه إذن إلى بيت المال ؟ . . .

فهذه حرب تكافأ فيها سلاح الفريقين ! . . تألفوا الناس بالمال فأغراهم هو أيضاً بالطمع فيه . وكذلك زاد عديده ، وانطلق على رأس كوكبة فرسانه الأجلاد ، وطائفة من أفناء ربيعة ، ورجال عبد القيس الموتورين ، وجموع أخرى من بكر بن وائل ، سار أكثرهم حباً فى الثروة قبل مسيرهم فى حق أو بغية الانتصاف لمظلوم . . .

وكرة ثانية غلبت الدفعة على ما فى نفس حكيم من الحذر والتبصر . تماما كما حدث بالأمس ... إنه ليهدر هديره ويخوض بمقذع سبابه فى أم المؤمنين إذ يراها خالقة الفتنة المشبوبة ، فتقف له امرأة فتلحاه . فإذا سيفه يسبق إليها لسانه فيرديها صريعة . . . عندئذ يملك الغضب قومها من أوليائه فيثورون به :

« فعلت بالأمس وتعود لمثلها اليوم ؟ . . والله لندعنك حتى يقيدك الله ! . . » .

ويتخلفون عن صفوفه راجعين ، فلعلهم إذ عادوا قد حالفوا القدر عليه ، وقربوا هلاكه الوشيك . ومن يدرى كيف تكون مغبة الصراع المنتظر بينه وبين أصحاب الجمل لو لم يتخل عنه كل أولئك الأعوان فى لحظة كان فيها أشد حاجة إلى تألف النصير . . .

ومع ذلك فلم يفل هذا من عزمه ، ولم يرده عما أراد . وإنما سار فى الفلول الباقية له وهو أمضى عزيمة منه قبل ، لا يخيفه وهن قواته ولا ترهبه كثرة الخصوم . وسار بنفره القليل حتى بلغ بهم مدينة الرزق منزل الأعداء . . . هناك لقيتهم جنود عائشة وأداتها الحربية الرهيبة . وبدا لهم من بعيد عبد الله بن الزبير يسعى إليهم ، فلما وقفوا بالرحبة ، مثل أمامهم مدلا فى خيلاء واعتداد ، وقال غاضبا يخاطب قائد الثوار :

« ما لك يا حكيم ؟ . . »

فتخابث هذا وأجاب فى هدوء .

« نريد أن نرتزق من هذا المال » .

أفلم يكن يعلم يا ترى أن هذا الأطلس البخيل حقيق بأن يرفض طلبه ويتنكر له وقد أوشك منذ قليل أن يزوى الأرزاق عن أوليائه لولا أن منعه أبوه ؟

وجاءه الجواب الذى لا جواب سواه عند ابن الزبير حين يسأل العطاء وبذل الأموال :

« لا نرزقكم شيئا ! . . »

فلعل ابن جبلة قد سره هذا الكلام ، واستشعر له صدى بقلبه فرحة غامرة أن زوده خصمه بالوقود الذى يشعل نار الغضب فى نفوس من ساروا كل هذه الأشواط من أجل الارتزاق . . .

واستطرد يتحدث بتحابثه إلى ابن الزبير فى السبب الأصيل الذى قدم فيه :

« . . وأن تخلوا عثمان بن حنيف ، فيقيم فى دار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم الإمام . . »

فكان رد عدوه أن شمخ بأنفه استعلاء وكبرا ، وقال له دون مبالاة ، بلهجة من استيقن أنه بموقف يستطيع فيه الإملاء :

« لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى . . . يخلع طاعة على ! . . . »

هكذا ؟ . . برح إذن الخفاء ، وكشف الحزب عن مراميه ؟ وما حديث إطلاقه الأسير إلا حيلة أريد بها تثبيط الناس ؟ . . وما هو أيضاً بغادر قيده إلا أن يشترى حريته بخيانة مولاه ؟ . . وكذلك كانت غايتهم من خروجهم ابتزاز سلطان ابن أبى طالب وإن طالما ستروه بدعوة الثأر لعثمان ؟ . .

وصاح حكيم ، عند هذا ، محنقا غاية الحنق وهو يراهم ينحدرون بأهل بلدته من خيانة إلى خيانة ، ويغرونهم أن ينكثوا مواثيقهم وبيعتهم ، آونة بالمال وآونة بتجنيبهم ذل الأسر وسياط النكال :

« والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم ! . . . »

ثم ألقاها نظرة استفزاز إلى الجموع التى سعت معه لهذا المكان كأنه يشعل دماء رجولتها ويستثير نخوتها أن تقول : « ها نحن أولاء ! . . . » فلما رآهم

تلهبوا بغضبهم واستجابوا لحيته المشبوبة ، رد عينه ثانية متأورة بجمرة إلى وجه عبد الله ، وعاود حديث التحدى والاستنكار :

« . . . والله لقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا ! أما تخافون الله ؟ . . . بم تستحلون سفك الدماء ؟ . . . »

« بدم عثمان بن عفان ! »

« فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ . . . »

فكانت الحجة الدامغة التى تخرس ألسنة المكابرة والجدال ! . . . أم يسع ابن-الزبير أن يزعم أن مذبحة المسجد ، وصرعى القصر ، وقتلى عبد القيس ، كل أولئك كان ثأر عثمان ؟ . . إن أباه ، وطلحة ، وعائشة وأعوانهم أجمعين راموا قاتلا فرموا بنصالهم مئات لم يكن بينهم ذلك القاتل الذى وقعت على رأسه دماء الخليفة الصريع . . . أفهذه عندهم عدالة القصاص ؟ . . .

ورفع ابن جبلة بصره إلى السماء يشهد الله :

« اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ! . . . »

والتفت إلى زمر رجاله خلفه ، وقال :

« أيها الناس . . . إنى لست فى شك من قتال هؤلاء ، فمن كان منكم فى شك فليرجع ! . . . »

وكانت كلماته هذه نفخة البوق التى آذنت بالقتال . . .

٦

شجاعة ابن جبلة وحدها هى التى أدارت المعركة ، وشبتها نارا تلظى على عدوه . من بدء دخول عائشة وأصحابها البصرة كان الرجل يتحرق شوقا إلى لقائهم فى ساحة وغى يحتكمون فيها إلى منطق الأسنة . لم يبال قط بأن يكاثروه بجحافل مجيشة تبدو قواته أمامها كبقايا الطلل أو كظلال الدارة بين متاهة الفلاة . الموازنة بينهم وبينه لم تدر بخلده ، ومراجعة الأرقام لم تطف بباله وهو يعتشق حسامه

ليضرب فى صفوف مرصوصة متكتلة كأنها كسف الغيم . عاطفته هى التي كانت تعمل ، وعقل وراءها عقله . وعندما أشهر سيفه فى وجوه أصحاب الجمل ذلك اليوم برحبة مدينة الرزق ، لم يقدم فى خاطره إلا أنه يهز منجل حصاد ! . .
ثم فقد وجب عليه أن يقطف هذه الرءوس التى خرجت لفتنة ، ومضت على وجوهها كل هذه المراحل الطويلة من بطاح مكة لسواد البصرة ، وهى تروم أن تنكث وتنقض وتقوض دعامة الخلافة التي شادها الإمام . أليس الدفع عن دولة على فى الله وما بايعوا إذ بايعوه سوى الله ؟ . .

لم يعن حكيم قط بأن يتفكر فى أنه بحيال آلاف وآلاف من الرجال المزودين بخير العتاد والسلاح ، وهو فى ثلثمائة من الأعوان فحسب . ولكنه كان قائما فى حق ، فبحسبه أن يسنده إيمانه . وليدع لهم كتائبهم المعبأة تغرقه لو شاءت فى خضمها العجاج ، فلعله يستطيع أن يغالب سطوة اللجة ويشق جبال هذا الطوفان .

والتحمت الأسنة . كل فرد من أعوان الجمل خرج يهز رمحه فى وجوه هذه الطائفة الصغيرة ، ويضرب ويجول . حتى طلحة خرج ، وحتى الزبير أيضاً ، كأنهما يقومان لجيش عات عديده الألوف . بل قد رتبا لها الفرق ، وقدما عليها القواد : أربعة زحفوا جادين إلى تلك الفئة المستضعفة بعددها ، القوية بعزمها ، كان طلحة أحدهم ، يقود كتيبة فى وجه حكيم ولكن هذا لم تهله الكثرة المتدفقة ، ولم ينخلع لها فؤاده ، بل قابلها ثابتاً مالكا جأشه وسيفه ، شعاره أن يهزج فيقول :

« أضربهم باليابس ضرب غلام عابس
من الحياة آيس ! »

فلقد قدم الوفاء على الدماء . ورمى بحياته رخيصة على مذبح إيمانه . . .

كان من البدء يعلم أنه لن يقوم لكل هذه الجموع الزاخرة من جند المتمصرين ، ولن يستطيع دفعاً لأداتهم الحربية الرهيبة أن تطأه وتدهس أعوانه القلائل وكان أيضا عارفاً بخلجات أنفس أولئك الخصوم ، عليما أن لواءهم الأكبر الذى التفوا به وما يزالون هو عائشة بنت الصديق ، فلو سقط ذلك اللواء — لو فقدوه وهم فى عنفوان المعركة إذن لأخذتهم الرهبة وتبددت شجاعتهم وقد غدوا وليس

أمامهم ما يضحون عنه . إن تقديس السيدة كان وحده يمسك عليهم وحدتهم ، ويثير فى دمائهم الحمية ، ويحبب إليهم القتال . . . الله يعلم إن كان حكيم قد أراد فى هذه الآونة أن ينال عائشة بسوء ، أو أزمع سعيه إليها ليأخذها رهينة ثمينة يستطيع أن يبادل بها قومها صلحا مشرفا يرد للإمام شوكته بالبصرة . ويعيد سلطانه المسلوب . . .

ما إن نشبت المعركة حتي اندفعت طائفة من أصحابه إلى دار أم المؤمنين عند رحبة مدينة الرزق لتقتحمها على صاحبتها الآمنة بعض الأمان . إنها بغير ريب مجاز أولئك القلائل إلى النصر ، وأملهم الباقى لإفاءة العدوء على بلدتهم وعلى أمتهم على السواء . ولكن بابها كان أمنع من أن تعصف به تلك الحفنة المهاجمة وتفض رتاجه ، فدونه كانت صفوف من الأولياء من قيس والأزد والرباب ، كلهم وقفوا يردون عنه العوادى ، ويتمثلون فى دفاعهم عن الدار أن وراء جدرانها الصامتة امرأة لها قداسة أن لاذت أعواما بكنف رسول الله .

وأخذت المعركة بعد قليل تميل جذوتها إلى الخمود عن التأور والاحتدام . وشهد باب عائشة حينذاك أجساما يفريها الطعن ، ورءوسا تتبعثر على الثرى فى جواره ، تحت ضربات سيوف أولئك الحراس الشداد . لم يغن إقدام هذا النفر القليل عنهم شيئاً ، ولم يؤخر قدرهم المحتوم . بات واضحا أن شجاعة ابن جبلة ، وإن أبلغته مكانة الأبطال فى الأساطير ، لم تعد مستطيعة أن تحمله على متن النصر المأمول . وإنما تناولته الأسنة من كل صوب ، وتعاورت صحبة ألوف من الأيدى والوف ، تمتد إليهم بسلاح سطعت شفراته كومض البروق وحملت أطرافه الموت الناقع . . لو كان أعداؤه جميعا عزلا لوسعهم أن ينالوه . ولو حصبوه وصحبه بدقائق الحصا والتراب لبانوا منهم الوطر . . . ولكنه مع ذلك لم يتقهقر قط ، ولم يدر ظهره ، ولم تزلزله المحنة ، بل ثبت بموطئه لا يبرحه كأنما بنى فيه على قدميه . وظل سيفه بكفه لا يكفه لحظة عن الحركة . . .

ثم آنت أخيراً اللحظة التي بدأت تحسم النزاع . . . ازدلف امرؤ من أصحاب الجمل إلى حكيم ، فبالقضاء عليه تسكن ثائرة اللظى المشبوبة ... وعند غرة منه ،

أتاه من خلفه ، وضرب بحسامه إحدى رجليه . فما أن مرق الحسام ثم ارتد حتى طارت الساق . أفرأى الضارب يا ترى أن حكيما بنيان راسخ القواعد لا ينقض إلا إذا قوض تحته أساسه ؟ . . كذلك حسب ، وكذلك أيقن يقينه واثتلج فؤاده وهو يشهده كيف اهتز للضربة الصيبة حتى اختلجت كفه ، فسقط سيفه بين أشلاء الصرعى وساقه المبتورة ! . . .

فى هذه الفترة الحازبة التى تذهل المرء من نفسه فتحيله كيانا من الألم الصارخ لم يهن جلد الجريح ، ولم تتخل عنه شجاعته المثلى التى يعز شبيهها فى بطولة الأساطير . . . لوى عنقه فى التو إلى غريعه ، وألقى عليه نظرة صارمة استوعبت حقده المرير . فلعلها استقبلت فى نظيرها أخرى سودتها الشماتة وبسمة سخرية وآراء طافت هنيهة بشفق حليف الجمل إذ رأى موتوره أعزل لا يملك أن يرد عليه ضربته . بل عساه استشعر أيضاً الرثاء حتف رغبته ، هذا الضارب الصحيح المنتصر ، وقد شهد حكيما يميل كمن مادت به الأرض فيوشك أن يهوى من تخاذل وإعياء . . . أمن إعياء ! . . أحقا أوشك الجبار أن يتخذ له مرقداً بين الأشلاء إذ هو حطام ؟ . . إن لمح الطرف لأوسع فسحة من أن يضيق عن الحركة المباغتة التى أتى بها الجريح ، ففى أقصر منها كان قد مال ، ثم رفع ساقه المبتورة ، ثم استوى كما استطاع الاستواء على ساق ، ثم رمى عدوه برجله البتراء فصرعه حيث كان . وقبل أن ينتبه الصريع كان الموتور قد وثب عليه ، وبالسلاح الذى لم يعد يملك سواه — بأصابعه ، راح يجهز عليه حتى اعتصر من بدنه الحياة ! . . .

وتريث حكيم هنيهة يلقف أنفاسه المبهورة ، وإن الرضا ليشيع على قسمات وجهه فيستر ألمه ويخفيه . بين الرءوس الطائرة والأشلاء المتناثرة ، وفوق أديم المعركة التى لم يكف فيها الصراع ، اتخذ على جثمان عدوه مجلسا لعله لم يقتعد أوثر منه قبل اليوم ؟ . . وكانت نهكة الجهد قد نالت منه ، ودمه النازف من جرحه الكبير يجرى به وئيداً وئيداً إلى غشية قريبة ، تجرى الفلك عن أضناه طول الإبحار إلى شاطئ ظليل فيه راحة واستقرار . ولكنه حتى فى هذه الغمرة

التى تشبه الوسن لم يذهل عن طبعه ، أو لعله كان يحلم بسجية الشجاعة وهو يهم أن يتيه فى نعاس الموت . . . فراح يردد بصوته الضعيف ، ويرتجز نفسه يزدهيها الفخار :

« ليس على أن أموت عار فالعار فى الناس هو الفرار
والمجد لا يفدحه الدمار . . . »

وكانت به بقية من حياة عندما مر فارس من أعوانه وهو بمرقده ذاك ، هتف به إذ رآه .

« حكيم ! . . مالك يا حكيم ؟ . . »

« قتلت . . . »

« ومن قتلك ؟ . . . »

فلم تغب عنه قوة جنانه ، وهو بموقفه الضنك ، ولم يتخل عنه مرحه فأجاب وهو يبتسم :

« وسادتى ! . . . »

فسارع الرجل يحمله إلى مكان آمن عليه مما هو فيه . والتف به بقية صحبه الذين أخطأتهم الأسنة حتى الآن . فلما شهدهم حوله ، انتحل من حياتهم حياة ، ومن قوتهم قوة ، وأمرهم فسندوه حتى وقف بينهم على رجل واحدة . . إن النصر قد فر حقاً منه ، ولكن النفوس تستطيع أن تختزن الحقد أجيالا طويلة ، وتتوارثه ، وتنقله إلى سواها كما تنتقل العدوى ، فما له لا يؤلب قومه مرة أخرى على هؤلاء الغزاة العادين قبل أن يموت ، فتكون لكلماته الأخيرة قداسة وصية واجبة الإنفاذ ؟ .

وأنصت له النفر الملتفون به ، وإن السيوف لتأخذهم فلا يتهيبها ولا يرعون . . . ومضى هو يقول :

« أيها الناس . . إن خلفنا هذين ، وقد بايعا عليا ، وأعطياه الطاعة . . . ثم أقبلا ، مخالفين ، محاربين ، يطلبان بدم عثمان بن عفان ، ففرقا بيننا ، ونحن أهل دار وجوار . . . اللهم إنهما لم يريدا عثمان »

ولم يطل به الحديث ، فقد جمدت أنفاسه وحالت بين كلماته الباقية أن تبلغ الأسماع ، الموت أطبق بأصابعه الباردة على شفتيه وإن بقية حديثه ليلحقه ، فماتت ألفاظه قبل أن تولد . وعندما انجاب غبار المعركة ، وسكن صليل السيوف والسلاح ، كان الرجل ملقى على التراب الذى رواه الدم ، إلى جوار أشلاء ولده الأشرف ، وأخيه الرعل ، وبين جثث أولئك النفر من فرسانه ، الذين ظلوا يصغون إليه حتى اللحظة الأخيرة ثم تبعوه مسارعين فى مجاز الموت كما قادهم من قبل فى دروب الحياة . . .

ومهما اختلفت الآراء فيه ، وتباينت نظرات من يفحصون فعاله تحت أضواء شتى يشعها تغاير النزعات . . ومهما أنكر المنكرون عليه إزراءه بعائشة ، وقذفه إياها بهجر القول ، وسعيه أن يقتحم عليها بيتها — وهى امرأة لها من أنوثتها سياج ، دع ما يجب لها من توقير عند الناس . . . مهما يكن من أخطاء الرجل أو ما يبدو أمام خصومه كأنه أخطاء ، فليس من ريب فى أنه مضى مثلا فذا لإنكار الذات ، والذود عن رأيه وإيمانه حتى ليعز أن يكون له شبيه فى الرجولة بين الرجال ، وفى البطولة بين الأبطال . وكفاه أن آثر اعتناق الموت على أن يعيش مستذلا ، ومستظلا أفياء الدعة والتخاذل . فمضى لربه وما عزم عليه ، راضياً بموقفه : قريرا أن ناضل عن حرية شعب أبى له أن يركبه عدوه بالطغيان ويقهره ليدين بما ليس يؤمن به كل الإيمان . . . إن حكيما كان يرى فى رجال عائشة جيشاً غازياً ، عاديا ، يهم أن يسود البصرة بقوة السلاح ، ويبدل شعبها بعهد النور والتحرر ، الذى بزغت شمسه وماكادت ، عهداً كله عسف وظلام . لهذا هب هبته وقام يدرأ النكبة بلسانه وقلبه ودمه . وها هى كلماته تحمل عقيدته وترسم نفسه التي لم تقر الخضوع والإذعان . . . دوت هنيهة فى الآذان فصارت لواء التف به أعوانه ومن رأى رأيه ، وناضلوا عنه حتى نضال حتى غاض منهم معين الحياة . . . ولسوف تدوى مثيلاتها أبداً ماكان للحرية فى هذا العالم صوت مسموع وما بقى لها على أديمه ناصر . . كان قد قدم قبيل المعركة يستثير همم ذويه ويخوتهم أن يظاهروه فى كفاحه ودفعه الغزاة عن بلده الأبى الأمين ، فراح يهيب بهم ويقول :

« يا معشر عبد القيس . . اشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو . . فإما أن تموتوا كراما ، وإما أن تعيشوا أحرارا . . . »

فاستجابوا للنداء وماتوا وهم كرام . . . ذهبوا فى سبيل الحرية ، صرعى ، ضحايا وقرابين . . .

ولكنهم كانوا ثمناً أرخص لمطلب ثمين ! فكم للحرية من شهداء ، وما أكثر ما يبذل من أجلها من فداء ! . . لم تكن دماؤه وصحبه آخر ما أريق ذلك اليوم على مذبحها الموموق . النصر الباغى لا يشبع نهمه ولا تكف أنيابه عن النهش ولا بلعومه عن البلع والازدراد ! . . . فما أن أيقن أصحاب الجمل أن وسن الموت قد غشى ميدان الصراع وأتى فيه على كل خصومهم سوى قليل ، حتى تنادوا فى أرجاء البلدة بين القبائل التى أفزعتها أنباء المذبحة :

« من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة ، فليأتنا بهم . . . » .

فمن غزا المدينة ؟ . . لأن مصير سوف يساق هؤلاء يا ترى وهم مئات ؟ . . . وبأى جريرة يساقون ؟ . . وهل غابت عن الزبير وطلحة أنه كان لهما فيهم أنصار طالما استعدوهم إذ ذاك على عثمان ؟ . . إن عائشة نفسها كانت ترثى أيام ابن عفان للقوم — أولئك الذين قصدوا المدينة — لأنهم كانوا فى عينها مظلومين يبغون رفع ظلاماتهم عند الخليفة ، ويجب لهم عليه الإنصاف ، فكيف تدعهم اليوم وتتخلى عنهم ؟ .

الهوى يبدل أسباباً بأسباب ويختلق ما يشاء من المعاذير ! . . وها هو الرثاء ينقلب نقمة على مستضعفى الأمس المظلومين فتتنكر لهم نفوس من اتخذوهم لهم أنصاراً وأولياء من قبل . بغير هذه النقمة وهذا التنكر لا تستقيم الدعوة العائشية المنادية بالانتقام لعثمان ! . . وما أهون على طلحة وصاحبه من اصطناع ضحايا يكفرون عن خطاياهما فى حق الشيخ حين يجب عليهما التفكير ! . . . أم حسبها الناس سيؤمنون أنها بريئان وقد شهدوا غيرهما يناله القصاص ؟ . . كلا والله ، وقد أخطآ لو حسباه ! . . بل طلحة يعلم بأى شىء تلوثت كفه فى محنة عثمان وهو القائل :

« . . . كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه ! . . . »

ومع ذلك فقد آثر أن يسفك دم سواه ! . . وجىء له ولحزبه بأولئك القوم « ممن غزا المدينة ! ! » من أهل البصرة ، كما يجاء بالكلاب فقتلوا جميعاً أمام أعينهم ، لم يتسع لأحد منهم عذر ولا تبرير ! . . الله وحده يعلم كم من مظلوم قتلوا وكم من برىء ، ويعلم أيضا إن كانت نقمة أعوانهم عند هذا القصاص لم تتسع لكثير « ممن لم يغزوا المدينة » وإنما ألصق بهم قسرا ذلك الاتهام ! .

إن السياسة على أى حال لها أسلوبها الخاص ، وليست بذات قلب وضمير !..

كفى بها أن أنالتهم ما يبغون فها هى البصرة دانت لهم بعد طول تمنع وازورار ، وخضعت ولو تحت سيف الإرهاب . . وها هم أهلوها يبايعون الصاحبين على الطاعة والخضوع . النصر الأكبر منهما الآن جد قريب ، يوم تدين بقية الأمصار . . .

وعلى ذلك بادرا وعائشة يرسلون الرقاع إلى الأقاليم تحمل نبأ ظفرهم وتدعو بدعوتهم ، التى تؤلب على الإمام ، أو تهيب بالناس أن يقعدوا من نصرته . . .

كتبوا بهذا إلى الشام ، وإلى اليمامة ، وإلى المدينة ، ثم إلى أهل الكوفة وهم يأملون أن يأتيهم من كل أولئكم نصير يشد أزرهم ويعينهم على ما يريدون . . .

ولكنهم كانوا يبدون بكتبهم غير ما يخفون . حرصوا أن يظهروا أمام الناس كمن لا يبغى أربا من سيادة أو سلطان ، بل هى نهضة لله تقتص للقتيل المظلوم .

« . . . إنا نناشدكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرنا ، وقضينا الذى علينا . . »

فما كان أرقه من ستار يشف عما خلفه ! . . فهذا الزبير ، لا يكاد يرفع يده عن كتبهم هذه ، حتى يمضى بين أهل البصرة — أعوانه الجدد — يحفز ولاءهم أن يستجيبوا له فلا يكون كلامه إلا دعوة سافرة تكشف عن مبلغ طمعه فى السلطان . . . ينادى فى الناس :

« ألا ألف فارس ، أسير بهم إلى على ، فإما بيته وإما صبحته ، لعلى أقتله قبل أن يصل إلينا ! . . . »

فتذهب دعوته الظالمة بدداً فى الريح ، ويذهب معها اعتزازه بما أصاب من نصر لم تخلق جدته الأيام ! . . .

وما أسرع ما ينتاب الرجل الضيق والتردد . وإنه ليحس ، فى ساعة تأمل وقد خلا بنفسه ، أن سحابة من الشك تغشى بصيرته فلا يجيد تبين الأمور . . اشتبه عليه موقفه وملأ قلبه التوجس مما هو فيه وما صيرته إليه الأحداث ، حتى ليهمس محدثا نفسه :

« إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدث عنها . . . » .

فإذا أذن أخرى قد لقفت همسه ، فيرتد عما كان فيه من شرود الذهن على صوت مولاه :

« أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ . . »

« ويحك ! . . إنا نبصر ولا نبصر . . . »

ثم هز رأسه فى أسف وأردف يقول :

« . . . ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمى فيه غير هذا الأمر ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! » .

عـــــزلة

١

بعد الصبر عن القصد ! . .

فى علاج الأنفس المنحرفة عن الجادة يستطب بالرفق فتستقيم ، وبالعظة الحسنة فتفىء إلى الحق إذ تراها مشعلا يضىء أمامها فيكشف المفترق بين الضلال والهداية . . بين عماية الباطل ويقظة الصواب المنير ، ولكن الذين أغواهم هواهم ليس يهديهم من غى راشد ، ولا يميط عن قلوبهم أكنتها . . . الأرب الذاتى وحده غايتهم ، إليه يسعون ، على الصعب والذلول ، بأى وسيلة وظهر ، ومن أى سبيل ، إن الطريق تزين لهم فى غلالة من الضوء رقيقة هى أشبه بلمعة الفجر الكاذب فى جانب السماء وإن حسبوها بشير الإصباح . المنى الآن حيالهم بارقة ، لها سنى بانت تحته الدارة المنشودة فيها مياه وظل ظليل . والمرحلة الباقية قصيرة ، خطوات ثم يبلغون ما يشتهون . أفيلقون ثمة جنى وغصونا وارفة فينانة أم هى يا ترى خفقة السراب ؟ . . .

إن هذا لوهم المخدوع عن بصره وعن بصيرته ، فقد جمحت بهم مطايا الغايات وهاموا فى فلاة يختلط فيها انعكاس السراب بفراغ كأنه التيه . جاوزت بهم أمانيهم القصد ، نأت عنه كما نأى الصبر بالإمام . عندما ترفق بهم ونزع إلى الحسنى كان صبره عليهم فى الله ، وللوطن الذى شاء من أجله أن يمهل لدعاة الانقسام عسى أن يكون فى إمهاله إياهم علاج ما بنفوسهم من انحراف . أما اليوم فقد عرف أن داءهم عزيز على دوائه فليس له أن يدعهم إذن عدوى تصيب الباقين . نصرهم بالبصرة — وإن جاءهم على متن الغدر — حرى أن يفتن ضعاف النفوس بغيرها من البلدان وما أكثر ما يحسب الخلق الحق فى جانب الظافر . وإذا كان قد أمهلهم بالأمس فقد وجب الآن أن يعالجهم حتى لا تسير الأقاليم الأخرى على آثارهم فى درب الفتنة . فكم بها من متربص يهزه جشعه للسيادة أن يغامر بالانتقاض على إمرته وهو لا يهدف ، إذ يفعل ، إلا إلى إرضاء شهوة خاصة ، أما خير وطنه ودينه فتلو مشتهاه . . .

على الإمام الشخوص إلى مباءة العصاة ليئد هناك فتنهم . وليلحد فى حلبة نصرهم قبرا يضم مطامعهم . إن لهم فى جعبته لدواء ناجعاً يشفى من أدوائهم العصية ما عز على الموعظة والترفق — لهم عنده العنف ولهم السيف ! ... ومع ذلك فلم تبرح الرحمة قلبه قط ، بل كان دائما أقرب إلى الرثاء لهم من هذا الغى الذى سدروا فيه ، وظل يرجو أن يتغلب التبصر فى نفوسهم على الطيش فيبقى السلام ويلتئم صدع الإسلام . وما كان عدوانهم على البصرة ، ولا سومهم أهلها الخسف بذلك الإرهاب الذى اختطوه ، لينزع من قلبه الرجاء فى عطفهم إليه باللين والهوادة . وحين جاءه ابن حنيف وبوجهه آثار مثلتهم كتم فورة غضبه قدر وسعه حتى لا يثير لواعج الألم فى نفس الوالى المغلوب ، وتلقاه قائلا فى دعابة :

« انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب ! . . »

ثم ربت ظهره مواسيا وقال :

« ... أصبت أجراً وخيراً يا عثمان . . . »

ومع ما بدا من تهوينه شأن هذا العدوان فلم يغفل عما قد يجىء فى أعقابه من أخطار لو ظل مستمسكا بصبره . ولكنه كان من أمره كالمضيع ، يرى الخطر تحت قدميه ولا يملك رده . فما زال ينقصه مزيد من الرجال والعتاد ولو أن امرأ آخر كان مكانه لما أبى نصرة القبائل التى أتته دراكا تعرض نفسها عليه أن يقبلها فى جيشه ، أما هو فقد بقى وفيا لرأيه الأول لا يحيد عنه حتى يظل نقى الصفحة أبدا ، نائيا عن اقتحام الشبهات . ولكم غل يديه استمساكه بهذا المبدأ وتركه رهينة رأى أبى موسى الأشعرى والى الكوفة الذى لم يكفه القعود عن نصرته بل راح يحض أهل إقليمه ألا يلحقوا به ولا يعدوه بالرجال والسلاح . فما كان أعجب موقف الأشعرى المتخاذل ، وأتعس به من نصير ووال ! . . .

كم حز فى نفسه أن تثبط همة الكوفة عنه ، هى التى آثرها بحبه على بقية البلاد وشاء أن يتخذها ردءاً له وللوطن يدفع عنهما غائلة العصاة . وكم عانى إذ ذاك من قلق الانتظار . لقد أرسل يستمدها مرة ، ثم ثانية ، ثم أخرى فما بالها لم تلب دعوته ؟ . . آفتها دون ريب واليه ، فهل من عجب أن تحوم حول الأشعرى

الشكوك حتى ليحسبه الناس ضالعا مع الأعداء ؟ . . لم تجد الرسل ، ولم يغير العامل العاصى موقفه . وهذا محمد بن أبى بكر يعود من الكوفة ولا جند وراءه ، ويخبر الإمام كيف خبر بنفسه حقيقة دخيلة أبى موسى فاستيقن أنه تنكر لأدنى واجبات الولاء . . . كان محمد قد مضى بكتاب من على إلى الوالى يستنفره فيه وأهل إقليمه أن يوافوا جيش التأديب بذى قار ، فلم يلق عند الأشعرى أذنا سميعة ، وعندما بلغ الناس قدوم رسول الإمام ذهب وجوههم إلى عاملهم يطلبون منه المشورة :

« ما ترى فى الخروج ؟ . . . »

فقال دون مبالاة :

« كان الرأى بالأمس ليس باليوم . إن الذى تهاونتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون . . . »

ثم أردف يبث فيهم التخاذل فقال :

« . . . إنما هما أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا أيها الناس ! . . » .

فكان من الطبيعى أن يثاقلوا عن دعوة الإمام بعد هذا الرأى الذى ساقه واليهم الحصيف ! . . .

وعلم محمد بما كان من الرجل فأسرع يجادله فى الأمر . ولعله ذكره بما عساه قد غفل عنه أو أغفله من وجوب استمساكه بالولاء لأمير المؤمنين فى هذه المحنة التى أوشكت أن تزلزل صرح الإسلام . ولكن أبا موسى تشبث بعناده . وبدا كأن قد حزم حزمه على القعود ، وعلى تثبيط الناس ، وعلى عمل كل ما هو كفيل بغل يد الإمام عن قمع الثوار . لم يصغ للنصح ولم يلن أمام غضب رسول مولاه . بل ظل بموقفه العجيب لا يتزحزح عنه . . . وكأنه أراد أن يبدو فى عينى ابن أبى بكر كمن يخشى على الحق أن يضيع ، ويحرص على العدالة لتسير فى نهجها ، فقال بعد قليل يبرر مسلك العناد الذى التزمه :

« والله إن بيعة عثمان لفى عنقى وعنق صاحبك . فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . »

فهذا ترديد لقول قديم نطق به طلحة والزبير عقب بيعتهما الإمام ! . . فبأى عدة ياترى يستطاع الفراغ من قتلة عثمان وثمة أحزاب شتى كلها يدعى لنفسه الحق فى القصاص ولا يدفع إلى يد الحاكم الشرعى للدولة بجندى واحد يستعين به فى إنفاذ العدالة فى أولئك القتلة المطلوبين ؟. ومن كانوا الجناة المخضبة أكفهم بدماء الخليفة القتيل ؟ . . وكيف يساغ أن يطلب من الإمام الثأر لعثمان وقد تفرق دمه بين القبائل وأهل الأمصار بل الطائفة التى نهضت تدعى لنفسها ولاية الدم ؟ . . إن العجب كل العجب أن يسألوه الاقتصاص من كل أولئك الجماهير ثم يضنون عليه بالسلاح الذى يقابلها به ، وبالجند الذى هو عدة من يريد إقامة حق ودحض باطل ليس إليهما من سبيل إلا بقوة السواعد وحد السيوف ! .

لقد أوشك الأشعرى بمسلكه أن ينحاز لأهل الفتنة المنتقضين على الإمام . وهل كانت فتنتهم سوى عصيان يكاد الرجل أن يقرهم عليه ؟ . ويعلى لهم فيه ؟ . . ويغرى غيرهم بتأثر خطاهم المريبة ؟ . . فتقاعده عن نصرة مولاه مكن لهم فى البصرة ، وهو كفيل بعد أن ينيلهم أربهم فى البلدان الأخرى ما دام على لا يملك ردهم عما يريدون . لا ريب كان مفتاح الموقف كله فى يد أبى موسى تلك الأيام لو شاء خذل أو شاء نصر . وكان فيما يبدو يستشعر هذه القوة التى حباه بها زمانه وأصبح من طريقها قواما على مصير الدولة ، فظل طويلا يستمتع بما أضفته عليه من اعتزاز بنفسه ومقداره ، وغلا فى عناده ما وسمه الغلو والتيه فراح يلوى جيده عن رسل الإمام الذين ما فتئوا يقصدونه تباعاً ليستجيب لدعوة أمير المؤمنين . . قصده ابن أبى بكر وابن جعفر ، ثم من بعدهما عمار بن ياسر ، والأشتر ، وابن عباس ، والحسن سبط رسول الله . وكانوا جميعا نخبة من خيرة الناس تتفتح أعصى المغاليق والأبواب لكلمة تند منهم إلا باب قلب الأشعرى المفتون بالعناد . فما زال الرجل ممعنا فى غلوائه ، أو فى عدائه ، حتى ضاق عنه صدر على الذى لا يضيق ، وكتب له يقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولي عليك فارفع ذيلك ، واشدد مئزرك ، واخرج من حجرك ، واندب من معك . فإن حققت فانفذ وإن فشلت فابعد . . . وأيم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخاثرك ، وذائبك بجامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذرك من خلفك ! . . وما هي بالهوينى التي ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى ، يركب جملها ، ويذل صعبها ، ويسهل جبلها ؛ فاعقل عقلك ، واملك أمرك ، وخذ نصيبك وحظك . . فإن كرهت فتنح إلى غير رحب ولا في نجاة . . والله إنه لحق مع محق ، وما نبالي ما صنع الملحدون . »

أفكان التفشل أو الجبن هو وحده باعث تقاعد الأشعرى عن نصرة الإمام ؟.. على ترفق غاية الترفق بواليه العاصى ، الذى خذله وخذل عنه فلم ير فى خطابه أن يرميه بالخيانة ، واكتفى بأن رسمه خواراً ضعيف الرأى قصير النظرة بالغ التردد ، يتشابه عليه أمره حتى لا يدرى أين يجب عليه أن يضع قدميه . ولقد تجتمع الآراء فى نظرتها لهذا الرسم وتتفق غاية اتفاق ، ولكن منها بغير شك ما لا يحرم الوالى صفة أخرى هى التنكر لطاعة الإمام وبعده عن الولاء له . هذه الصفة كانت ثوبا لنفس أبى موسى لم تخلعه فى أحرج المواطن وأدعاها إلى الاستجابة للوفاء والنصرة ، بدت جلية خلال محنة البصرة ، وستبدو من بعد أجلى وأظهر حين يسخر القدر سخريته المرة فيجعل من الأشعرى ، الذى لم يؤمن قط بحق مولاه ، صاحب الكلمة الفاصلة فى هذا الحق عند التحكيم . .

على أنها كانت محنة اختيرت فيها نفوس الرجال فنضح إناء أبى موسى بما فيه ! . . . وقد آثر الرجال أن يبقى بموقفه ، تماما كالأتان الحرون ، وإن ألهبت ظهره من ألفاظ أميره سياط لساعة ! . . . وإن تناوبه الرسل بالحث واللحى والوعيد . فلأمر كتمه كان مسلكه ، أو كان من غفلة لا يصلح معها أن يؤتمن على ولايته ولا ثقة مولاه . . . وعندما يحين الوقت فسوف نراه ، ليس فحسب ذلك العامل العاصى الغافل ، بل الأداة القاطعة التى سدد القدر حدها لدولة الإمام .

٢

العزلة . . .

هذه هى السياسة التى شاء أبو موسى الأشعرى أن يحمل عليها أهل إقليمه ، وإنها للفظ هين رقيق يرسم صورة لنواياه لو استطعنا إحسان الظن بما يطوى عليه خاطره وأغفلنا مابدا من تنكره لواجب الولاء لأميره وفى عنقه بيعة توجب عليه هذا الولاء . ولكن الرجل رأى رأيه ، وحط سبيله وسار قدما فيه . وهو بهذا يوشك أن يكرر مرة أخرى نفس المأساة التى وقعت فى العام السالف بحاضرة الإسلام ويلعب دور ذلك الفريق من الصحابة ، الذين تقاعدوا خلال محنة عثمان فى وقت دعتهم الدواعى فيه إلى عمل إيجابى حاسم ، وآثروا النأى بأنفسهم عن تناول الأمور حتى أبرم القدر قضاءه فى الخليفة الشيخ . . . فلو أدلوا بدلوهم إذ ذاك ، ومضوا وما تفرضه عليهم مكانتهم بحسبانهم رءوس الناس ، وواجبهم من نصر الحق أو كبح الباطل فربما وسعهم يومها أن يكتبوا صفحة أخرى فى التاريخ أنقى وأطهر ، لا يلوث أديمها مداد الدم ، ولاستطاعوا أن يدفعوا عن عثمان عادية الفتنة ، أو يحملوه على التزام السبيل السوى فيجنبوه مصرعه . وها اليوم يعيد الأشعرى قصتهم ، ويرد ما كان من توا كلهم ثانية إلى الحياة وهو ينأى بنفسه وبأهل إقليمه عن أميره كما ينأى الناس عن راع استصرخهم على ذئاب جياع ! . .

وكان رأى أبى موسى أن يدع الراعى ويدع الذئاب ، لا يعدو من أجل فريق منهما على فريق ! . . جماع سياسته كان هـذا القعود وأمر العادى والمستصرخ كليهما للأقدار ! . فتنه الاعتزال شر افتتان لا نحسبه يجىء إلا عن غفلة تجاوز كل الغفلات ، أو عن مكر سيء يراد من ورائه أن يشتبك الأمر وينتقض على أمير المؤمنين . ولقد كاد الخطب يدلهم ، وأوشك أن يطلع عواقب وخيمه ؛ فما هز هذا شعرة فى لحيته ! وما دفعه قط عن سياسته السلبية ، بل ظل ودأبه ، يحض أهل بلدته أن يقعدوا مثل قعدته كأن الأمر ليس يعنيه . وكأن كل ما فى

جعبته من علاج للداء الموشك على الأخذ بخناق أمته من وراء الخلاف المشبوب هو ما تحمله هذه الـكلمات :

« . . . أغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار حتى تنجلى هذه الفتنة . . . » .

فالدولة إذن والأقدار إن شاءت مالت بها إلى يمين أو طوحت بها إلى يسار ... مصير الأمة الإسلامية كلها كان لا يساوى عنده خطوة يخطوها فى توفيق أو سيفا يسله فى دفاع ونصرة . . . لا عملٍ سوى ألا يعمل ! . . .

فما أعجب أن تـكون هذه هى الخطة التى ظنها تودى لخير ! . . . أم كانت عزلة حقيقية لا ترجح كفة جانب من الفريقين ؟ . . الأشعرى هكذا آثرها ، وقام يبشر بها بين الناس كأنها حيدة صريحة أمينة لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من الطائفتين اللتين ثارت أوكادت أن تثور بينهما الحرب الأهلية . وحين تحسن الظن بالرجل قد تراها برأى عينه ، ولـكنك لو فـكرت قليلا لـكدت تنـكر على المصادفة وحدها أن تضع فى فيه لسان ببغاء يردد نفس كلمات عائشة أو يكاد ! . .

نعم وإنك لحق فى هذا الإنـكار ، أو متردد — فى القليل — يجتذبك الشك وتلعب بك الريبة ، فما تستطيع أن تنسى أن بمثل دعوته دعت عائشة من قبل وبعثت بكتبها إلى أهل الـكوفة عقب انصياع البصرة لطاعتها عنوة بعد ما لفها جيشها فى وشاح إرهاب ... كتبت إذا ذاك إلى بلدة هذا الأمير تقول فى خطاب لها طويل !

« . . . فثبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، وجلسوا فى بيوتـكم . . . . . » .

وبمثله أيضاً بعثت إلى طائفة من رجالات هذا المصر ، تحضهم على القعود ، وجرت هكذا رسالتها إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبى بكر . أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد ، فإذا أتاك كتابى فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن على . . . . » .

فلصالح من كان هذا التخذيل ؟ . . وإذا كانت السيدة لم تجد فى زيد لسانا ناطقا بدعوتها فها هو الأشعرى يرفع بها عقيرته ولا يكف لحظة واحدة عن ترديدها وصبها فى الآذان . كان دأبه الدائب أن يثبط الناس عن مولاه استجابة منه — على أهون افتراض — لخطته التى سماها سياسة الاعتزال .

ويمر الوقت . وتستطير الفتنة فلا تخفى مغبتها الخطرة عن ذى عينين ، منذرة بشر مآل ينتظر دولة الإسلام ، وآخذة بين يوم ويوم من هيبة الرجل الذى أقسم له يمين الولاء ، ومع ذلك فما يبى أبو موسى يسدر فى غيه ، ويمعن فيه أيما إمعان . بل هو يكلف بالحرص على هذا الإصرار فلا يزحزحه عنه شىء ، ولا يرده إنسان . وكلما جاءه رسول من الإمام يهيب به أن يندب الناس ، بدا كأنما فى الإهابة مايغريه باللج فى عناده . ولا يكاد يمضى عنه ابن أبى بكر يائساً من استمالته ومن هدايته ، ويقبل ابن عباس مبعوثاً جديداً من قبل الإمام ، حتى يعاوده كلفه بالتثبيط هذه المرة أعمق وأشد ، فيردد ما كان قد سلف منه للجموع وإنه ليصطنع لنفسه فى خطابه الجديد مقاما يجعل لحديثه عذوبة فى الأسماع . . . اسمعه كيف قام يقول :

« يا أيها الناس . . إن أصحاب النبى الذين صحبوه فى المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ! . . وإن لكم علينا حقا ، فأنا مؤديه إليكم . . . »

فهو إذن أبصر بالموقف ، أعرف منهم بالحقائق الخفية إذ كانت له بالنبي صحبة وله إذن عليهم السمع ، ولقوله فصل الخطاب والقطع ! . .

وكرة ثانية يلم بحق عثمان على الناس إلمامة يغلفها التلميح دون التصريح ، ويشير بها هونا لما اجترحه الشعب فى ولايته التى ما كان لامرئ أن يخلعها أو يخدشها وهى منحة من عند الله آثره بها دون سواه . ثم يمضى وحديثه المعاد المعهود . فإذا به الآن لا ينسى أن يضمنه دعوة أخرى إلى جوار دعوته السالفة إلى التخاذل والقعود . . . يقول وهو يستأنف الكلام :

« . . . كان الرأى ألا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا على الله . . . وكان الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ! . . . »

ويحار الذهن أشد حيرة وأبلغها حين يحاول أن يستقصى المعنى المستتر وراء هذه الكلمات . إنها لتنضم على بغى سافر على حق أمير المؤمنين وتكاد تجأر بوجوب نقض بيعته التى تمت عن رضا من وجوه المسلمين واختيار حجة الأشعرى فى هذا أن ثمة طائفة لم تجتمع بعد على على ولم تدن له بالطاعة وإن علمها العامل المشاق قد نكثت عهدها السالف وحنثت بيمين الولاء . وإنه ليسدر فى بغيه حتى الغاية ، ويمضى ودعوة تخذيله وانتقاضه إلى حد أن يشترط ثمنا لاستجابته لأوامر الإمام — أى إمام كما يلوح ! — أن يتفق على تأييده كل الناس ولا يتردد أحد منهم فى الادلاء بالبيعة له . فما أعجب أن تكون هذه هى نظرة الرجل إلى إمرة أميره ، وما أدلها كلمات فضحت نواياه ! . . أم يعوز المرء أن يتلمس أبلغ منها دلالة على رأى الأشعرى فى ولاية على ، وهى ترسمه لنا مستهيناً بها ، لا على احتفال ، يرى نفسه فى حل منها لو شاء ، وخاصة وما غفل قط عن الإعلان بأن بيعة عثمان ما زالت فى عنقه ! . .

من العبث أن نصطنع العذر المقبول الذى يكون تبريراً لما قال . فما يستطيع أحد قط أن يكون مخلصا ظاهر الولاء لعهد ثم يخلص فى ذات الوقت لعهد آخر قام على أنقاض الأول . وقد يصح هذا لو لم تنتغر ثمة ثغرة بين العهدين تباعد أحدهما عن سابقه وتضرب بين أنصار كليهما بالعداء والخلاف . فلأى الحزبين كان أبو موسى يميل ! . . ولدولة من من الخليفتين يهب تأييده ! . .

الجواب الصريح نضحت عنه ذات الخطبة التى ألقاها والى الكوفة ، ذلك اليوم بمسجدها ، فى حضرة ابن عباس . إن الدعوة الأخرى التى رافقت دعوة القعود ونادى بها بين سامعيه . إنه الرأى الثانى الذى قوامه : أن يأخذوا من قدم عليهم من المدينة فيردوهم إليها . . .

من قدم من المدينة ؟ . . لو قد جرت الأنباء بأن طائفة من خصوم الإمام همت أن تنزح إلى الكوفة أو تزحف إليها بجيش لوسعنا فهم دعوة الأشعرى . ولكن هؤلاء الخصوم ، وكلهم لعائشة شيعة حتى الآن ، أتوا من مكة لم يخرجوا من المدينة ، وساروا صوب البصرة دون غيرها من البلدان ، فليسوا إذن من عناهم الرجل . ولو مشت فرق من الحزبين المصطرعين تؤم أرض إمرته لاستطعنا أن نسيغ دعوته على ضوء افتتانه بالوقوف منهما معا موقف حيدة واعتزال ، ولكننا أيضاً لم نسمع قط بنفر جاهر علياً بالعصيان أوشك أن يتخذ من الكوفة ملاذا ودار هجرة أو تأليب . فمن كان إذن أولئك القادمون ؟ . .

ما كان ليكفى الأشعرى أن يخذل الناس عن على جريا على السياسة السلبية التى اختطها لنفسه لأنه بات لا يرى الجدوى إلا من وراء عمل إيجابى حاسم يقوم به ، ويحض أهل إقليمه على مظاهرته فيه . وكان هذا العمل وقوفه حجابا حاجزاً بين « من قدم من المدينة » وبين الكوفة يردهم عنها إلى دار خروجهم حتى يجمعوا أمرهم على إمام ! أى إمام ! فليكشف لنا إذن نواياه ، وليبد لنا من سياسته سوأتها البغيضة فيدفع عن بلدته أنصار مولاه الذين قدموا وحدهم من المدينة ويردهم أن يلوذوا بحماه . أم يا ترى ثمة غير على قد تنادى باللياذ بالكوفة وقد كتب إلى أهلها عقب خروجه من حاضرة الإسلام كتابه الذى قال فيه : « إنى اخترتكم والنزول بين أظهركم » ؟ . .

فهى إذا سياسة عداء متصلة الحلقات دبرها هذا الوالى العاصى ليصاول بها أمير المؤمنين . بدأت بالدعوة إلى الاعتزال الظاهر الذى يخفى خلفه العصيان ثم سارت حتى بلغت منه ذروة الجحود والتنكر ، فطوعت له نفسه أن يصد مولاه عن بعض أرض ولاياته ، ويحرم عليه دخولها كأنه طريد ! . . فهل ترى أراد الأشعرى بدعوتيه ، وبث سمومهما بين أهل إقليمه ، أن يهيء أذهانهم بعد تثبيطهم عن الإمام إلى شنها حربا شعواء عليه ، حين تتوافر لدى الداعية الأسباب وتسنح فرص الأيام ؟ . .

دخيلة قلب هذا الباغي يعلمها الله ! . . ولـكنك تعجب غاية العجب لو كنت تصغى إلى خطبته حتى لتـكاد أن تنـكر على أذنيك ما سمعتاه . . . أما هو فقد سار وشأنه ، هادئا فى غير استحياء ، ينفث سمه الناقع ، وينفخ فى رماد نار سوف تشب عما قليل ، وإن دخانها ليـكاد أن يتخلل شعيرات لحيته فيصبغها بالسـواد ، لو أنك أوتيت من رأى العين مثل حدة الخيال ! .

٣

فى بدء المحنة ، ظل شعب الـكوفة مبقيا على هيبة أميره . لم يجاهره رجل فيها باستنـكار السياسة التى جهد الوالى جهده لإنفاذها حتى الغاية . ولـكنه كان إبقاء لا يستجيب لدافع غير ولع الناس بالدعة وإيثارها على الحرب بما هى حقيقة أن تجره من دماء ودموع . أما الولاء فما نحسب امرأ بالبلدة كان يضمر سواه للإمام . بل ثبتوا على عهدهم منه ، وعلى نظرة الإكبار التى كان يقتضيهم إياها ماضى على ، ومقامه من محمد ، وحسن بلائه فى الإسلام ، ومزاياه الخلقية التى يكاد أن يتفرد بها وتؤهله لإعزاز الدولة . والدين ولو أتيح لهم من البدء من يهز عواطفهم الـكامنة بالقلوب إذن لاندلعت لهباً وفاضت كحمم البركان فى ثورته تجتاح أمامها كل ما يعترض سبيلها من دعوات التخذيل وصيحات المثبطين .

ولـكن سحرهم من أميرهم دعوته الخلابة ، فما ينـكر أحد ولا يكره نداء السلام وقد كاد أبو موسى أن يدخل أذهان الناس داعية سلام ، يبشر بحقن الدماء وإحلال الأخوة والصفاء فى مكان العداء والخصام . وأقبل القوم فى البدء يصغون إليه ، وتخدر عقولهم بحديثه الناعم . ولـكن الزمن كان من عداته يتربص له ، ويزخر أيامه ولياليه لسحق خطته ، وردها فى نهاية الأمر شراً عليه ، ففى كل لحظة كانت الحقيقة الخافية وراء معسول اللفظ تتبلج لذهن من الأذهان وتلتمع كومضة شعاع . وبكل ومضة كان الوالى المتمرد يفقد أذنا كانت من قبل مصيخة لتناديه . ولئن بقى القوم زمانا مبقين على هيبة الرجل بينهم لا يردعونه

جهرة عما افتتن بالقيام فيه فلأن مشاعرهم الزارية عليه لم يتح لها المحرك المثير . .
على أن يوم النكس لم يغب طويلا . طلعت شمسه وأبو موسى قد أمن إشراقها
على أرضه لفرط ما آمن بجدوى دعوته . لم يظن قط أن عصاه السحرية لن تعود
أفعى حية ! . .

كان سلاحه الذى ضرب فى الميدان هو الإعادة ، يتحدث برأيه ، ثم يتحدث ،
ثم يعيد التحدث ما وسعه أن يعيد . وكان فى هذا عزيز الضريب فلم يكف لسانه
قط عن التخذيل ، ولم يعل تثبيط الناس . بدا كأن قد وكل بهيبة الإمام ينتقص
منها ويغرى شعبه بالانتقاص . فلعلك لا تلحى الرجل كل اللحى وقد علمت مدى
إعانه ببيعة على وبحقه عليه من الولاء والوفاء . غير أن القوم لم يظلوا عند ظنه بهم
ولم يظل أمامهم صاحب النصح الذى يبصرهم بمواطن السلام ليلتزموها فيحقن
دمهم أن يهراق . بطل اليوم سحر دعوته . وأخذت غشاوة البصائر تنجاب عنها
قليلا قليلا حتى راحت الشكوك فى نواياه تنتهب الأنفس . وبدلا من أن يصغى
الناس إلى دعوته الخبيثة فى سكون ويلقفوها إذ هى من لسان صاحب لرسول الله
أعلم منهم بالحقائق المغيبة ، راح همس الحيرة يتنقل بينهم من فم إلى أذن ، ثم يتبعه
حديث إنكار ، ثم ثورة الغضب تضطرم فيم تبادلوه من كلام .

وأينع إنكارهم عليه بعد قليل . نفست الصدور الجياشة عن غضبها المكتوم .
كان لا بد أن يلقى الرجل عاقبة هذا التمويه الذى به غرر بأهل إقليمه لأن حبل
الزيف مآله إلى انقطاع . وحين وقف ذلك اليوم يردد نفس أنشودته ، لم يكن
يحسب أن قليلا من الناس ، بل واحداً منهم ، سوف ينأى بسمعه عن شدوه .
فإذا بثقته تنهار فجأة عندما قام عبد خير الخيوانى يقطع عليه الحديث . آن وقت
مناقشة هذا الأشعرى الحساب ! . . .

قال عبد خير وهو يعنى ما كان من فتنة طلحة والزبير اللذين لا شك كانا
صاحبى الغنم من وراء دعوة واليه :

« يا أبا موسى . . . هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليا ؟ . . . »

فلم ير سبيلا إلى الإنكار ، وأجاب :

« نعم » .

« هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ ... »

« لا أرى » .

فصاح به فى حنق ولم يتهيب :

« لا دريت ! . . وإنا تاركوك حتى تدرى ... »

ولكنه لم يشأ أن يبرح مكانه حتى يسد على العامل المتمرد مسالك المعاذير ، فأنشأ يبين موقف كل طائفة من المسلمين من هذه المحنة النازلة بالبلاد ، وإنها جميعا لتمد إليها بسبب من الأسباب ، ولكل دور فى غمارها معلوم :

« يا أبا موسى . . هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التى تزعم أنها هى الفتنة ؟ . . . »

فاستغلق الرد على الأشعرى ، ومضى عبد خير يتم الحديث :

« يا أبا موسى . . إنما بقى أربعة قرون : على بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجبى بها فىء ولا يقاتل عدو . . »

« أولئك خير الناس . . . »

« بل غلب عليك غشك ! . . »

وكان حقا للبلدة أن تعجب لواليها كيف يدعو هكذا بدعوة لا معنى لها غير الإملاء للعصاة فى العصيان ، وللناكثين فى النكث . فقد تبين أن انتقاض زعيمى الثوار على الإمام لم يكن وليد غيرتهما على صالح الرعية ، ولا نتيجة لازمة لحدث أحدثه فحل به خلع طاعته من أعناق الناس ، بل هو ناشىء عن حب التسلط الذى سيطر على أنفسهما وعلى بضعة نفر معهما فتنتهم الأطماع والمآرب الخاصة . . وكان ثمة طائفة من أهل الكوفة تميد بهم مواطنهم ، ولا يستطيعون ثبوتا على ولائهم لأمير المؤمنين بعد هذا التبلبل فى الآراء ، ولا انحيازا إلى أخصامه المناوئين وإن كانت دعوة الثأر التى نادى بها أولئك الخصوم ظلت تخاطب فى نفوسهم النخوة التى تستجيب مسارعة لنصرة المظلوم . . . هذه الطائفة لم تقدم

مبادرة إلى اختيار جانب من الجانبين ، وإنما بقيت ردحاً بمفترق الطريق تصطرع في نفوسها نزعاتها المختلفة . حتى إذا استبدت بهم في النهاية حيرتهم رأوا واجبا عليهم نحو الحق أن يبعثوا من لدنهم فريقا إلى حاضرة الدولة يستقصى لهم ما أحاط بمصرع عثمان وأدى إليه في مواطنه ، عسى أن يروا بعد هذا إلى أين ينتهى خط ذلك الدم الحرام المسفوح . . .

ولـكنهم ما كادوا يشرعون في إنفاذ عزمهم حتى جاءهم الحسن بكتاب الإمام ذلك الذى رسم لهم قصة المقتل ودور كل من دعاة الانتقام فيه ، ونقل به إلى أذهان أهل الـكوفة صورة حقيقية لأمر عثمان جعلت « سامعه كمن عاينه » . . . عندئذ هدأت خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذى يجدر بهم أن يلتزموه ، فوقف بينهم شريح بن هانىء يقول :

« لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به في بيوتنا . . .

ثم ألم بدعوة أمير المؤمنين إياهم أن يناصروه ، فأردف يكمل الخطاب :

« . . . لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه . . »

وكذلك راح التيار يتجه بالـكوفه على خلاف ما أراد أبو موسى له من اتجاه وخرج الرجل من داره ، وقد علم بمحضر سبط رسول الله ، يخب إلى المسجد . ألتلبية نداء إمامه كان ذلك الخروج ؟ . . بل قد بقى عند موقفه ، لا يحيد ولا يتزحزح عنه . وسوف يرينا ألوانا أخرى من عناده وتشبثه بقصده المرسوم . .

ووصل أخيراً منتجع القوم ، مسجد الـكوفة ، وقد التأم الناس زمرا حول الحسن بن على وعمار بن ياسر . إن محياه ليفيض بالبشر ، وإن قدميه لتسرعان به صوب حفيد محمد ، وإن ذراعيه لتنبسطان ثم تضمان ابن ذلك الرجل الذى طالما دعا أهل إقليمه للانفضاض عن رسالته ... من عجب أن يجد أبو موسى بقية من عاطفة بقلبه تـكفى أن يبدى للحسن كل هذا الترحيب !

على أن لحظة المجاملة ولت سريعة ، فأقبل الأشعرى يحدث ابن ياسر في لهجة لم تخل من تهـكم وهو يطوف بأمر عثمان :

« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار ؟ . . . »

فغضب عمار وأجاب :

« لم أفعل . لم تسوءنى ؟ ... »

فآثر الحسن عندئذ أن يقطع حبل الجـــدال بين الرجلين . وأقبل برقته المعلومة ، على الأشعرى ! وبرقيق لفظه يحدثه بنبرة هادئة لطيفة :

« يا أبا موسى ، لم تثبط عنا الناس ؟ . . »

وتمهل به برهة ، ثم استتلى يقول :

« يا أبا موسى . . والله ما أردنا إلا الإصلاح . وليس مثل أمـير المؤمنين يخاف على شىء ...

فضاقت بالرجل مكابرته أو مداورته ، ولم يسعه إلا أن يخفض رأسه مؤمناً على ما سمع ، وإن وسعه فى ذات اللحظة ألا يغفل تذييل جوانبه باستدراك كأنما أبت نفسه عليه أن يسوق ردا خالصاً كله امتثال ! ... قال :

« صدقت ، بأبى أنت وأمى ! .. ولـكن — المستشار مؤتمن ... » .

« نعم » .

« سمعت رسول الله يقول : إنها ستـكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب ! ... »

فهتف به عمار :

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم . وهذه يدى بما قلت » .

« إنما قال لك رسول الله هذا خاصة ، فقال أنت فيها قاعدا خـير منك قائمـــا ! ... » .

فزلزلت سخريته من عزة الوالى المتمرد . وانبعث رجل بالمسجد من أنصار الأشعرى يسب عمارا ويصيح :

« اسكت أيها العبد ! ... أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا ؟ ... »

وكأنما استشعر أبو موسى شجاعته ترتد ثانية إلى صدره بعد مظاهرة هذا النصير ، فعاود الخطاب :

« . . . لقد جعلنا الله إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا فقال : يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وقال جل وعز : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم . . . »

وإنها لدعوة حق أريد بها باطل ما فى ذلك مراء . وإلا فما عسى كان يعنيه الأشعرى من وراء هذا الحديث ؟ . ومن ذا قتل أميره السابق الذى ما زال يدين له بالولاء من بين رجال أميره الجديد الذى يدعوه اليوم أن يندب الناس ؟ . . وهلا عل الرجل هذا الكلام المتكرر المعاد عن التخذيل والقعود ؟ . . إن عمارا ليتوثب به الآن غضبه ، وليثور دمه ناراً حامية فى شرايينه وهو يلق السمع إلى ما يزجيه صاحب الكوفة للناس من تمويه . ولو أفسح له وقته إذن لقام مثل مقامه السالف فى وجه هذا المتمرد ، ولصاح به كصيحته بأمس القريب :

« . . . إن أبا موسى ينهاكم ، أيها الناس ، عن الشخوص إلى هاتين الجماعتين . ولعمرى ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . . قال عز وجل : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله . . وقال : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . »

هذا هو حكم الإسلام حين تفرق فتنة بين أبنائه ، وبه تكلم عمار ورد على إرجاف والى الكوفة منذ أيام . ولقد هم عمار أن يعيد تلاوة النص السماوى على أسماع الناس فى اجتماعهم ذاك بالمسجد دحضا لزعم واليهم ، لولا أن أتيح لهم من بينهم من كفاه مؤونة سوق الاحتجاج ، وتناول منه السلاح الذى يحسن تصويبه إلى الأشعرى المفتون بالخداع . .

أجل ، فقد أقبل فى هذه الآونة الحرجة زيد بن صوحان ، الرجل الذى سمته عائشة ابنها الخالص ودعته لنصرتها أو للتثبيط عن الإمام . أقبل وفى يده كتابها ذاك وكتابها الآخر الذى بعثت به إلى أهل الكوفة تخذلهم ، وإنهما

معاً لحجة قائمة على أن التثبيط عن على ليس اعتزالا للفتنة بل انتصاراً وتشيعا لدعوة الخصوم العصاة . . .

وقام زيد بين الناس فتلا خطاب عائشة إلى شعب بلدته ، ثم أتبعه بتلاوة كتابها الخاص إليه ، وقال بعد فراغه من التلاوة .

« رحم الله أم المؤمنين ! . . أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر فى بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرتنا به ! . . »

فساد الشغب جوانب المسجد ، وتداول اللغط بين موافقة وبين إنكار . من ها هنا صاح رجل بالمتحدث : « يا عمانى ، سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! » . . ومن هناك ثارت فتنة فى وجه الوالى وناصريه حتى أوشك أن يقتتل الناس . وكان أبو موسى بينهم كالضيع ، لا يعرف كيف يثبت بمكانه ، ولا كيف يؤدى الرسالة التى اضطلع بها . . جاهد مراراً ، وكفكفهم مرات ، وما زال صوته يحاول أن يشق له طريقا بين الضوضاء إلى الأسماع :

« أيها الناس ... أطيعونى . أطيعونى تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . . . . »

ومضى يتابع خطابه وإن أوشكت الألفاظ أن تغرق فى غمرة النزاع المشبوب :

« . . . إنا أصحاب محمد أعلم بما سمعنا . . إن الفتنة إذا اقبلت شبهت ، وإذا أدبرت بينت . وهذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجرى بها الشمال والجنوب ، والصبا والدبور . تسكن أحياناً فلا يدرى من أين تؤتى ، وتذر الحليم حيران كابن أمس . . . »

ثم اشتد ، وعلا صوته بدعوة التفريق :

« . . أيها الناس ، الزموا بيوتكم ! . . خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج

من دار الهجرة — ترتق فتقها ، وتشعب صدعها ! . . فإن فعلت فلأنفسها ، وإن أبت فعلى أنفسها ! . . . » .

قريش ؟ . . هذا نوع من الدعوة جديد . كأنى بالعامة حينذاك أمسكوا الأنفاس ، وأرهفوا آذانهم وهم يتدبرون ما يقول . فهى فتنة إذن شبتها قريش ، عليها وحدها أن تصلاها . . الحى المستعلى على العرب وعلى بقية شعوب الأمة الإسلامية بأحسابه وأنسابه آنت اليوم ساعة محنته ، فليقطف العوسج ، وليهو وحده إلى أسحق قرار ! . .

٤

أكانت هذه قضية قريش وحدها أم قضية الإسلام ؟ . .

أبو موسى طالع شعبه برأى يقف حائلا بينه وبين السياسة العامة للدولة ، ويتنكر للأمن الجماعى فيها . خاطب فى الجماهير عاطفتها نحو طبقة الأشراف وقد لاقوا منها ترفعا وصلفا خلال السنوات العشر الأخيرة ملأ قلوب الناس عليها نقمة وموجدة . فلعله استحضر بذهنه هذه العاطفة وهو يسوق لأهل الكوفة رأيه الجديد ، وظن أنه بها كفيل أن يبلغ هدفه . . . كفاه أن يبدى للشعب أنها قضية غرماء ، يتطاحنون فيما بينهم ثم يبوءون فى نهاية الأمر بغنم أو بغرم لهم وحدهم ، وعليهم آثاره . فما للكوفة من وراء هذا النزاع مأرب . وليس يفيدها إن أكلت المتناجزين جميعاً شرة الحرب الأهلية وقضت عليهم معا أو على أحد فريقيهم قضاء لا يبقى منه على شىء ! .

بهذا اللون رسم الرجل صورة التناحر ، فإلى أى مدى كان رسمه يطابق الأصل؟. لو أنه كان خلافا بين طائفتين من جمهور الأمة وعرضها لأنكرت عليه الأصول المرعية فى سياسة الشعوب ومبادئ فن الحكم هذه النظرة الكليلة ، فكيف وهو تمرد صريح أعلنه فريق من العصاة على صاحب الأمر الشرعى فى البلاد ؟ . .

ولكنه خاطب — كما بدا — فى نفوس العامة عاطفتها المتنكرة لقريش ،

الزارية عليها ، ليستطيع من وراء هذا الخطاب أن يجنى ثمرة غرسه الذى تعهده طويلا — ذلك الغرس الذى كانت سياسة التثبيط نواته . فإذا أدبر الناس عن قريش بحزبيها القاعين فى الخلاف الآن ، فثمة حافزله سحر على نفوسهم وسلطان تدفعانهم لهذا الإدبار . وثمة من بعد نتيجة لازمة هى قعودهم عن نصرة الإمام ؟ . .

إن هذا الأسلوب من التفكير ليكاد أن يرينا فى الأشعرى رجلا انتهازيا مداوراً يتوسل إلى غاياته بأية وسيلة على نقيض ما قر فى أذهان المسلمين من سذاجته ، أم قد كان يا ترى عن غير تدبير كأنه خبط عشواء ؟ . . يعسر أن تكون الغفلة وحدها باعثته أو أن نغمض العين عما سلف من خطوات الوالى فى هذا السبيل ! . فكلما تقصى الباحث دعوة الرجل اقترب رويداً رويدا من الإيمان بأنها خطة محكمة متصلة الحلقات وكلما تراكمت فى صدره مكونات هذا الإيمان بدا الأشعرى تحت أضواء تقصيه عدواً لعلى وإن حاول جاهداً أن يضمر العداء خلف نقاب من الخشية على دم الشعب أن يهراق ، أو النأى بالعامة عن البذل من أجل سادتهم الأشراف ، أو تفرده دون سواه بالعلم بالحقائق الغيبية التى أطلعه عليها حديث للرسول مزعوم ! . . أيما حجة ساقها لتأييد دعوته كانت تلقى من يحسن الإصغاء إليها بين سامعيه . وأيما رأى نشره كان حقيقاً منهم بالتدبر ثم بالقبول وخاصة إذا داهن به عواطف الجماهير . ولكن الأنفس المستريبة فى نواياه كانت حرية أيضاً أن تتقبل قوله وهى على حذر منه أبلغ الحذر ، حقيقة أن ترده وتأباه وهى ترى له مغبة واحدة — لو سار عليه الناس — هى انتشار حبلهم ، وإشاعة الفوضى فى الدولة الوسيعة البعيدة الأطراف .

على أنه مضى وخطابه ، يكاد أن يحمل القوم حملا على ما يراه بهذه الدعوة الجديدة التى بثها لتضرب الفرقة بين صفوف الأمة . وراح يعاود تناديه أمام الجموع :

« . . . استنصحونى ولا تستغشونى . وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ، ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها . . . »

فما بلغ من حديثه مبلغه وأوشك أن يبرح مكانه من المنبر حتى صاح به زيد ابن صوحان :

« يا عبد الله بن قيس ! . . رد الفرات عن دراجه ! . . اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ! . . . »

فبانت البغتة فى وجه الأمير . وتلفتت الزمر المحتشدة نحو زيد وهو يتم خطابه، ويده المقطوعة قد ارتفعت تشير إلى أبى موسى فى إيماءة وعيد :

« . . . آلم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنـون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الـكاذبين * » .

وكانت هذه الآيات التى نطق بها لسان التنزيل أبلغ وصف وأصدقه لحالة من اختاروا القعود والتخاذل ، وآثروا النأى بأنفسهم عن دفع الفتنـة ومنعها أن تذيع ، مرتضين من إيمانهم أن يبوئهم مقعد المشاهد دون الانخراط فى الجهاد من أجل إنفاذ التعاليم التى سنها الـكتاب القدسى ، ومن غير القيام بالدور الإيجابى الذى حتمته النصوص السماوية وأوجبته على كل قادر ، التجاريب والمحن وحدها محك إيمانه .

وبقى الحسن خلال ذلك بمجلسه . الله جنبه حتى اللحظة منازعة الرجل المتمرد وكفاه مشقة أن يقهر غلواءه وإصراره ويعفر جبهتـه المستعلية وخده المصعر فى الرغام ! . ولو قد شرع سبط الرسول منذ البدء فيما جاء فيه وبطش بطشه بالوالى المشاق لما لامه على الشدة أحد ، ولـكنه كان امرأ رقيقا كله وداعة ، يتحرج أن يركب العنف ويتوسل به . وما زال يؤثر الترفق ويقدمه على غيره من الأساليب حتى فى ألصق أمر بدولة أبيه وأمسه بحفظ حكمه الذى راحت تنوشه أطماع المنافسين. فلقد خرج من ذى قار وإنه ليعلم أن هذه آخر سفارة يوفدها أمير المؤمنين إلى الـكوفة لاستنفار الناس ، ويعلم أيضا أن إمرة الأشعرى لم تعد لها فى العمر إلا ساعات ثم ينطوى عليها سجل التاريخ ! . . نعم ، فهذا قرظة بن كعب الأنصارى أوشك أن يصبح صاحب الأمر فى البلدة من قبل الإمام بعد أن ضاقت الحيل عن رد أميرها المتمرد إلى الجادة . وقد بعث على مع الحلف كتاباً يثبته ويعزل به السلف عن ولايته يقول فيه :

« . . . قد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر ، الذى لم يجعل الله عز وجل

لك منه نصيبا ، سيمنعك من رد أمرى . وقد بعثت الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعثت قرظة بن كعب واليا على المصر . فاعتزل عملنا مذموما مدحورا ! . . فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن ينابذك . . . »

فهل من ريب فى أن الحسن كان يعلم من أمر هذا الكتاب ما يعلم قرظة ، ثم رأى أن يقدم الحسنى فى معاملة الأشعرى ثم فى حمله فى النهاية على الاعتزال ؟ . . حقيق بطبع سبط الرسول أن يكون هكذا ترفقه ولو بمثل هذا العامل الممعن فى العصيان وفى الإساءة إلى أمير المؤمنين ، وحقيق أيضا به ألا يشتد فى طلب نصرة أهل الكوفة بحق ما يخوله تمثيله الحاكم الأول للدولة وقيامه بتدبير الأمور باسمه . ولكنه فيما يبدو جنح للهوادة ، ورأى أن يترك للناس تدبر الأمر وهو يؤمن أنهم سوف ينهضون رويداً رويدا لتأييده عن اقتناع وإيمان ليس عن خشية وإذعان .

وكذلك انكشفت خبيئة الأشعرى . فلم يغن عنه شيئا تعلقه عواطف الجماهير بل انتكث عليه خيط تدبيره . وإذا صوت ابن صوحان يشق طريقه إلى الآذان ، رافعا ينادى فيهم الواجب والحق وحمية الرجال :

« سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين ! . . . انفروا إليه جميعا تصيبوا الحق ! . . » .

وقام على أثره القعقاع بن عمرو ، هادئ النفس يحدثهم بصوت العقل دون صوت الحماس :

« أيها الناس . إنى لكم ناصح ، ولأقولن قولا هو الحق . . . إنه لابد من إمارة تنتظم الناس ، وتزع الظالم ، وتعز المظلوم . وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء فإنما يدعو إلى الإصلاح . . . »

وتحدث بمثل قوله أيضا سيحان ، ثم أردف يقول :

« . . . هذا أمير المؤمنين يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه . وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين . فمن نهض إليه فإنا سائرون خلفه . . . »

ثم تكلم من بعدهم كثير حتى كاد الرأى أن يجتمع على النصرة والنهوض

فى تأييد الإمام . وأولئك الذين لم يكونوا من أمرهم على بينة ، متأرجحين بين القعود والتلبث حتى تنقشع غيمة هذا التبلبل فى الآراء ، ما عتموا أن استجابوا للدعوة ، وساروا من كل صوب يتهيأون للخروج . . قيل لعدى بن حاتم :

« ماذا ترى ، وماذا تأمر ؟ . . »

فأجاب :

« ننتظر ما يصنع الناس » .

فلما أخبره قومه بنبأ الحسن وما دار بمسجد الكوفة مما تحدث به أولئك الرجال ، لم يتردد فى المسارعة إلى التلبية وقال :

« نحن سائرون ! . . »

على أى حال لم يعد ثمة شك فى تحول التيار إلى غير ما اشتهى الأشعرى . وما موقف عدى إلا صورة من موقف غيره كثيرين . ولكن أبا موسى كان — فيما يبدو — شديد الثقة فى انتصار تثبيطه ، شديد الإصرار على ما هو عليه ، بالغ العناد . خفى عنه أن تخذيله إلى زوال ، وأن توسله إلى هدفه بشتى المعاذير لم يعد يجد له طريقا إلى أذهان الناس ولا إلى قلوبهم على السواء . وإذا كانت كل هذه النذر البادية خلال أحاديث أصحاب الرأى فى الكوفة لم ترده إلى الصواب ، فهو إذن حقا مشاق ، بادى الغل ، كما نعته هاشم بن عتبة يوم أبلغ نبأ سياسته إلى الإمام ! . . .

ونهض الرجل لا يبالى الآن بعاطفة الجمهور ، ولا بهذا الإجماع الذى وحد بينهم جميعاً صفا واحداً خلف على وعلى وفق ما أراده من شعبه . . نهض ثانية يعاود حديث التخذيل كأنما لسانه ليس يحسن من الألفاظ سواه ! . . فأى شيطان يا ترى تلبسه وقاد خطوه ؟ . . . وأى معاملة حقيقة بأن تهديه خيرا من ترفق الحسن وطول صبره عليه ؟ . . غير أن من النفوس البشرية ما تزيده الحسنى شموسا وشكاسة . وكان أبو موسى من هذه الشاكلة التى لا تستجيب للين ولا تسلس قيادها لغير الشدة والقهر . ولو صدقت نظرة فى امرئ لكانت نظرة الإمام لهذا الوالى هى أصدق النظرات . فقد كان يرى الخير فى أن يخلع عنه إمرة الكوفة

فتستقيم له بها الأمور لولا أن رده الأشتر النخعى عن عزمه وهو مخدوع فى ولاء الرجل وإخلاصه . ولو قد عزله الإمام منذ البدء لتجنب كل هذه المناورات ، ولبقى أمامه وقته ممدودا يصاح فيه شأن مناوئيه أو يدفعهم بسيفه قبل أن تستفحل فتنتهم ، وبدلا من ضياعه فى استصلاح نفس الأشعرى الشارد الحرون ! . .

ولكن أوان الترويض فات ، وبقيت لحظة القهر والعنف معلقة كالسيف المرهف فوق رأس المتمرد . فمن عجب أن يكون شفيعه فى البدء هو مخاصمه الآن وجلاده الذى لا يلين . . . إنه الأشتر ، وسيعلمن الأشعرى نبأه بعد حين ! . . .

٥

الأشتر تقاسم نفسه الندم والخجل والغضب الهتاج . فالأنباء ما تنى تأتيه من الكوفة فتمد فى رقعة أسفه ، ويرفع بصره مترددا إلى عينى الإمام فيقرأ فيهما من اللوم ما يزيد شعوره بالخجل حتى ايسارع بالإغضاء ورد نظراته عنه . وهل كفت الأخبار لحظة عن حمل تقاعد الأشعرى وما أخذ به جنانه ومنطقه من خذل على وحض أهل إقليمه على هذا الخذلان ؟ . . . كلما مضت الرسل ثم آبت من البلدة بغير أنصار ولا عتاد كانت أوبتها هكذا تحز فى قلب الأشتر وتكاد أن تفريه وكان دائما يستشعر غب عودتها خاوية الوفاض مما ذهبت فيه ، بمثل طعنة النصل تمزق فؤاده ، ومرارة العلقم على شفتيه . فلقد خانته نظرته فى دخيلة الأشعرى كأنما ضلت فى منعرجاته الملتوية فغاب عنها غشها المستور الكامن فى غورها السحيق . وأخطأه أيضاً توفيقه حين أحسن الظن بصاحب هذه الدخيلة فأمن له ووهبه ثقته . تبدت له حقيقة هذا الرجل على صفحة الغيب لما استشفع له لدن على ، ولما أبقى عليه إمرته ، بل لعله كان يبوئه مصيرا يجعله أمثولة بين الخونة وناكثى العهود والمتنكرين للجميل . ولكن القدر سبق على لسانه كما شاء إلى ما شاء ، فظلت الكوفة ، بشفاعة الأشتر وحدها ، تحت إمرة الأشعرى ، ترد دعوة الإمام وتلوى عليه أمره الكرة بعد الكرة ، وتوفى بالدولة على التمزق . . .

ما أشق على نفسك أن ترى موئل ثقتك يتنمر لك ، ويستجيب لنقيض ما آمنت أنها مستوجبة عليه . لكأنك فى هذه الحال حاضن ثعبان كادت تغوله قرة الزمهرير فلما استشعر الدفء بين ردنيك ذكر طبيعته الخوانة فمد نابه يجزيك عن حسناك بنهشة الهلاك ! . . .

بمثل هذا كان الأشتر يحس ، وبأفدح منه وأبلغ كانت تتعذب نفسه . ليألم وليشقى كل لحظة ليل وكل ساعة نهار . ولئن كان بعض شقوته مرده انتكاث حدسه وخيبة ظنه بذلك الأمير الجاحد المتمرد ، فبقيتها من أجل على ، صاحب الطاعة على المؤمنين ، الذى عز عنه فى الكوفة النصير ، ولقى العصيان والخيانة على يد واليها الغالى فى المشاقة والشنآن حتى أبعد الحدود . . . إن الندم والخجل والغضب العاصف لتعاور كلها نفس الشفيع وتفسد حياته عليه . وإنه ليقضى الثوانى واللحظات متقلباً من شعوره على مثل الجمر ، يوجعه أن تعجز الوسائل عن هداية العاصى إلى محجة الصواب ، فما عاد يصغى لغير صوت هواه وإن زأرت حوله نذر الأحداث . الأشتر يرى نفسه عن هذا الموقف الذى التزمه الأشعرى أول مسئول . وإنه حقا لكذاك . وكم جهد ليتحرر من تبعته تلك بإصلاح الأمور لمولاه فلم تجده محاولاته . حتى إذا رأى الوقت يتسرب من بين يدى سيده وأوليائه كتسرب الماء ، وخشى أن تزيد الأحداث اضطرابا فيعسر استنباط دواء لدائها العياء ، بادر فاستلهم عزمه ، وتدبر أمراً وأبرمه ثم طوى عليه نفسه ، ومضى إلى الأمام يتحدث إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . إنى قد بعثت إلى الكوفة رجلا قبل هذين ، فلم أره أحكم شيئاً ولا قدر عليه . وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدرى ما يكون . . . »

وتمهل يرى كيف يكون جواب مولاه حتى سمعه يقول وإن فى نبراته لرنة عتب وملامة :

« يا أشتر ، أنت صاحبنا فى أبى موسى ! . . . »

« نعم . فإن رأيت ، أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، أن تبعثنى ، فإن أهل

الـكوفة أحسن شيء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفنى منهم أحد ... » .

« الحق بهم » .

فتحقق له ما أراد . الآن سوف يستطيع أن يصلح ما أفسد ، ويجرد الأشعرى من الثقة التى لم يكن لها أهلا ثم يجرعه غصة خذله وعصيانه ! .

وكان الناس ، إذ دخل البلدة ، مجتمعين بالمسجد ، يصغون تارة إلى دعوة واليهم ، وأخرى إلى أقوال الوجوه والسادة ورجال الشعب الذين راحوا يتناوبون الـكلام . وكان الحسن جالساً بينهم ملقياً سمعه ، واسع الحلم كعهده . وعمار قد غالب طبعه الثائر ومزاجه الحاد فاستسلم صابرا لما يدور حوله وقد بدت بشائر التفاف الناس حول على وانفضاضهم عن الأشعرى . .

وازدلف الأشتر فاتخذ مقاماً له بين الناس ، يبين لهم من الأحداث السالفة ما خفى عنهم وغمت عليهم دوافعه ومثيراته . وكان من الطبيعى أن يبدأ بسوأة الجاهلية يهتكها ، ومآثر الإسلام ومحامده يسرد منها وينتظم آلاء فى مثل عقود الزهور ذات الريحان ! . . وكان من الطبيعى أيضاً أن يطوف آونة بخصومه مناوئى الإمام ، وأخرى بأخطاء عثمان ، ولـكنه حين بلغ هذا الشوط من حديثه لم يعدم بين الجموع صوتا ينبرى له فيزجره ويصيح :

« قبحك الله ! ... لأنت كلب خلى والنباح ! ... »

فتقبلها وسكت ، لا لأنه خشى على نفسه مغبة ما قد يثير زاجره الغاضب ، بل لأن القوم أعفوه من مشقة الجواب . فقد ثاروا بالصائح ، وهموا أن يعصفوا به .

عندئذ تسلل الأشتر ، وترك الناس وما كانوا فيه . إن أمامه خطة لا يحتمل إنفاذها المـكث والتريث ، وما للتراشق بالألفاظ والمهاترات جاء ! ...

وغادر المسجد وكان له بالبلدة مكانة مرموقة ، وبنفوس كثيرين من أهليها نفوذ . فما التقى بطائفة من الناس فى ناحية إلا راح يحدثهم حديثه فلا يلبثون أن يميلوا إليه . كلما مر بجماعة استهوى منها نفرا ، أو بقبيلة استلحق بضعة

من رجالها بموكبه ، أو بحشد دعاهم أن يتبعوه . إن له سلطاناً قهاراً على أبناء الشعب جعلهم يسلسون القياد . . .

وعندما كان أبو موسى يعاود تثبيطه وهو على المنبر ، وتثور به آونة فئة من سامعيه أو تؤيده فئة ، كان الأشتر يزحف بكتيبته الشعبية على دار الإمارة ، وهو يهتف بمن خلفه :

« اتبعونى أيها الناس . إلى القصر ! . . . »

لن تجد أقرب إلى نفس الدهماء والعامة من دعوة تناديهم للغض من هيبة رجل يعلوهم قدراً فى النظام الاجتماعى الذى يكونون قاعدته . فانبرم بحالهم حافز للتمرد على الأوضاع ، دافع إلى استباحة الفوارق . وكفى بهم أن يجدوا فرصة تعلو بهم فوق « العالى » وتجعلهم مالكى مصيره . فهذا نصر قلما يتاح مثله ، ولن يتاح ، إلا بهدم الحواجز بين الطبقات وإنها لعصية إلا على معول ثورة أو شغب أو اضطراب بل هو ثأر من التميز الذى رسب بهم فى قاع الدنيا ، وطفا إلى الحافة بمواطنيهم من الأشراف والسادة . أو هو فى حقيقته تنكر لحكم الأقدار ، انتقام منها إذ أقرت هذا التميز وجعلته سنة بين الناس . . . ولن تجد قط امرأ فى هذه الحياة راضيا بقسمه ما دام يرفع عينه فيرى غيره يتبوأ دونه مكانة علية من العلم أو من الجاه أو من السلطان .

فلعل هذه العاطفة كانت بعض عون الأشتر عند الجماهير يؤيدها ما كان من ولائها للإمام . ذلك أن الشعب الذى بقى هادئا طويلا ، يسمع بدعوة عامله التكراء فلا يحرك أصبعا أمام وجهه ، أقبل مسرعا يلوذ بدعوة الأشتر ويتحدر خلفه صوب القصر كما يتحدر السيل . . . عز من قبل محرك العاطفة النائمة والميول الحبيسة وها قد جاء المحرك المثير !

ولم تستعص عليهم الدار ، ولا استطاع أن يردهم عنها جند أبى موسى وغلمانه وما أسرع أن أضحى القصر لقى مستباحا تحت أقدام المغيرين وتفتحت أمامهم مغاليقه ، وأصبحت الكلمة العليا فيه للأشتر من خلال الجماهير . . .

وأسرع بعض الحرس إلى المسجد يحملون إلى سيدهم نبأ نكبته . .

قد كان إذ ذاك يحسب نفسه سيد الموقف ، له الحول والطول وما يظاهره أن يأمر فيطاع . نداء الإمام ، وحديث الحسن ، وخطب الخطباء وضعها كلها دبر أذنيه وسد عنها سمعه . أما دعوته فهى الدعوة ، وأما قوله فهو الفصل وليس لأحد أن يعترضه من قبل ومن بعد . وحين دخل غلمانه كان متسنما المنبر ، يكرر كلامه المثبط ، ويسرد سياسته عوداً على بدء . بلغ به غيه مداه ، ولج فى العناد والمكابرة ، حتى أعيي الحسن الحليم الرقيق أن يستمسك بصبره فمضى يصيح به فى ثورة وهدير :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنح عن منبرنا لا أم لك ! . . . »

ولكن الحرس حسم النزاع . فقد أسرع منهم رجل إلى الخطيب ، مال على أذنه وهمس فيها بشىء جعله يبرح مكانه فى التوكمن أصابه مس لا يلوى ولا يتريث ، ويغادر المسجد وإن بخطوه لمثل نزع النشوان . . .

وعجب القوم ، وساد بينهم لغط الحدس والتخمين . فما عسى قد أصاب الأشعرى فبلبل خاطره ، وأزعجه كل هذا الإزعاج ؟ . لا أحد يدرى ، ولا يستطيع امرؤ منهم أن يمتد به فكرة فيتنبأ بحقيقة الأمر . ولكن القصر ليس ببعيد . وصوت الهرج فيه قد أخذ يتسلل قليلا قليلا إلى أسماع الناس بمتجمعهم فى المسجد . . . وراح الخبر يتكون فى قالبه الأخير حرفاً بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، ويحمل فرحة طروباً إلى القلوب الحميمة ، لقى إذن هذا المنابذ جزاءه فقشر عنه سلطانه ! . . وعاد كما بدأ — إلى حين — فرداً مغموراً بدون خطر ، يمر به التاريخ فلا يلقى عليه عينه ، ولا يتلكأ — إن رآه — لحظة عن المسير ! . . .

وهز عمار بن ياسر رأسه ، كأنما يتدبر حكمة الله التى أبرمت نهاية الطاغية ، وقوضت قلعة اعتداده ، ودكت دكا جبروته . . . هز رأسه وقد انزاح عن صدره ذلك الكابوس ، وقال فى هدوء وإيمان :

« . . . غلب الله من غالبه ! . . . » .

٦

بقيت له الذلة ! . . الرجل الذى كان جباراً مريداً لا يصغى لصوت خيار مواطنيه وأرجحهم رأياً غدا تعنو جبهته ويستذل للغوغاء . فى دقائق قليلة بات قصره مرتاداً لعرض شعبه ، وراحت هيبته فى أكفهم ملهاة . . . عندما تبع غلمانه إلى البيت ، حسبها فلتة غضب ندت بها نفوس الدهماء، ولن يلبث ظهوره بينهم أن يبتعث فى قلوبهم الخشية منه ورهبة سلطانه . ولكن ظنه خانه لما توسط القصر ، ورأى كيف همت الجموع أن تعصف به ، بعد أن حكمها قانون الثورة ، ولم تعد تخضع لشريعة سواه . وحين نجا من عبث المغيرين ، واستطاع أن ينفذ من بينهم إلى مأمن ، بدا له الأشتر النخعى ، شفيع الأمس وديان اليوم ، يفيض وجهه بمقته ، وتتقد من غضب عيناه . وفى انكسار تقدم الأشعرى ، على سيماه من خزيه ومن هزيمته آثار ، وإن بنفسه للاعجا يوشك أن ينطق بمسكنته لو أوتى اللسان . ولكنه قرأ العزم فى قسمات مالك مصيره ، ورأى العنف الذى يزلزل القلب . . .

وصاح به الأشتر ، فى نبرة كصوت القدر ، تقطر حقدا ومرارة :

« اخرج من قصرنا لا أم لك ! . . . » .

فتردد برهة . يا ترى ألا يستجيب هذا الرجل تارة أخرى لداعى المروءة كما استجاب بالأمس ، فيعفو ويشفع ؟ . .

غير أن الأشتر لم يدعه وأحلامه ، بل عاود ثانية زئيره :

« . . اخرج ، أخرج الله نفسك ! . . فوالله إنك لمن المنافقين ! . . »

فبارحته على الأثر كل سجاياه ، وبقيت له الذلة ! . . وأغضى الطرف وهو يجهد ليجد مخرجا من موقفه الضنك ، ثم نطق بصوت واهن ضعيف :

« فأجلنى هذه العشية . . . »

« هى لك ، ولا تبيتن فى القصر الليلة » .

وكان هذا غاية ما يطمع فيه ، فما يسمه البقاء بين ظهرانى « رعيته » بعد هذا الهوان الذى أصابه منها . وليس يأمن — إن بقى — أن يكون فريسة للسخرية والتهكم . . . بل هو لم يلبث ، ولما تنته بعد مهلة الأشتر القصيرة ، أن أضحى نهبا لما هو شر من السخرية وأفدح . فقد اجتاحت قصره زمر من العامة ، كأمواج البحر هدفها مال واليها المغلوب ومتاعه . جاءت تستبيح ما يملك وتهم أن تحتلبه كأنه غنيمة حرب ! . . .

ولكن الأشتر لم يتنكر لعدوه المهزوم لم ينسه غضبه المروءة ونخوة الرجال ، فوقف فى وجوه الجموع الهائجة يردهم عن القصر ، ويحول بينهم وبين ما ابتغوه :

« إنى قد أخرجته أيها الناس ، فكفوا عنه » .

فارتضوا من نصيبهم فى أسلاب الأشعرى بالنصر عليه ، وبنقض سياسته النكراء . وكفاهم الآن غنيمة أن قد هزموه فى نهاية الشوط بعد طول اصطبار ، وحرروا رقابهم من سلطانه . . .

وهدأت حــدة الأمر بعد قليل ، وبدأ العقل يسيطر ثانية على نفوس الجمهور . . . وكان اجتماع المسجد ما زال منعقدا ، والحديث فيه هذه الآونة يؤيد عليا أتم تأييد ، ويدعو الناس بدعوة سفيريه . . .

عندئذ قام الحسن يتحدث إلى الناس ، وقد شهد إجماعهم على نصرة أبيه :

« أيها الناس ، إنى غاد . فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ، ومن شاء فليخرج فى الماء . . . »

فما أصبح الغد حتى التأمت الجموع ، وعجت الكوفة بالنفار آلافا كثيرة ، يستبقون الطريق صوب ذى قار ، على مطيهم فريق وفى السفائن فريق . قد تآمر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولاءهم أثناء تثبيط أبى موسى ، واستمسا كهم بعهد أمير المؤمنين . وكان فيهم غير الأشتر ، القعقاع بن عمرو ، وزيد بن صوحان ، والهيثم بن شهاب ، وحجر بن عدى ، وسعد بن مالك ، وعدى بن حاتم وغير أولئك ومن أشباههم كثير . . . وحين غدت جموعهم على ذى قار تلقاهم الإمام فى طائفة من خلصائه منها ابن عباس ، فرحب بهم وأحسن اللقاء . . .

وكان لا بد أن يبين لهم سياسته ، ليكونوا على بينة مما سينهضون فيه . إن قصة الزبير وطلحة وعائشة بالبصرة قد انتهى لا ريب نبأها إليهم وعلموها كما خطها مداد الحقيقة ، من كتبه مرة ، ومن رسله أخرى ، ومن ألسنة الرواة مرات ... ولكنا لا نحسب أحداً رسمها فأجاد الرسم لم يغفل منها هنة يسيرة كمثل ما رسمها الإمام في قول له :

« . . . فخرجوا يجرون حرمة رسول الله كما تجر الأمة عند شرائها ! . . متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما ، وأبرزا حبيس رسول الله لهما ولغيرهما ، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره . فقدموا على عاملي بها ، وخزان بيت مال المسلمين ، وغيرهم من أهلها ، فقتلوا طائفة صبراً ، وطائفة غدراً . . . فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جره لحل لي قتل ذلك الجيش كله . . . »

ومع ذلك فقد كانت نفسه الصافية تميل إلى الصفح والغفران ، وتود لو استطاعت أن تجنح بعدوه إلى صلح يجنب الإسلام وأهله مصارع السوء ، ويعيد الأمة كتلة موحدة . . . وكما تحدث في صحبه قبل خروجه من الربذة إذ سأله ابن رفاعة عن موقفه من العصاة ، فكذلك تحدث لأهل الكوفة عندما تلقاهم بذي قار ، بنفس المعنى ونفس السماحة التي تأبى عليه أن يحتجن غلا بقلبه على متمرد أو عدو مبين . وقف يخطب جموعهم ولما يستقر بها المقام ، فقال :

« يا أهل الكوفة . . أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم . . وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وباينّاهم حتى يبدأونا بظلم . ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه إن شاء الله . . . » .

فهذه شيمة رجل حريص على الوحدة حريص على السلام . ولو قد صفت نفوس شانئية لأقبلوا سراعاً يفيئون إلى طاعة أنكروها وبيعة نقضوها ، إبقاء على دينهم ودنياهم . فما كان لينفس عليهم شيئاً قط . ولكنهم شاءوا أن يشغبوا

عليه أمره خفقت عليهم شريعته المثلى : « إن شغب شاغب استعتب فإن أبى قوتل ! » . . . وجرحوا إمامته ما استطاعوا سبيلا إلى التجريح وهم يصطنعون من الحجج والمعاذير مالا يستقيم والواقع المشاهد . زعموا تارة أنهم أقروا بها كرها ودون اختيار فألزمهم الحجة بفيض من بيان البرهان أغضوا عنه عيون الأذهان ! . . . وطورا زعموا أنها بيعة غابت العامة عنها وما عنوا إلا الأمصار بل — أغلب الظن — قد عنوا الشام . ولكن برهانه فى هذا حاضر ، وليس يعتسفه اعتسافا ، إنما يسوقه المنطق السليم الذى لا يلتبس بهوى ولا غاية : « فلئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل . ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد أن يرجع ، ولا للغائب أن يختار . . . » .

إن أولئك الذين قاموا يناجزونه لم يتسلحوا قط فى نزالهم بكلمة حق تؤيد قضيتهم وإن تسلحوا بعدة من حديد ! . . وكانت قضيته من قبل ومن بعد ، بادية الرجحان بينة اليسر ، ليس فيها ظل من شبهة . أماهم فقد تخبطتهم الغايات ، وتنازعتهم الأغراض والمطامع ، فركبوا إلى تحقيقها الصعب والعسير . ولو أريد لهم نعت يطابق حالهم فلا يخطئه ، لكان النعت كلمات الإمام حين أراد أن يبين للناس أى الناس حربهم ودفعهم عنه بالعنف حلال :

« . . . ألا وإنى أقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذى عليه ! . . . »

وقد ادعوا ومنعوا فى آن . وأسرفوا طويلا فى المنع وفى الادعاء . ومع ذلك فلم يبادرهم بأداة حربه قبل الاستعتاب وإفساح المدى أمامهم ليرجعوا عن الغى . وعندما تهيأت له أسباب القمع والردع وتجيشت الجيوش تحت ألويته ، استمسك أيضاً بصبره ، وبعث إلى القعقاع بن عمرو — إذ هو صاحب لرسول الله أولى بأن يلين له العصاة — ليستسفره إليهم قبل أن تعصف بهم كتائبه . . .

قال له يأمره أن يرد البصرة فيجهد وسعه أن يتألف بها العصاة عسى أن ينشب الله به الأمر وتجتمع الأمة وحدة منيعة بعد طول تفرق واختلاف :

« الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة » .

فمضى الرجل يتأهب لهذه السفارة التى ليس أكثر منها بركة على الإسلام لو أتت بما رجاه الإمام . وحين أوشك أن يبرح ، وكاد أن يقطع أولى خطوات المرحلة صوب هدفه ، أقبل على عليه يسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ . . » .

فأجاب :

« نلقاهم بالذى أمرت به . فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى . . . »

فسره جوابه ، وطاب نفسا بحكمته وأثنى عليه :

« أنت لها ! . . »

وانطلق القعقاع . . .

غير أنها لم تكن أولى السفارات التى بعثها لذلك الحزب ولا آخرها . بل زخرت الروايات بأشباه لها كثيرة ، منها رسل ومنها رسائل ، راح أمير المؤمنين يسوقها إلى الصاحبين وأم المؤمنين ، يرجو بها وجه الله وصالح الأمة التى ضربت بين صفوفها معاول الهوى الهدامة . كم من مرة لوح لهم براية الأمان فلم يقبلوا منه ، وأمعنوا فى المشاقة واللجاج غاية الإمعان كأنما أغرتهم سماحته بالعناد . وحين حسب أنه ملاق عند عائشه ما أخطأه فى نفسى صاحبيها من التبصر ، ودعاها أن تعود عما جاءت فيه ، وتلزم حجابها وبيتها ، لم يكن يظنها تكابر كمثلهما حتى أتاه خطابها الذى لم تزد فيه عن قولها العجيب :

« جل الأمر عن العتاب ! . . . »

فلو أن رجلا غيره قام مقامه لما تريث بهم كل هذا التريث ، ولما صبر عليهم صبره ، ولقضى فيهم قضاءه الواجب منه فى غلاة العصاة . ولكنه بقى يتلمس الفرص والسوانح ولا يتبين مظنة للتفاهم إلا نهزها عسى أن يتجنب أداء ذلك الواجب الكريه . وكان يعلم أن فى صفهم طائفة لن تستجيب قط لدعوته السمحة

بل قد تثير بقية الحزب على صم آذانهم والمغالاة فى العناد والغى — تلك من آمنت أن سيخطئها النفع الذاتى لو التزمت الجماعة وأقلعت عما غدت فيه من خلاف . ذلك أن أفرادها قد استيقنوا أن الآراب لا تسير فى ركاب الإمام ، وأن من ألق إليه بالزمام حقيق أن يتجرد من أطماعه وما لمثل هذا قاموا يشبون نار الانقسام ...

ومع ذلك فهو على بينة منهم ، ليس يحسن بهم الظن على الإطلاق . وإنما ود لو بلغت دعوته آذان الفئة التى تلوذ بالحكمة لعلها تستطيع أن تقهر هؤلاء على تقبل الصلح ، وعندما بدا له ذات يوم أن يستسفر ابن عباس ، تخير له من يبث دعوة الوفاق فيه إذ هى أحرى أن تلقى عنده مالا تلقى لدن سواه . . . قال له إذ ذاك :

« يا ابن عباس . . لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالثوار ، عاقصاً قرنه ! يركب الصعب ويقول هو الذلول . . ولكن الق الزبير ، فإنه ألين عريكة ، فقل له : ثم يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟ . . » .

تلك كانت نظرته إلى الأمور ، وغيرته على صلاح شأن الإسلام وأهله ، ما توسم فى ناحية خيراً إلا بادر يلتمسه حيث كان . . . وهذه فراسته ، صدقت دائما فى الرجال ، ولنا على صدقها فى الزبير ، من قبل ومن بعد ، أكثر من برهان . . .

دعوة إلى السلام

١

إنه حديث ليل ، مضت عليه الليالى . . . همست به رؤيا عابرة . حين غفوة ، إلى خاطره فصورت له بعض المستقبل . وعندما فتح عينيه ، واستقبل بهما ضياء النهار ، تواردت الحيرة على ذهنه مع الشروق . فمن ياترى ذلك العليل النائم الذى أطلعه الحلم ؟ . . . ومن هذه المرأة التى اقتعدت عند رأسه مكاناً تستطيع فيه أن تحميه ثم لم تفعل ؟ .. ومن كل أولئك الناس المتدافعين نحو المريض وفى عيونهم علائم الغدر والشر السافر ؟ . . .

ليس يدرى « كليب » . لم يكن ذا علم بتأويل همس الليالى فى ضمائر الغفاة . ولو كانَ لعلم ، ولرأى الأحداث — قبل وقوعها — تجرى من بعد فى واقع الحياة بمصداق ما جرت به فى الحلم الغامض . . .

ومضى من حيرة يقص رؤياه ، ويلتمس لها الفتيا الكاشفة عند أصحاب المعرفة والبصائر . ولكنه لم يئو بغير عجبهم منها ، وبقيت له حيرته . وراح طويلا يستنبئ من يعرف ومن لايعرف من الناس ، حضرهم وباديهم ، فى حله وترحاله ، فى سفره واستقراره ، فما أجدى عليه السؤال ولا الاستنباء . . . حتى إذا هم أن يجعل الحلم دبر تفكيره ، وبدأت تنأى به الشواغل ، بادر القدر فجاء بفتياه !...

عندئذ قال له الناس :

« رؤياك يا كليب ! . . . »

وكان ذلك حينما صرع عثمان ، فهذا هو المريض العليل ، ومن غاله وأورده حتفه فأولئك ذوو الشر السافر الذين أبدتهم الرؤيا يتدافعون بغدرهم إليه ولاتردهم عنه — وإن ملكت — صاحبته .. أما المرأة فظلت بعيدة عن عين كليب وعن رأى خاطره ، بنجوى كالسر . تلوح صورتها دائما فى خياله ولا يدرى من هى ولا ما هو « شخصها » فى النساء .

وسارت به الأيام . وأمعنت مواكبها سيراً فى درب الأحداث . وانقضى عهد وجاء آخر على آثاره . وتبدلت بحال حال والمرأة خفية عنه .

ثم انتشرت عند حد الأفق غيمة تكاد أن تحجب وجه الشمس ، سدت منفذ البصرة . فلما تبينها الناس رأوها كتائب مجيشة ، أقبلت من البلدة الحرام يسوقها الزبير وطلحة وأم المؤمنين . وليس مجيئها إلا لخلاف رفعت لواءه على الإمام ، ومقدمات غارة تهم أن تشنها على سلطانه .

وقع من الأحداث بالبصرة ما وقع . وناشتها نكبة تجر نكبة نظم أمرها العصاة . . ثم تكلموا بمنطقهم فلم يشفوا عجب كثيرين من أهليها بذلك المنطق وما احتوى من تبرير . بل اشتبكت على سامعيهم الأمور ، واختلطت خيوطها أنكاثا تاه بينها خيط الحقيقة وضلت عنه النهى والعقول .

كان الحدس وحده سبيل القوم إلى التعرف على الأسباب الخفية وراء هذا الغزو وهذا الخروج ، وطالما قادهم إلى ظلام . وكانت النفوس القلقة تلعب بها الحيرة آونة والريبة آونات ثم لا تأمن إلى قرار . فما يسعها الاطمئنان إلى ذرائع الغزاة ، وليس تستطيع الركون إلى حججهم وقد أبدوا وجها من الأمور لعل غريمهم أن يبدى سواه فلا يخالف به صورة الصواب . فلكل حجة حجة ، ولكل بيان بيان .

وكذلك قد عزم الناس بالبصرة أن يوفدوا من لدنهم سفيراً إلى مقام الإمام ، يعلم منه رده على منطق الخصوم ثم يسير عليهم من بعد أن يزنوا القول والقول ، ويقرعوا الرأى بالرأى فيظهر لأيهما الرجحان .

وقالوا إذ ذاك لكليب الجرمى :

« إن هذا الأمر اختلط علينا يا كليب،فامض إلي على وأصحابه فسلهم عنه . . »

فانطلق وصاحبين له .

لم تكن الشقة عليهم بعيدة ، وليست قط على ناشد حقيقة وإن طالت بها المراحل والمسافات . فما لأشهى من حق وأقرب منه على النفس الصافية تسير قدم أو يركب ظهر . ولا كمثله يهون الصعاب والمشقات . وقد كلف الرجال الثلاثة بنشدتهم فنسوا من أجلها النصب وركبوا إليها جناح العزم ، وإن بقلوبهم لشغفا يجب عن جسومهم متاعبها ويبعث فيها نشاطاً متجددا ، يفيض ولا يغيض ينبوعه .

وبدا لهم أخيراً عسكر الإمام شاعت الحركة فى كل نواحيه . فقد راح الجند يتأهبون أهبتهم لمرحلة أخرى من سيرهم تقرب ما بينهم وبين البصرة . وأخذت رنة السلاح تزحم السكون والأكف تتلقفها للامتشاق أو لتثبيتها فى المناطق . وصهيل الخيل وهدير الجمال يتردد كأنما هى تدعو الفرسان ! . . وكانت الظلمة الخابية تلف الأخبية والخيام ولكنها لا تسترها عن العين ، فما زالت بالغروب خفقة تضىء بعض ضياء . . . وحينما دنا الرسل أقرب الدنو من هذه الساحة ، طالعهم فارس فى وجهه إشراقة ، وعلى ملامحه من الحسن رواء يكسوه جلالا وينحله رجولة . فما وقعت عليه أبصار الغرباء حتى همس كليب لصاحبيه :

« هى والله ! . . . »

فأعدى الرجلين تعجبه ، وهتفا به :

« من يا كليب ؟ . . . »

« أرأيتم إلى المرأة التى كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس العليل فى رؤياى ؟ . . . »

« نعم » .

« إنها بهذا الرجل أشبه الناس ! . . . »

ومضوا وفى أخلادهم تسبح الدهشة . ولكن طرفا من مسارتهم كان قد طرق أذنى الفارس وخال به أنهم عنوه . أو لعله استراب فيهم إذ أنس فى خطامهم ترددهم الغريب ، فما هموا أن يتبعوا الخطوة الخطوة حتى صاح :

« قفوا ! . . »

فثبتوا لا ينثنون . والحق هو أمره بسؤال :

« ما الذى قلتم وقد رأيتمونى ؟ . . . »

« لم نفه بقول » .

« فلن تبرحوا إذن أو تقولوا لى ! »

فدخلتهم منه هيبة هتكت حجب الكتمان التى شاءوا لو ظلت مسدلة على خافية السر . . . وأقبل الجرمى يحدثه برؤياه ، لا يكتم شيئاً ؛ حتى فرغ .

حينئذ انتقلت الدهشة منهم إليه ، وهمس ، كأنما لنفسه ، وهو يدعهم ويمضى لما كان فيه :

« والله إن ما رأيت لعجيب ! . . »

وغاب عنهم فى ظلال الغسق الممدودة .

إذ ذاك انثنى كليب إلى أدنى أهل المسكر منه ، قال يسأله فى خفوت :

« من هذا الفارس ؟ . . »

« محمد بن أبى بكر »

فعقلت الحيرة هنيهة ألسن الصحاب . وجاءت إثرها كراهية غلابة لأمر أولئك القوم الذين خرجوا على طاعة الإمام ، وعصفوا بالبصرة ، وغلبوا عليها بحجة أنهم قاموا فى الثأر لعثمان . أم بقيت ثمة من الرؤيا بقية لم تحققها الأيام ؟...

بل انكشف عن حلمه الغطاء ، وأتت الحوادث دراكا بتأويله . وإن الجرمى ليمضى لغايته صوب على ليعرف من لسانه حقيقة حال أولئك الغزاة العادين وليس به حاجة إلى ماضيه ، ولا إلى استنبائه منطقا يدحض منطقهم ، أو حجة تقرع حجتهم المتسقة . . . فلقد أنبأته الآن رؤياه :

« هى عائشة بنت أبى بكر ! . . . »

ولـكنه مع ذلك سار مسيره يتبعه رفيقاه ، ومايفى حلمه يعاود خاطره كمن قبل — فى اليقظة هذه المرة ! ... فذلك عثمان ، واهن الحول مهيض الجناح ، قد تـكأكأ الغدر عليه فى صور أناس . وهذه عائشة عند رأسه لو شاءت دفعت غائلة الشر وكفتها عنه . . فلأمر رأته لم تعد يداً مكفـكفة ، ولم ترد كوسعها عن الأمير المنـكوب . إنما خلته ومصيره الموجع ، وقضاءه الفاجع . اكتفت من دور الرؤيا بأن تقعد وتشهد حتى مضى القوم إلى الغافى النائم فسلبوه الحياة ، واستلوا عصارتها من هيكله الجاف ! وا كتفت من دورها فى حقيقة الحياة بمثل ما كان فى دنيا الحلم بل هى ها هنا أشد قسوة إذ أعانت على المريض ! . . .

واستأذن رسل البصرة على أمير المؤمنين . وأقبلوا عليه يستخبرونه فما أخفى عنهم هنة مما سلف من أنباء مصرع عثمان والأسباب التى هيأته والحوافز

التى ساعدت عليه . لكأنه بهذا السر كان يفق الجرمى عن تأويل رؤياه ! . . .
وحين أشرف على نبأ معارضيه ، طفق يتحدث عن عمرة طلحة والزبير التى غدت غدرة ! . . وعن غيرة عائشة بنت الصديق التي أغرت دعوة تتوارى خلف عدالة القصاص !.. ومازال يصف من خصومه ما كتموا عن الناس حتى أوفى على أمر الفتنة التى شبوها عليه يريدون بها اجتياح كيانه وهدم بنيانه ، ولو دروا لعلموها محبة حازبة تهم أن تجتاح الإسلام . .

« فتبعتهما ، لكيلا يفتقوا فى الإسلام فتقاً ، ولا يشقوا جماعة . . »

ثم سكت عن بيانه .

وقلب كليب بصره هنيهة على صاحبيه ، وأخرى على الفريق الذى شهد مجلسهم هذا من أولياء الإمام ، وثالثة على محيا هذا الأمير المحسود المظلوم . . إن إشراقه الحق لتتبلج على قسماته وتضىء حوله للنفوس الحيرى سبيلها للهداية . . ما من حاجة الآن لكليب أن يزن حجة بحجة ولا لقومه ، وقد جاء على بفصل الخطاب . .

وهتف بهم بعض الأعوان ، فى همس خافت ، كأن الألسنة تهاب محضر الامام :

« والله ما يريدون قتالهم إلا أن يقاتلوا . وما خرجنا إلا لإصلاح . . . »

وهمس آخرون :

« فقدموا فبايعوا ، رحمكم الله . . . »

فلم يتلكأ الرجلان لحظة عن التلبية ، بعد ما عرفا الحق أين مأتاه ومع من يسير . أما الجرمى فقد تريث ، وبات حائراً أيتابع صاحبيه على ما عقداه أم أولى به الصبر حتي ينقل لقومه نبأ ما رآه ليروا رأيهم فيه .

وفى غمرة حيرته ، سرى إليه صوت الإمام ثابتا ، هادئ الجرس ، خافض الرنين :

« ألا تبايع ؟ . »

فبغت الرجل وعالج الاضطراب الذى ساد كيانه حتى استطاع لسانه أن يجيب على استحياء :

« أصلحك الله ! .. ولكنى رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم .. »

فابتسم له أمير المؤمنين بسمة هونت من اضطرابه وأفاءت على نفسه السكينة ، وقال :

« أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائداً تبتغى لهم مساقط الغيث . فرجعت إليهم ، وأخبرتهم عن الكلأ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب . . . ما كنت صانعاً ؟ . »

« كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلأ والماء » .

« فامدد إذن يدك ! »

ففعل على الأثر ، لم يستطع أن يمتنع بعد وضوح الحق ، أبلج كضحوة النهار ..

وحين آب الثلاثة ، وشارفوا بلدتهم ، وكانوا جميعهم لسان حال للإمام ، ينطقون بمنطقه ، ويسوقون حججه ، واحدة تظاهر أختها ، على أنفس الناس وما كان فيها من تردد وشبهة . فهو امرؤ يحارب الانقسام وينشد السلام ، ظلمه أصحاب الجمل إذ باينوه ، ونكثوا عهد ربهم عندما خالفوه .

وراحت الوفود بعدهم تترى ، وقد بلغتها الدعوة التى نهض بها على ، ونفذت إلى قلوبها سماحته . . . كلما مرت بأرض فيما بين البصرة وبين ذى قار بدوا جموعا تستبطىء المطى ، وتود لو حملتها الريح إلى الرجل الذى نفض عنه غضبته على شانئيه . وقدم العفو والصلح ابتغاء وحدة الوطن الذى كادت أن تغوله عوادى الفتنة ، وتنخر فى بنيانه الشامخ أهواء بنيه ! . . .

٢

كانت خطة على دهاء ... سفارة القعقاع أدنت أصحاب الجمل من حتف معنوى أشد قضاء عليهم من وقدة القتال . فقد بانت الحقائق بها للناس فى ضياء جديد ، واستنارت لهم مناهج التفكير والتدبر . . . ها هو الإمام ليس يسعى لتثبيت حكمه ، ولا للقصاص من خصومه إذ غالبوه وظلموه ، بل سارع يمد بحوم كفه ، فيها صلح وفيها عفو وفيها سلام ، ويهيب بهم من أجل وطنهم جميعاً أن يتلقوها .

ويقبلوا دعوة الصفاء ... إنه ليؤمن خائفهم ، ويحقن دمهم ، ويغضى عما أسلفوه فى حقه من إساءة . إنه لينسى انتفاضهم عليه ، وعبثهم بعهده ، واستهانتهم بهيبته إذ هو أمير نافذ الأمر فيهم ، وواجب الطاعة عليهم . . . لقد تجرد من نزعاته النفسية كل التجرد ، ومن مشاعره نحوهم التى طالما جرحوها بالفعل أو بسقطات الألسن الزارية العيابة . فما لهدف خاص قد هدر وغضب . ولا لمأرب ذاتى كان إليهم مسيره ، وحين تدبر الناس موقفه فى روية وحكمة ، وجدوه كمهدهم به قبل الإمرة ، ومن يوم عرفوه وله فى الحياة العامة دور يضطلع به ، نفس ذلك الذى قال ذات يوم غابر :

« . . . لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا على خاصة . . . »

فكذلك كان أبدا مبدأه وكان شعاره . وهو الآن يعيد من تجرده إلى الأذهان الغافلة ما غفلت عنه . ولو أنه أراد تأديب العصاة ما أعوزته الوسائل ولا أقعدته عنهم . فليس عن خشية إذن دخلت قلبه منهم كان هذا التريث ، وهذه السماحة التى تعز فى النظائر . لا ولا رهبة القتال ردته . إنما قد آثر هذا حرصا على سلامة المجموعة الإسلامية أن يودى بها التناحر ، وإشفاقا على خصومه أن تأكلهم غائلة الحرب ، وليس يضيره قط أن يمهل لهم ليجتنبوا الهلكة . ولقد قال من موطن كهذا سوف يأتى نبأه بعد حين :

« ... والله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى ، وتعشو إلى ضوئى . فذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها . . . » .

فالصلح إذن كان خطة منه لخير ، وعلى دهاء وحكمة . ولو قد رفضه أصحاب الجمل لبدوا فى أعين الرأى العام ساعين لفتنه ، ملبين دواعى الهوى والأطماع الشخصية ، دون داعى الصالح الجماعى ، دع تنكرهم لنداء المروءة ودعوة التسامح . ولو سارعوا إليه يتلقون كفه المبسوطة بالصفاء ، فهى مسارعة إلى لأم الصدع وتوثيق وحدة الأمة ، وهى فى ذات اللحظة مسارعة إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتراف صريح بخطأ نظرتهم القديمة التى نفضتهم عنه ، وإقرار

أيما إقرارا بأنهم أساءوا أبلغ الإساءة إلى من وجبت له عليهم الطاعة ، وجانبوا الحق حين نقضوا البيعة وتنكروا للولاء . . .

ولكننا مع هذا لسنا نستطيع أن نفهم كيف يبادر أولئك القوم لاعتناق دعوة القعقاع ، وإن بين صفوفهم لكثيرين يهيضهم الصلح ويقضى على كيانهم الذى لا يتنسم أنفاس الحياة إلا فى كهوف التنابذ . وحين نعيد إلى الذهن أسماء مروان وابن عامر وأضرابهما من النهازين يسعنا أن نرى كيف سيقوم الصلح على أنقاض آرابهم ومطامعهم . وحين نستعرض هذه الآراب نوقن أنه عسير غاية العسر أن يقروا — مختارين — دولة لن يكون لهم فى توجيه سياستها مثل أنملة ، بل هى قائمة على طلل سيادتهم القديمة ، مؤذنة بانقضاء آمالهم حتى آخر الزمان . فلعلنا إذ نلم بطرف من برم أولئكم بالصلح الذى يسد عليهم منافذ الأهداف الخاصة لا نكون قد تجنينا ولا جانبنا منهج الحقيقة ، ولعلنا أيضاً حين نذكرهم إنما نوردهم كمثال ، فليسوا وحدهم أصحاب ذلك النحو من التفكير .

وعندما نتحرر من ترددنا بعض التحرر ، ونسوق القول ميسوراً ، عارياً عن التقيد بأقدار الزعماء ، لا نلبث أن نلحق بطلحة بعض مظنة وهنة شبهة ، وهل كان قط إلا مفتوناً بالإمرة يركب إليها كل صعب وعسير ؟ . . . إنك لن تغفل أبداً ماضيه فى هذه الناحية ، ولا حتى حاضره الحاضر . ولك أن تستقصى معى كيف غلب عليه ذلك الماضى وساق له الآن فكره فى ذات الطريق القديمة ، فلم يرض له الخضوع للإمام ، بل أبداه أمعن فى مشاقته وخلافه منه من قبل ... كان هذا فى يوم غير بعيد ، من بضعة أيام ، حين بعث على إليه وإلى صاحبه بكتاب يستفيئهما إلى طاعته ، والتزام جماعة المسلمين ، فردا بجواب يقولان فيه :

« .. إنك سرت مسيرا له ما بعده ، ولست راضياً دون دخولنا فى طاعتك . فلسنا بداخلين أبداً ، واقض ما أنت قاض ! . . . »

فهذا رد قاطع ، لا يدع سبيلا إلى التفاهم ولا يحتمل من التأويل إلا الإصرار على ملاقاة الإمام بالقتال بعد العصيان . فإذا أبديا الاستجابة من بعد للصلح والرغبة فى الوئام ولما تنقض على كتابهما إلا أيام ، فإنه إبداء حرى بأن تحوم حوله

الشكوك ، أو قد ند عن تحول أفكار الناس إلى العطف على على وتقدير نظرته ، وخضوع منهما — دون اقتناع تحت ضغط الرأى العام .

على أننا ندع هذا كله إلى حين عندما تحركه الأحداث ، ثم نسير وئيدا فى ركاب القعقاع صوب البصرة وقد بات أهلها فرقاً مختلفة الهوى ؛ بعضهم مع على ، ممن والوه وظلوا على الوفاء له ، وممن وترهم الغزاة فرأوا الثأر لقتلاهم لا يكون فى غير انحيازهم إلى خصوم العادين . . . وبعضهم على على قد استهوتهم دعوة أصحاب الجمل الطلب بدم عثمان ومدهم بالإيمان بها أن نهضت فيها بنت الصديق . . . وبعضهم بين أولئك وهؤلاء أخفت عنهم سبيلهم الشبهات ، وغشى التردد نفوسهم فتركهم حيارى أينحازون إلى هنا أم إلى هناك . هذه الطائفة التى اختلط عليها الأمر أخذ النهج الواضح يبين أمامها قليلا قليلا ، كما ينجاب الضباب فى الضحى ، بعد أن آثرت تلمس الحق فى مواطنه فخرجت ، أفراداً — فى البدء — ثم جماعات ، إلى مقر الإمام تعلم منه ثم تذيع بين قومها ما علمته . وكان فيها من الجرمى أشباه . ومن بعده كثير تحدثوا بمثل منطقه وأغروا غيرهم بالتحدث . . . فليس من عجب لو شهدت الجموع تنحــدر من البصرة لتلحق بعسكر الرجل الذى كشف للناس قلبه ، وأعلن على ملئهم أنه يبتغى السلام .

كانت الأذهان متهيئة بالبلدة للوفاق ، والنفوس فى عمومها راغبة فيه . فليس أحب إلى القلوب من عيش وادع رضى فى ظلال الأمن ، ولا أبغض من محنة تحز الرقاب وتخضب الأرض بالدماء . ولم يكن هذا الشعور ليخفى عن القعقاع ، بل لعله استيقنه وأحس أيضاً نظيره . وحين اتخذ سبيله إلى دار عائشة قبل مسيره إلى الصاحبين كان يخط أول حرف من وثيقة الوفاق وإن لم يمتشق قلما أو يهيئ صحيفة . . . ذلك أن النساء أدنى إلى اجتناب المذابح التى تنصبها الحرب ، أخشى الناس للقتال ، أولاهم بامتثال الدعة والرفق والسلامة . . .

هو لا ريب كان يوطن نفسه لكسب نصير فى مقر قيادة الخصوم — أقوى نصير ! . . ولم يخنه تقديره حينذاك . فقد استقبلته السيدة خير استقبال ، وأقبلت فى اهتمام تصغى إليه . . .

وقال لها بعد قليل :

« أى أمه ! . . »

« أى بنى ! »

« ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ »

« إصلاح بين الناس »

فاطمأن إلى جريان الحديث بالمجرى الذى يشتهيه ، وهتف يدعوها أن تجمع لديها صحبها لبحث الأمر :

« فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى منى ومنهما . . . »

ففعلت فى التو . وجاء الصاحبان وما من أحد منهما يدرى فيم دعوة أم المؤمنين .

وخاطبهما القعقاع :

« إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس . فخبرانى ما تقولان ، أمتابعان أنتما أم مخالفان ؟ . . . »

« متابعان » .

« فما وجه هذا الإصلاح ؟ . . . والله لئن عرفناه لنصلحن . . . »

« قتلة عثمان »

« قتلة عثمان ؟ . . »

« نعم ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن . . . »

من البدء تلك حجة الخصوم وشعارهم فى عصيانهم أمير المؤمنين . أفكانوا يا ترى أولياء دم القتيل ؟ . . . ألهم إلى هذا الطلب سبيل وله من دونهم أسرة وأبناء ؟ . . ومن كانوا العادين على عثمان بين الناس ؟ . .

ذات يوم كتب إليهما على يقول :

« . . ما أنتما وعثمان ! . . هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا فى طاعتى ثم يخاصموا إلى قتلة أبيهم . . . »

ولـكن الواتر — إن عرف ! — والموتور كلاهما ظل خارجاً على الدولة التى تملك أن تدين وتقتص ، فبقيا جميعا — بهذا الخروج — حقيقين بالتأديب والقصاص ! .

وقال القعقاع يرد حجة الصاحبين ، ويضربها بمنطقه :

« قد قتلتما (قتلة عثمان من أهل البصرة !) وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم . . . قتلتم ستمائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذى أفلت فمنعه ستة آلاف . . . فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم — »

فهتفت به عائشة وقد غمها أن ترى نفسها بين أمرين أهونهما شر :

« فتقول أنت ماذا ؟ . . »

« أقول هذا أمر دواؤه التسكين »

وتريث هنيهة ثم عاد يتم حديثه :

« إنكم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء القوم الذين أغضبتم ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هـذا الحدث العظيم . فإذا سكن الأمر احتلجوا . . . »

فلم يعقب منهم أحد على حديثه ، بل راحوا يتفكرون ، ويقلبون رأيه فى روية وإعمال ذهن . لـكأنما كلماته جديدة لم تطلعها من قبل حكمة ولم يفه بها لسان ! . . إنها لتحسن وصف المأزق الذى وقعوا فيه ، وتصف أيضاً دواء دائه . . . ليت الأيام عادت سيرتها الأولى إلى يوم كانوا بالمدينة لم ينقضوا بعد بيعة على ، إذن لسمعوا الحكمة من لسان ذلك الأمير — الذى آثروا عصيانه — حين قال :

« . . . اصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منة ، وتورث وهنا وذلة . . »

ولكنهم لم يصبروا حينذاك . وضاقوا بحكمة الحكيم — أم ترى ضاقوا بإمرته فانتقضوا عليه ؟ — ثم فعلوا الفعلة التى حذرهم ، فماذا — غير الوهن الذى حدثهم عنه ؟ . .

إن الأحداث الآن بصرتهم بصدق نظرته ونفاذ عينه إلى أغوار المستقبل . ولو صدقوه إذ ذاك وصبروا كما أشار لجنبوا الأمة هذه الفتنة التى لم تنلهم شيئاً مما طلبوه أو . . . ادعوه على مسمع من الناس ! . . . فدم عثمان كان وحده حجتهم فى اختلافهم على على ، وعذرهم الظاهر لذلك الخلاف ، ثم ها هم قد أطلوا ذلك الدم ولم يأخذوا من مريقيه ثأره ! إنما جنوا فحسب انقسام جماعة المسلمين وقيام بعضهم يقاتلون بعضهم الآخر ، بينما غاضت قطرات ذلك الدم فى غبـار الصراع ! . . . ها هم بعد أن كان القتلة يحميهم بالمدينة بعض طوائف من العبدان والأعراب ، قد غدا أحدهم تحميه ألوف ، يغضب لهم ألوف ، ثم قبائل شتى تجمعها العصبية لتظاهر أولئك الحماة . . . فلقد أفلت حرقوص بن زهير — وهو أحد أهل البصرة الذين خرجوا فيمن خرج من أهل الأمصار إلى عثمان يطلبون منه الحق وينكرون الجور — ولحق ببنى سعد بعد الوقعة بين أصحاب الجمل رفرسان حكيم فكان وحده الناجى من المذبحة ممن شهد حصار عثمان . وطلبه رجال طلحة فمنعه بنو سعد ، وغضبت له عبد قيس ، وبقى من طالبيه فى أمان . . .

وأردف القعقاع يبين لسامعيه أين يجدون الخير والسلامة :

« . . . إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بثأر الرجل ، وعافية لهذه الأمة . وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر ، وذهاب الثأر . فآثروا العافية يا قوم ترزقوها ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . . . »

وتلبث يرى ما ينطقون به إثر منطقه ، فما عتموا أن بادروه يصوبون نظرته :
« نعم القول ، فقد أحسنت وأصبت . . . ارجع يا قعقاع ، فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . . . »

وكذلك بدت علائم الصلح فى الجو إذ أقر الصاحبان وعائشة عرض الإمام. وأوشكت الأمة أن تسير إلى عهد وئام يضم فرقها المختلفة ، ويوثق عروتها ، ويبدلها طمأنينة وأمنا بالحرب الأهلية التى همت أن تأتى على كيانها الموحد — لو صفت الأنفس وخلصت النيات ! . . .

٣

كانوا ثلاثة . قبلوا الهدنة واستجابوا لدعوة الوفاق . ولكنهم ليسوا وحدهم حزب الجمل بطبيعة الحال . كلما رميت ببصرك وراء عسكر طالعتك وجوه غيرهم كثيرين ، لهم فى إنشاب الخلاف إصبع ، وفى الصلح المرجو رأى لا يوافق رأى الزعماء ، تحدثت عنهم الميول القديمة ، ونضحت بما فى النفوس . وحين لبى رءوسهم نداء الإمام لم يشاوروا وليا منهم ، ولم يصدروا فى التلبية عن جماعة العصاة . . . أفيستقيم لهم نهج الصلح ويسعهم أن يحملوا أولياءهم عليه ؟ . . .

من البدء لاحت الهدنة خدعة كبيرة ، لا لأن الثلاثة إذ قبلوا أضمروا الرفض وأبدوا غير ما يريدون ، بل قد خدعهم عن حقيقة ميول أتباعهم نبأها الساحر وما رجوا وراءها من سلامة وخير فما زالت نفوس الكثرة من رجالهم تميل للقتال ، وتدين بشريعته . وما نشبت دعوة الطلب بدم عثمان تريهم أنها لن تتم إلا بدم . وقد غلب على أذهان أولئك الأعوان ما ظلت أقوال عائشة وصاحبيها تبث فيهم من « تخاذل » على عن الثأر وترفقه بالقتلة حتى لظنوه ضالعاً فى المصرع يشيم مطمعاً فيه ! بل قد سلف منهما ومنها فى حقه زعم يلحق به تهمة القتل بعد الخذل ! . . . أفيسع أصحابهم بعد هذا أن يؤمنوا حقاً ببراءة الإمام ؟ . . .

دون هذا ويلتوى الأمر ! . . . وهاهم أولاء يهرعون إلى الرجلين حين بلغهم ما مشت به الشائعات من نبأ الصلح ، وكلهم موقن أن الحرب هى الدواء . وأقبل منهم رأس الأزد صبرة بن شيمان يقول :

« . . . انتهزا بنا هذا الرجل فإن الرأى فى الحرب خير من الشدة ! . . . »

وقال أبو الجرباء للزبير :

« إن الرأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل أو يصبحوه قبل أن يوافى أعوانه ! . . . »

وصاح كعب بن سور :

« وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم ؟ . . . اقطعوا هـذا العنق من هؤلاء ! . . . »

ويعجب المرء لهذا الصائح كيف امتلأ قلبه هكذا حماساً لنصرة طلحة والزبير حتى ليدعوهما دعوته الملحة لقطع « عنق هؤلاء » وما عنى حين قال إلا علياً يهيج نقمتهما عليه . . . أفأنسى كعب يا ترى موقفه الأول ، وكتابه إليهما يوم أرادا الاستعانة به فى النهوض معهما للثأر لعثمان فأبى عليهما ورد يقول يومذاك :

« إن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ؟ . . وإن يك قتل مظلوما فغيركما أولى به ! ... وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل !.. »

قد نسى هذا فيما يلوح . والأيام دائماً كفيلة بالنفوس ، تميل بأكثرها فلا يثبت منها على مناهجه سوى قليل . ولقد مال ابن سور ميله ، وغدا الآن على قضية الصاحبين أشد منهما غيرة ، وأحرص على إبلاغها أبعد مما يرجوان لها من نجاح ! . . .

وكيفما كانت رغبة الصاحبين فى الصلح وكان الأساس المرتكزة عليـه فإنها رغبة لم يكتماها إذ ذاك ، ولقيت عندهما هوى غير منـكور . ولـكنها كانت دعوة حرية بأن يعوزها فى منطقهما الحرارة التى تبعث فى قلوب رجالها الحماس لها ، وفى أذهانهم الاقتناع بها والمبادرة إلى اعتناقها بغير إمهال . فما بهذه السرعة يمكن حمل الناس على نسيان مزاعمهما السالفة وكل تلك الاتهامات التى جهدا طويلا ليلطخا بها صفحة الإمام . وليس يسيراً على أعوانهما الآن أن يؤمنوا بأن الوفاق هو وحده الخطة المثلى والرأى الذى تهون أمامه بقية الآراء . . .

على أن ثمة عاملا له حسابه فى جنوح طلحة والزبير إلى إيثار السلام على الحرب والمخاصمة هو ما أخذت الأيام تبديه من غزو موارد على فى العدة وفى الرجال .

فقد لبته الكوفة ، وبعثت من لدنها كتائب تلتحق بجيشه ، آلافا من الجند يسعهم الحصر ولكنهم بين كل عشية وضحوة يزيد عديدهم وتدبهم زمر وجموع . وكان أيضاً هناك رجال القبائل المنبثة فى البيد على تخوم البصرة وفيما حولها من أصقاع أولئك هواهم فى الإمام معلوم . وهم أدنى إلى مظاهرته وشد أزره . وحين تتطلع العين إلى الطريق بين البلدة وبين ذى قار لا تعدم أن ترى الوفود تترى لتلحق به ، وتكون مدداً لقواته . ولقد يغلب على الظن آونة أنهم لم يسيروا سيرهم إليه إلا وقد جذبتهم دعوة الصلح ، وعرفوا أن حديث الحرب أوشك أن تصمت عنه الأفواه . ولكنهم عندما تخفق الدعوة ، ويصبح لا معدى عن اشتباك السيوف فإنهم إذن ، ودون ريب ، سيختارون جانبه ، إذ هو المدفوع عن السلم بعنت الخصوم .

وكذلك ليس يسع المرء أن يغفل شأن فريق كبير من أهل البصرة غلبهم على ميولهم الإرهاب الذى سادها فى الأيام القليلة التى شهدت بها غلبة أصحاب عسكر وحكمهم القصير . فهذا فريق يتربص دون ريب بالغزاة وينتظر الدوائر أن تنفتح فى بناء الأحداث فرجة ينفذ منها إلى تقويض دولتهم ، والثأر لكل هذا الدم الذى أراقوه . وهل نسى عدوهم على العبدى وعشيرته ، وركوبهم ابن حنيف بالغدر والمهانة ، والمذبحة التى أشاعوها فى الأمنة ممن ألصقوا بهم تهمة قتل عثمان بعد وقعة حكيم ؟ . . . إن هذا الفريق لحقا شوكة تدمى جنب حزب عائشة ، إذ يؤلف نوعا من جيش سرى لا تؤمن منه الغرة والمفاجأة حين يستعر القتال بين جندهم وجند الإمام . ولقد صدقت فى هذا الشأن قطعاً نظرة أبو الجرباء ، وكان تحذيره الصاحبين تحذيراً أملاه حسن التقدير .

إن هذه العوامل ، لو كانت وحدها ما حمل الرجلين على المهادنة وقبول الصلح ، لكان فى رضوخهما لدعوة الإمام ، وتقبلهما إياها ، خير ما يسعهما أن يقراه مما توجب الحكمة وتفرض السياسة الرشيدة . ولكننا لا نجردها أيضاً من نزعة إلى الصلح ابتعثتها الرغبة فى لأم صدع الجماعة الإسلامية بعد أن خذلتهما الظروف — أو أوشكت — ووضح لهما صدق رأى الإمام فى القصاص لعثمان

وعلاجه أمر قتلته بما كان يوائم حالة الأمن إذ ذاك وحالة الثوار . فالتريث كان وحده الخطة المثلى حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن النفوس ، ويتفرق عن المدينة أهل الأنصار . وبجدواه الآن اعترف الصاحبان ، واعترفا معه بخطئهما حين أبياه . . فقد قالا لمن جاءهما من دعاة الحرب يحضونهما على المبادرة إلى قتال على رداً على ما أسلفناه من حديث :

« ... قد زعم قوم أنه حدث لا ينبغى تحريكه ، هم على ومن معه ، وقلنا نحن : لاينبغى أن نتركه ولا نؤخره ، فقال على : إن هذا الذى أدعوكم إليه شر، ولكنه خير من شر منه . . وقد كاد أن يبين لنا أنه الرأى » .

فلعل بعض مادفعهما أيضا إلى اعتناق دعوة الصلح هو الندم على ما فرط منهما فى حق أمير المؤمنين من اختلافهما عليه فى شأن وضح اليوم أنه كان فيه أبعد نظرة وأصدق فراسة .

ونستطيع بعد هذا أن ندع حديث الجوانح وما ضمت من نوايا خفية فلسنا موكلين بالضمائر ! . . فما لهذا الحديث آخر . وليس الناس إلا نزوة تحركهم إلى هنا ثم أخرى تردهم إلى هناك ! . . وحسبنا لتتم جوانب الصورة التى تنقل لنا تلك الحقبة من تاريخ الإسلام أن نسير قدما إلى عسكر الإمام .

من البدء كان على يبغى الإصلاح ، ويروم تجنيب الأمة شر الفرقة التي كانت لا ريب نتيجة لازمة لدعوة الخصوم المستترة خلف الثأر للقتيل . وحينما سارع بتلك الحفنة القليلة من أعوانه يرود طريق نجد ليقطع السبيل على أصحاب الجمل قبل بلوغهم البصرة ، لم يكن قط يعنى ردهم عن نشدتهم بقوة السلاح ، وإنما بالبيان والحجة الدامغة والبرهان الذى لا ينهض له برهان . وعندما أرسل يستمد أهل الكوفة ، كانت كتبه إليهم لا تكاد أن تستمدهم جنداً بقدر ما تريدهم حكاما يقضون برأيهم فيما شجر بينه وبين الخارجين من طاعته . ولقد ظل وظل رسله يتحدثون بأمر الإصلاح ودعوة الوئام والألفة ، لم يتنكروا لمبدئهم قط ولا حادت بهم عنه حمية النزاع المشبوب .

ومع ذلك فليس مما يشين دعوته أن نجد فى صفوفه قوما كانوا يؤثرون القتال ويودون بجدع أنوفهم لو استطاعوا إليه السبيل ، فما من جماعة فى الدنيا يمكن أن يسودها رأى واحد ، أو تنمحى من رءوسها العقول التى تميزها عن الأنعام والعجماوات . وما من أمر يعرض لأناس إلا رأيتهم ينظرون إليه من جوانب شتى، فتفترق آراؤهم فيه ، أو تتلاقى بقدر اختلاف هذه الجوانب أو اتفاق النظرات . ومن العبث أن نسمى هذه الفرقة الكلفة بالحرب بين أعوان على بالرغبة فى مناوأة سلطانه ورد طاعته ، بل أدنى إلى الحق أن نراها ساعية إلى تدعيم قوائمه وتثبيته والتمكين له أقوى تمكين . ذلك أنها لم تكن تطيق أن تغفر لمناجز مناجزته ، ولا لمخالف خلافه على صاحبها الذى أنزلته من قلوبها منزلة تقارب القداسة ، وكانت ترى فى التسامح ما قد يغرى آخرين كثيرين بمعاودة العصيان ، فالشدة إذن أولى من اللين وأجدى على الدولة من الغفران .

وكان ثمة إلى هؤلاء طائفة يشق عليها الصلح أيما مشقة ، وتكاد أن تستروح منه نذراً تؤذنها بمصير مرهوب . . . أولئك من شهدوا حصر عثمان من المدينة وأهل الأمصار ؛ فظل يحبس عنهم عدالته حتى أنشب القدر فيه غائلته . بالأمس كانوا أصحاب حق ، جاءوه — كقول عائشة ! — « يطلبون العدل وينكرون الظلم » ، فما للنظرة إليهم الآن قد تبدلت بنظرة كأنها إلى نقيض ، وللعطف عليهم من قلب السيدة يغيض ؛ ثم يخلفه على الأثر اتهام كفيل بأن يمحقهم ويسلم أعمارهم إلى يد الموت ؟ . . ثوار الأمس لم يعودوا بعد الفاجعة طلاب نصف ، بل غدوا قتلة وإن لم يشهر أكثرهم عصا فى وجه الشيخ — وإن لم يشهروا جميعا ، إلا واحداً أو بضعة . . ومع ذلك فقد باءوا من عائشة وحزبها بالسخط الذى اتسع حتى ضم فى جنباته كل مناهض لعثمان ، زار عليه ، متبرم بعهده المثير البرم فى قلوب كافة الناس . بقى الاتهام الذى ساقه حزب الجمل مصلتاً على الأعناق يجتز منها ما شاء حين يسعه أن ينتهز سانحة أو غرة تيسر الثأر من عشرات ومئين . وما المذبحة التى أودت بجم غفير من أهل البصرة إلا ناقلة إلينا رأى عائشة وجوابها الجديد على هذا السؤال الذى ما زال يحير الأذهان : « من هم ، وكم هم قتلة عثمان ؟ . . » .

لا ريب أن الصلح المأمول بين الإمام وبين أصحاب الدم ومن زعموا أنهم أولياؤه لن يكون إلا على حساب الطائفة التى شهدت الحصار . فبهذا شهدت المقدمات ، وعنه توشك أن تنجاب الخواتيم . فإذا خشى هذا الفريق دعوة الصلح أن تنجح فقد حقت له الخشية ، وحق له أن يخاف النذر المؤذنة بالمصير المخوف . ولقد كان على يتوقى أشد التوقى أن يدع لأصحاب الجمل شبهة من حجة عليه ، فأبى منذ البدء أن يلوذ بجيشه أحد من رجال القبائل والأعراب والعبدان ممن لعلهم شهدوا الحصر أو أعانوا عليه ، ومع ذلك فثمة فئة منهم قد لحقت به حين تداعى وأخصامه إلى الصلح ، مهما كانت نفيراً قليلا ؛ فلها مشاعرها الخاصة ، ولها رأى كتمته فى السلم المنشود .

أما الإمام فقد سره أن لبى الصاحبان دعوته ، لأن التلبية خطوة إلى دخولهما جماعة الأمة ولأم للانقسام . وبادر يحض أصحابه على التزام الصبر والتريث وامتلاك ناصية الأنفس عن إثارة الشحناء ، فما زال رأيه الكف عن خصومه ، ومدافعتهم بالحسنى والسكون عليهم وهم على حربه ، فكيف وقد أبدوا الرغبة اليوم فى الوفاق ؟ . . وحين قام منهم رجل يسأله عن خطته بعد حديث الصلح ، أجاب :

« الإصلاح ، وإطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ، ويضع حربهم . وقد أجابونى . . . »

وسأله آخر :

« أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل ؟ »

فقال :

« نعم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل »

« . . . وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ »

« نعم ، فالشىء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه »

وقام يخطب رجاله :

« يا أيها الناس . . . املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن القوم ، فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غدا من خصم اليوم . . . »

٤

تحركت كتائب الإمام هذا الجيش الذى خرج من المدينة فى عديد من العشرات ليس بعد و بضع مثين ، قد مضى الآن ترتج له الأرض ، ويدوى الفضاء حوله بصدى خطوه ، متوالى الجرس مرتب النغمة ، كأنما يهتف : « النصر ! النصر ! . . »

ولن يكون نصراً على عتاد وجند ، الأداة الحربية وسيلته . ولكنه ظفر بأهواء الأنفس المنحرفة يمحقها ، ويرد أصحابها إلى الجادة . . . أوشك الحق أن يظفر بعدوه ، وتكون له العقبى وحده . وما السير الآن إلا لتقويض بنيان الانقسام ، وهدم حصنه بعد أن كاد يرفع على أبراجه رايات التسليم !

وكان على بادى البشر كدأبه لم يطف بقلبه التطير . الرجاء الذى استشعره من قبل فى جمع الكلمة ما زال ساكناً بنفسه ، يستبق به الخطا إلى أسوار البصرة ، ويهم أن يرسم له دنيا أخرى يسودها الأمن والوحدة والمساواة . والمبادئ التى اعتنقها منذ صباه توشك أن تثمر طلعها المبارك . غاية الغايات من رسالة الإسلام تتبدى لعينه قريبة ، لألاءة السنا كهذا الضوء الذى راحت الشمس تشعه أمامه وهو يؤم جيشه فتحيل به الصحراء وادياً بسيطاً من نور . . فلهذه الساعة الغراء كان يرنو دائما خياله ويهدف أمله ، ليستقيم من بعد شأن وطنه على السنن الذى خطه محمد بوحى التنزيل .

إن الجنى الآن لدانى القطوف ، قريب من الأنفس النقية لولا أن تعبث به أيدى الشر . أفيحفظه القوم يا ترى نضراً ناضجاً حتى يثين الحصاد أم يسبقهم إليه الشيطان ؟ .

هو من موطن الخطر على حذر ، لا تغفل عينه ولا تنام ، وإنه ليعلم أن للشر دعاة وألسنة أينما كان أناس وكانت حياة . . . حتى فى صفوفه ليس يأمن أن تتسلل بضعة من حزب الشيطان لتقطع طريق السلام . فلو كان له علم بخافية الأنفس لوسعة القمع ، ولما أعياه أخذها بالعنف فتهلك أو تفىء إلى هدى الحق .

وإنه ليعلم أن فى خصومه فريقا مثلهم كهؤلاء يتربصون بالصلح ويتحفزون للردة عليه ! وعندما يقفون هنة فهى ذريعتهم إلى نقض عهد الهدنة الذى لم يبرم ، ووسيلتهم للسعى بالفساد بين الراغبين فى السلام .

ولكنه لا يملك أن يكبح خفى الأهواء . ولا يستطيع أن يعرف بين رجاله أناسا بعينهم يؤودهم الوفاق المنشود ، وإن عرف أن خصومه قد يتملون للخلاف بأوهى الأعذار . . . فالنفس المغلوبة على الأمر من الأمور تبدى الرغبة فيه وهى تبطن الرغبة عنه فهى حرية بأن تعتسف الفرص لنقضه والخروج منه ، ما شاءت إلى تصيد مبررات نسكسها من الشبه والمظنات . . .

مع ذلك فقد فعل ما يسعه للقضاء على تلك الهنات التى قد يتخذها بعض خصومه ذرائع لإفساد الصلح ، ووقف يحـذر أعوانه ، ويتوعد من عساه منهم يكتم فى دخيلته ما يسىء إلى دعوة الوفاق . وكان أولئك الذين خشيهم على السلم أشد خشية ، هم من شركوا فى فتنة عثمان وأعانوا عليه ، فراح يحذرهم نفسه ويقول: « . . . أيها الناس ، إنى راحل غداً فارتحلوا . ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء . . . وليغن السفهاء عنى أنفسهم ! . . »

وقد راح الأمس وجاء الغد المرقوب . ومضى الإمام مع الصبح على رأس جيشه نحو غايته حتى بدت لهم البصرة على قيد النظرة . ونزل بهم الزاوية يتلبث وقتا يعلم فيه : آلقوم مقيمون على عهدهم وما فارقهم عليه القعقاع ؟ . . وعندما شارف البلدة ، وتسامع الناس فيها بنبئه ، لم يعد عديد أنصاره كما جاء بهم من ذى قار ، بل انفلت من أسوار البصرة أقوام يلحقون به مبادرين يدعمون قواته ويشدون أزره بعد أن وسعهم الآن أن يظهروا بعض ما يحسونه من ولاء غلبهم عليه الإرهاب . . .

وشاعت الحركة فى الناس ، وجرت بأرجلهم الحية . . . وتأهبت بكر ابن وائل ، وتأهبت معها عبد القيس تأهب غيرهم ممن عج بهم مكان التقاء الجيشين . وهم رجالها أن يمضوا إلى غايتهم تحت الألوية المرفوعة ويتخذوا مواقفهم فى الصفوف ، فما هو أن خطت بهم قدم حتى بعث شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى يقول :

« . . . إذا خرجت فمل بنا إلى عسكر على . . . » .

فكأنما كانت كلماته صدى لما بنفس عمرو ، ماسمعها حتى استجاب لها لم يتمهل ، وقاد الجموع الزاخرة كرأى رفيقه وجهتها ، منحدراً بها صوب عسكر الإمام ينحاز إلى جانبه ، ويمهد بها قواته .

وشهد الناس إذ ذاك مشهداً لعل الأيام لم تطلع عليهم بمثله منذ عهد الرسول . . . فهذا « زيد بن حارثة » جديد يحمل راية القوم ويكون له فيهم مكان الصدارة كما كانت لزيد راية أصحاب محمد وجنده فى مؤتة ... أو « أسامة » آخر كذلك الذى نصبه الرسول قائداً لجيشه إلى الشام وحاملا للوائه المظفر . . . فقد مشى على رأس بكر وعبد القيس امرؤ لصيق مرقوق ليس بذى حسب ، ولا ماض يتصل بشرف لأجداده رفيع .. هو «رشراشة» مولى ثور يحمل راية القبيلتين ...

حينئذ أحمى الغضب بنفس وعلة بن محدوج الذهلى ، قائد بكر الكوفة ، أن شهد شرف بقية قومه ينتهى إلى عبد مجهول النسب تائه الأصل فى الأصول ، وأن تدفع إليهم رايتهم دون السادة والفتية الأمجاد ، فثار حانقا بابن ثور :

« ضاعت الأحساب ! . ويحك ، أتدفع بعكرمة قومك إلى رشراشة ؟ . »

لقد كان وعلة فيما يبدو يعيش فى الماضى — فى ضباب العصبية الجاهلية ، التى تقيس أقدار الناس بمقياس ثراء الآباء وأمجاد الأجداد — فعم عليه أن يرى شمس الإسلام تسطع خارج فكره القديم ، ذات سنا وهاج ، لا يلقى ظلا من تمايز بين أخوين جمعهما الدين . . . المساواة الآن هى الشرعة ، وهى النهج الذى سنه الله للبشر ينطلقون فيها جميعاً ، سادة ودهماء ، أشرافاً ذوى أصول وأحساب وعبيداً أرقاء . . . رثت اليوم مفاخر الجاهلية وطأطأت رأسها لناموس العدل الاجتماعى فلا فوارق ولا طبقات . ونصب للناس ميزان آخر ، ترجح فيه أقدارهم بغير ما ألفوه من قبل وورثوه . . . فما صدارة إلا لكفاية ، ولا جاه إلا بعمل ، ولا حسب إلا بجهد يقدمه القلب واليد واللسان ! . . .

وتلك بادرة بدرت ذلك اليوم فكانت ناضجة بتهيؤ الأنفس لاعتناق المثل العليا التى سنها التنزيل . جاء أوان تطبيق هذه المبادىء السامية بالفعل بعد بثها

بالدعوة ورسمها بالحروف والقول . . . وإنها لعنوان لـكتاب العهد الجديد الذى يفتتحه الإمام ، ويود بكل قطرات دمه وخفقات فؤاده أن يكون تتمة عصر الرسول لو أمهلت له الأيام .

فلعل ابن ثور حين جاءه تأنيب وعلة واعتراضه قد ذكر ما كان من غضب أصحاب محمد حين قدم عليهم زيداً مرة ، وأخرى ابنه أسامة . ولعله ذكر أيضا كيف استقبل محمد غضبتهم التى لم توججها إلا عصبية للجاهلية بقيت بغضبة أشد منها وقال :

« . . . لقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة . ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة . وإنه لخليق لها ! . . .

وإن رشراشة لخليق وإن توطأت به منازل الجدود ، وتاه حسبه فى غمار المجاهيل ! . . .

وكذلك لم تحرك حمية العصبية ، التى ود وعلة أن يثيرها فى قلب صاحبه ، شيئاً من نفس ابن ثور ، ولا لقيت كلماته صميما لديه ، بل وجده يبعث إليه بجواب يقطع عليه السبيل :

« أغن شأنك ! . . فإنا نغنى شأننا يا ابن محدوج ! . . . »

ومضى بالرجال ، ومولاه على الراية ، إلى عسكر الإمام . . .

وتهاتف الناس وهم يرون خروج هذا الفريق الذى تنطق فى وجوههم الشجاعة ، ويرتسم العزم ، وتبدو علائم الجلد والصلابة :

« الغالب من كان معه هؤلاء ! . . . » .

على أن علياً لم تـكن به حاجة لجند يشد أزره ، ويرجح كفته على كفة خصومه فما رنا لغير الصلح ، وليس يسعى قط لإنشاب قتال . . إنه ليود مخلصاً كل الإخلاص لو انثنت الطائفتان جميعاً عن الحرب ، وأصغوا لصوت الحـكمة عسى الله يلائم الصدع ، ويجمع الـكلمة ويلم الصفوف . . . ولقد أبى فى هذا الموطن الذى رأى فيه جند عدوه عديداً يفوق جنده أن يستمد الناس ، تماماً كما

كان من قبل . . . وها هو يرد عون الأحنف بن قيس ، ويأبى عليه أن يأتيه بقومه مددا ، فكفاه الآن ما لديه ، فما يروم إلا الإصلاح . . .

أقبل الأحنف حين رأى جحافل الإمام تشارف البصرة ، فقابل أمير المؤمنين، ثم قال :

« يا أبا الحسن . . إن قوما بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً تقتل رجالهم ، وتسبى نساءهم . . . »

فعجب الإمام . . . أهى دعوى يا ترى بثها خصومه لتخذيل الناس عنه ، بل لجمعهم فى صفوف مناوئيه حتى يتجنبوا مصيراً فاجعاً لن يتجنبوه إن هو انتصر على أولئك الخصوم ؟ . . وهل لها وأمثالها فى النفوس إلا إثارة الخصومة والمنازعة وإضرام نار الحرب التى عمل جاهداً على تسكين ثائرتها ، وهدم كل ما بناه فى أساس السلم المنشود ؟ . .

والتفت إلى الأحنف يجيبه فى توكيد تشوبه الزراية بهذه الأباطيل :

« ألم تسمع قول الله عز وجل : لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ؟. يا أحنف . . . إنهم قوم مسلمون ، وما مثلى يخاف هذا منه ! . . . »

فهدأت نفس الرجل ، واطمأن باله . وود فى هذه الآونة أن يمد يداً بالنصرة لهذا الذى لا ينضح قلبه بغير الصفاء وخشية الله ، فقال :

« أصلحك الله ! . . أما لئن شئت أتيتك — »

وراح يعرض عليه عونه .

ولكن الإمام كره منه أن ينقض لأجله عهداً قطعه على نفسه للزبير وطلحة بعد دخولها البصرة ، باعتزال القتال هو ومن تابعه من قبيلته والانحياز دون الرمى فيه بسهم إذا نشب بين الحزبين . . . كره نقض العهد وإن كانت له من ورائه قوة وشد أزر ، وقال له :

« وكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ . . »

فأجابه الرجل فى حماس :

« إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم ! . . »

فلم يلق على جوابه بالقبول . . . إنه ليأبى عوناً يأتيه من نكث وهو المفتون بالمثل العليا ، المجاهد فى انتصار مكارم الأخلاق . . .

وقال يسأله بعد قليل :

« فهل أنت مغن عنى قومك يا أحنف ؟ . »

« نعم . »

« فكف من قدرت على كفه . . »

وحسبه هذا منه إذ هو وفاء بالعهد . . .

وهكذا ظلت غيرة أمير المؤمنين على الصلح ، وحرصه الدائب على تدعيم أسبابه بغير انتهاز للفرص لدعم قواته ، ولا عدوان على المبادئ الأخلاقية من أجل إضعاف خصومه ، وإن كان الموطن يوشك أن يكون موطن حرب ترخص فيه المبادئ ، وتصبح الكلمة فيه للسلاح والجنود . . . أما هو فالخلق القويم جنده ، والحق سلاحه — الحق الأمثل الذى لاتشوبه الشبه ، ولا يتغير اتجاه وجهه مع الريح ! . .

٥

قال على :

« الكلام فى وثاقك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت فى وثاقه . . . »

هذه حكمة بالغة ، بقيت علما على وفائه بالوعد ، ونهجا واضحا ألزم الناس هديه ، وحملهم عليه ما وسعه . وليس عهدنا بحديثه مع الأحنف بن قيس ببعيد .

وكانت شعاره منذ راود الصلح خاطره ، ومن البدء راوده — من اليوم الأول الذى أتاه فيه نبأ انقلاب عائشة وصاحبيها عليه . فظل أبداً مستمسكا بكلمته ، لا يمل الصبر ، محاجزا دونها أن تفسدها وقيعة . يبلغها خصومه على أحرف الكتب ، وفى حديث الرواة ممن سمعوه ، وبألسنة من استفسرهم وهو منها فى وثاق شديد . . . ولقد بلغ من حرصه على أداء دعوة الوفاق غير ملتبسة بشبهة إلى الشعب وإلى المنتقضين ، أن كان يتخير رسله ذوى قدمة فى الدين ،

وصحبة برسول الله ، ورأى تتلقاه الأذن بحسن الإصغاء . . . كان من دعاته لها عمار ، والحسن ، وابن أبي بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر أخيه . . وكان سفراؤه لأصحاب الجمل القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وحكيم بن سلامه ، ومالك ابن حبيب . وإنهم جميعا لخيرة . . .

وذات يوم استعان أيضا بصاحب آخر من أصحاب الرسول ، له فى الإسلام شأن وماض معلوم ، ولديه من نبيه بينة قد تهدى القوم . ذلك أنس بن مالك . فلو ذكر الصاحبين لذكرا ، ولو عاد بذهنيهما القهقرى إلى عصر النبي فلربما سمعا من بين غواشى الذكرى صوت محمد يجيء من الغابر ، محذرا إياهما هذه الفتنة الواقعة وما تكشفت عنه من حرب هما أن يشناها على ابن عمه وهما ظالمان له . . . إنه حديث مضى أسمعهما الرسول ، وشهدها أنس يسمعانه من فم الإلهام . ولكنه إذ بعثه إليهما الإمام التوى به عنانه دون القصد . . . ذهب وعاد ولم يقم بما ذهب فيه ـ لم يذكرهما الحديث وعندما سأله على عن نتيجة سفارته قال :

« إنى أنسيت ذلك الأمر . . . » .

أنسيه . . أحقا أنسيه ؟ . . أم أغفله ؟ . . . أم ركن إليهما ثم آثر أن يحتج بالنسيان ؟ . .

ورماه الإمام بنظرة فاحصة يسبر دخيلته . . . ورد عليه فى هدوء رهيب :

« إن كنت كاذبا فضربك الله بها بيضاء لامعة ، لا تواريها العمامة . . . » .

وندع ابن مالك ومصيره ، ينبئنا التاريخ نبأه بعد حين . . . فقد حقت الدعوة عليه ، وأمضى حياته من بعد ملثم الوجه يخفى البرص الذى شاع فيه ! . . .

وكذلك لم تقعد الإمام الوسائل عن استفاءة الصاحبين إلى السلم ، ولم تعوزه الرسل ولا الرسائل . وظل مقيما على وفائه بوعده . وحين نزل البصرة برجاله كانت لهفته على الصلح أشد . فما نحسب إلا أن بعض النفوس بها لم تخل من توجس ، ولم تنمح منها آثار ريبة وأصحابها يشهدون إقبال جنوده الجيشين فى حشود حافلة صوب بلدتهم التى راودها الأمل فترة فى السلام . . . وهل شىء أبعد عن أذهانها من الرجاء فى وفاق يجيء فى ظلال الأسنة المشرعة والسهام

المريشة ؟ . . فلكل كتاب عنوان ... وها هى الجحافل تنطلق إليهما كالسيول وفى خطوها تنطق الحرب . . . وها هى أداة القتال الرهيبة تشارفهم فتشارف معهم أداة مثلها ذات بأس شديد . أفئن ندت هنة عن رجل من فريق فى حق خصومه أليست تكفى أن تؤجج لظى الحرب . فى هذا الوقت الذى توترت فيه الأعصاب ، قبل أن يسع الحكمة تدارك الأمر وكبح المتحفزين للصراع ؟ وهل تؤمن من كل أولئكم شررة تطير فتسعر النار ولما يستقر بعد فى قلوبهم الإخلاص للصلح المنشود ؟ .

فلعل علياً لم يغفل هذه النزعة التى انطوت عليها جوانح كثيرة وهو يقارب أصحاب الجمل ذلك اليوم بقواته . . ولم يغفل معها أيضاً ما يبثه دعاة الوقيعة بين الناس لتوسيع الخرق كى يعز على الرتق ويعيى الراتق . فما أن استقر به مكانه حتى رأى أن يبادر إلى العمل قبل أن تثير النفوس رؤية العدو عدوه يخطر آمنا على قيد ذراعه ومرمى رمحه ، فتلك تجربة شاقة على البشر يعسر أن يطيقها كل الناس ، ومحنة للقلوب التى أفعمتها البغضاء والعداوة ، وإغراء لا يثبت له إلا من كان ذا سلطان غالب على مشاعره وقدرة قهارة تملك نزعاته .

- كان يعلم أن السلم أضحى بعض رأى الصاحبين ، فكذلك نقل إليه القعقاع ، ولكنه من خلجات صحبهم على غير بينة . . وكان يعلم أيضا أن الصلح جرى كلمة على لسانيهما ثم علم القلبين عند الله ، فقديما بذلا له وعدا ونقضاه . . . وإذا كانا اليوم يعنيان حقا السلام فيا ترى كيف إليه السبيل ؟ . . على أى أساس يريدان إقامة صرحه ؟ . . ما هى التفاصيل التى تبرم عهده فتحيله حقيقة واقعة بعد إذ هو مشيئة تختلج فى الصدور ؟ . .

ذلك ما لم يتبد له بعد فى ضوء يكشف الغياهب عن النيات . . . ثمة حاجة به لاستنبائهما بقية شرح بعد الإجمال فلئن كانا أقرا للقعقاع بجدوى « التسكين » — الذى لا بد جاء فى أعقاب السلم — على الأمر الذى قاما فيه لأنه كفيل بتهدئة الأنفس ، عون على قتلة عثمان . . وقبلا أيضاً أن « يبايعا » ، فما أحد يدرى على التحقيق إن كانا يعنيان البيعة على صلح مشروط أم على إمرة الإمام ؟ . . .

اللقاء إذن خير ما يحسم الأمر . ويكشف عما تكن الصدور . . . وهو أدعى إلى ترقيق الأنفس وميلها إلى اللين ، لما قد يثير من ذكريات قديمة عزيزة على المتلاقين تنقشع بها غيوم الخصومة . . .

وكان الزبير قد بدا على رأس جيشه ، تخطر فرسه به أمام الصفوف وهو دارع فى الزرد والحديد ، متقلداً سلاحه ، تياها بماض له فى الحرب عريق ، فما أن بصر به الإمام حتى لانت له أساريره ، وقال لمن حوله من رجاله :

« أما إنه أحرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ! . . »

ومضى إليه من لحظته حاسرا ، بغير درقة ولا درع ، غير ملق بالا لتحذير أعوانه ، وإهابتهم به أن يعد العدة لهذا الفارس الشاكى السلاح . . . مضى مزوداً بالإيمان وحده نحو خصمه الشجاع ، فإذا طلحة أيضاً هناك ، كامل التأهب كصاحبه ، تام العدة ... ودنا منهما أمس دنو وأقربه حتى اختلفت أعناق مطاياهم ، وظن كثيرون أن قد جاء للنزال لولا أن رأوه أعزل . . . ثم راح يحدثهما فى هدوء وعينه تتأجج نظراتها على جندهما المحشود :

« لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، فهل أعددتما عذرا عند الله ؟ . . . »

وأردف وإن بصوته رنة نذير :

« . . . اتقيا الله ! . . ولا تكونا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ! . . » .

فراحا معا يتمرانه النظر برهة من النظر قصيرة تحدثت فى عيونهما خلالها الحيرة . . إنه نفس الرجل ، كأن الأمس لم يذهب عنه ولم يطلع عليه يوم جديد . ذات القلب الراسخ ، والجنان الثبت ، والكيان الوطيد الذى لا تنال منه عواصف الأحداث إنه أعزل . . . حاسر ولكن هيبته غطت هيكله كله بالدروع حتى حوافر المطية ! . . .

والتفت هو إلى الزبير فدعاه إليه ، وانحاز به ناحية بعيدة عن رفيقه يناجيه :

« ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت ؟ . . . »

« أنت ! »

فعجب :

« أنا ؟ . . »

ولكنه عجب كان يشوبه بعض الإعجاب ، فقد كان يكبر فيه الصراحة التى تضع دائما خفق قلبه على طرف لسانه . . .

وأنصت هادئا لرأى الزبير وهو يتابع الكلام :

« نعم أنت . ولا أراك لهذا الأمر أهلا ، ولا أولى به منا ! . . »

« لست أهلا له بعد عثمان ؟ . . »

« نعم . »

فلاح الأسف على وجه على وقال :

« قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك — ابن السوء ! — ففرق بيننا وبينك . . . »

عندئذ ساد بينهما الصمت . . لكأن الزبير شام الحق فى كلمات غريمه فسكن يتدبر . . إن الحديث هاج ادكاره ، ورده إلى عهد غابر كان الصبا فيه غضا ، وكان الشباب ريان كبواكير الزهر ! . . ذاك عهد جمعت فيه بينهما القربى وعطفت القلب على القلب ، ومضت بعده الأيام فوثقت الوشائج وزادتهما ألفة ، إذ وصل الإسلام بين الروحين فى حب الله . . . وطافت به الذكرى فى ماضيه ، وبتلك المحنة التى شهدته ينحاز لابن خاله بعد موت الرسول ويقوم مناضلا عنه ، مدافعا عن حقه فى تراث النبى وإن باء فى سبيله بغضب الصديق ، وإن عصف بهما معا حنق ابن الخطاب فجمع الحطب حول دارهما ليجعلهما طعمة للحريق .. كم للذكريات من يد آسية تمسح حزازات الأنفس حتى لتوشك أن تطهرها تطهيرا من أدران الأهواء . وكم لها على القلوب الذاكرة من سلطان يردها سيرتها الأولى كأنها وليدة لا تعرف الضغينة — لم تطعم لبان الحقد ، ولم تلقم ثدى البغضاء . . .

وبدا الصفاء هنيهة على أساريره . . فلولا أن ثمة حجة لا تكف تعرض له ويمكن أن تثبت فى مجال الجدال للانت عريكته وأسلس قياده إلى ابن خاله . . . أما الآن فإنها تقطع عليه خيط ذكرياته ، وتفىء به ثانية إلى اللجاج فيقول :

« . . . وأطلب بدم عثمان ! . . »

فهز الغضب العاصف نفس على لهذا الادعاء ، وقال بجفاء :

« دم عثمان ؟ . . بل أنت وطلحة وليتماه ، وإنما توبتك منه أن تقيد نفسك وتسلمها لورثة الشيخ ! . . . »

أفيسمه يا ترى أن ينكر هذا الاتهام الذى ساقه إليه الإمام فى غير لبس ولا خفاء فينكر معه ما وقع منه — وشهد به الناس — فى حق الخليفة القتيل من التأليب والتحريض وإثارة أعوانه عليه حتى نزل به القضاء ؟ . . دون هذا بغير شك ويصيبه الحسر ويستعصى عليه الكلام !

وأسرع على يتم حديثه ، لين اللفظ ، بادى الرقة هذه المرة :

« يا أبا عبد الله . . . »

فانتبه الرجل من غمرة جزعه ، وألقى السمع .

« . . . نشدتك الله ، أتذكر يوم مررت بى ورسول الله متكىء على يدك وهو جاء من بنى غنم ، فسلم على وضحك ، وضحكت إليه لم أزده ، فقلت أنت : لا يدع ابن أبى طالب زهوه ؟ فقال لك : صه ! . . إنه ليس بذى زهو ، ولتقاتله وأنت له ظالم ؟ . . »

فأغضى الزبير حتى لأوشك جبينه أن يمس صدره ، وغاض لونه ، ومشى بقلبه الندم كزحف الرقطاء وهو يجيب :

« اللهم نعم . . »

« فماذا تقول ؟ . . . »

« لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه . . . ووالله لأصرفن عنك ! . . »

وغادره ، لم يرد إليه طرفه والأسى يغشى عينيه بدمع التوبة ! . . .

٦

. . . أما طلحة فكان منتفخ النحر ، عاقصاً قرنه كما وصفه الإمام ؟ . .

إن ربوة من الطموح سامقة تحت قدميه ، تكاد أن تناطح به صفحة السماء ! الأعوام الماضية كلها لم تذهب عبثا . ولم تغب شموسها قط عن رجائه . . إنما الأمل كان يسير بين يديه ، على وقع خطاه ، ويعهد له الطريق . وكان المجد السياسى شاغل قلبه وعينيه . هو فى الليل رؤيا حالم ، وفى النهار حلم يقظان ! . . .

وكانت عشرين بل أكثر . أربت عدداً حتى أوشكت أن تصير نصف أيام حياته فى هذه الأرض . . . سنوات من الطموح الدائب كانت عمر آماله ، وكانت الربوة التى اعتلاها إلى هدف غدا الآن فى نطاق العيان وقيد البنان . فكيف يسعه أن يدع هذا البناء الشامخ وينزل — دفعة واحدة — من عليائه ؟ . . كيف يهدم بيديه ما غالب عليه الحدثان حتى استطاع أن يقيمه صرحا باذخا ذاهبا فى السحاب ؟ . . أفيهوى هكذا من حالق بلفظة لوم عابرة يأتيه بها ابن أبى طالب أو بكلمة عتاب ؟ . . .

منذ وضع أبو بكر قدمه على حافة قبره حلم الرجل بالمجد ، وتهيأ أن يتسربل بطيلسانه . فقد كان أحد قلائل من صحب محمد المختارين ، وفرداً فذا ممن قامت على أكتافهم رسالته . وكان أيضاً سيداً فى قريش ذا حول ، لا تطول قدره من بينها إلا قلة ، وذا قربى بالخليفة الأول وثيقة العروة . ولكن الموت لم يأته بهدفه إذ أوصى قريبه لغيره بإمرة المسلمين ففاز بها ابن الخطاب . فلو كان أفضى بها إليه لاستقامت ، ولبلغت شأوها وبلغ شأوه . غير أن ثمة شيئاً احتجز عنه هذا المجد فكان امرءاً فى غمار الناس أو يكاد ، لا ميزة له إلا سابقته . . وكلما راح يتدبر كيف أغفله الصديق من حسابه عند الوصية وقدم عليه سواه ، استشعر الهم ومرت نفسه . فتلك أعوام طويلة من الدأب لإعلاء شأن أمته ورفع كلمة الله كانت أمامه ، غير أنها مضت به فارغة إلا من المنى والأحلام . . .

وهو الآن يعيش أيضاً فى الحلم . ولـكنه حلم تحله حماسه بعض حرارة الحياة ثم أتته الأيام ببعضها الآخر . . كم طالما عابوا عليه شيئا يراه فضلا ويرونه نقيصة وكنظرتهم كانت نظرة الشيخين إليه . . فهو عندهما واسع رحبة الأمانى ، إن أحسن اختيار التعبير وأريد الترفق ، يرى نفسه بغير أعين الناس، وبغير أعينهما هما على الخصوص . وما زال حتى الآن يذكر كيف جبهه أبو بكر بصراحة تؤذيه ، لم تعرف الترفق ولا المداجاة فى الخطاب ، عندما وجده يعترض وينكر اختياره عمر أميراً للإسلام . . . قال له خليفة الرسول حينذاك :

« . . . والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها ! . »

كأنما الاعتداد بالنفس كان شيئا يعاب . . .

وحتى ابن الخطاب كذلك لم يكن أرفق من سلفه ، ولا خيراً له منه . كان يتحدث له بلسان صاحبه ، وبالمعنى الذى تنقله ألفاظه القديمة . ما من رجل فيهما وجد فى اعتزاز طلحه فضيلة تعزز جانبه ، وترفع قدره على أقدار غيره من أصحاب الرسول . كانت العزة فى معجمهما كبرا وعلوا ، وكان الاعتداد صلفا وزهوا . بل قد أوشكا أن يدعوا صفته غرورا يؤخذ به ويلام عليه . . . وما كان به غرور إلا أن يرمى رجل ، يستشعر فى نفسه قدرة على الاضطلاع بالأمور ذات الخطر ، بمثل هذه النقيصة . . .

وها هو اليوم يرى عليا يؤازر الآخرين . . . ولو أنصفو ثلاثتهم لـكان حماسه شفيعا له لأنه حافز قوى يدفعه إلى إحكام تدبير شئون الدولة لو أفضت أمورها إليه . فبقدر الرغبة يكون العمل ويكون الدأب فيه . ولو أنصف الثالث لرآه حقيقاً بالمكان الثانى بعده فى الدولة — على الأقل — إذ كان وحده مفوض عهد عثمان ! . . إن هذه الخواطر التى تموج فى ذهنه ، وهو يشهد الإمام يسير نحوه بعد أن فرغ من حديثه والزبير ، كانت تعده ببعض ما يصلح حجة له فى الجدال القريب . ولم يكن يغفل أن ثمة ثغرة فى براهينه قد تقلبها عونا عليه لا عونا له . ولـكنه فيما بينه وبين نفسه كان يؤمن أنه مخلص فى طلبه بدم الخليفة القتيل

فقد رام عزله ، لم يرم قتله لولا أن غلب السفهاء ومضت بهم الثورة فى غير سبيلها المرسوم من قبل ؛ لأن الثورات كالسيل ، إذا تحدر لم تعد بأحد طاقة على اعتراضه . . .

وبقى بعد هذا أنه شهد الأمة منقسمة على نفسها — أمته التى حلم طويلا بأن يقودها فى مطالع المجد قد فرقت بينها دعوته جيشين عدوين يتصاولان بالسلاح بعد المجادلة والنقاش ! . . إنه لا ينكر أن بضعة من تبعة هذا الصراع تقع على كاهليه ، فلو أخذ برأى على من البدء وتلبث معه حتى يتفرق الناس وتفىء إليهم نفوسهم بعد مصرع عثمان لكان خيراً لهم أجمعين ، ولبقى للدولة تماسكها وظلت وحدتها وثيقة ، ثم بلغ من الجناة وطره . . . ولكنه لا يملك إلا أن يرى فى هذه الفرقة ذاتها حجة له إذ كشفت عن جانب كبير من الشعب لا يدين لعلى بالطاعة . هذا الجانب الذى يرى المبادرة إلى القصاص كان لا شك برما بسياسة الإمام ، برما كذلك بإمرته ، فما يعصيه وهو يواليه . . . وهو أيضاً قوة لها خطرها ، لا يجدر أن يغفل شأنها ، ولا يستهان برأيها أو ينكر حقها فى اختيار من تراه حقيقا بتوسد أريكة الحكم من بين أولئك الذين تشمر نحوهم بالرضاء ولا تمنع عنهم الولاء . . .

وعندما أقبل على عليه ، وهم أن يحادثه ، كان الرجل قد أخذ الأهبة حتى لا تشغله الهيبة ، التى يحسها تقع بقلبه حين يرى ابن أبى طالب ، عما يريد مصارعته عليه ومجادلته فيه . . . وقف يتحفز ، ثابتاً فى مكانه يروض نفسه على رباطة الجأش . . .

وسأله الإمام :

« يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟ . . » .

فبادر من فوره يجيب :

« دم عثمان » .

« قتل الله من قتله ! . . »

أتعريض ؟ . . أعنى على أنه يلصق التهمة به كما رماه بها غيره كثيرون ؟ يكاد هذا أن يكون . فذات يوم قال الإمام فيه :

« . . . والله ما استعجل متجردا للطلب بدم عثمان إلا خوفا من أن يطالب بدمه لأنه مظنته . ولم يكن فى القوم أحرص عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلبس الأمر ، ويقع الشك ! . . . »

ومع ذلك فتلك الحرارة التى أحسها طلحة فى دعوة خصمه ، والتى استشعر معها رجفة بفؤاده إذ صافحت لفظاتها القليلات سمعه، لم تستطع رده عما عزم عليه، بل مضى يقول :

« إنك ألبت الناس على عثمان . . . »

فكان الجواب الذى تلقاه ، وعلى قد طوفت بثغره بسمة إشفاق ، وغطى الهدوء قسمات وجهه وعيناه ترنوان للسماء :

« يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . . »

عندئذ صمت الرجل . لقد كان أولى به أن يسير قدماً إلى بغيته دون التوسل بكل هذه المزاعم التى تبعده عن هدفه ولا تدنيه ، وتضيف وقراً آخر على ضميره الذى أثقله الندم على ما فرط منه فى حق عثمان . . . وحين وسعه أن يلوذ ثانية بالهدوء الذى أوشك أن يعصف به هدوء هذا المظلوم البرىء ، راح يقول بغير تلعثم وفى إصرار عجيب :

« فاعتزل هذا الأمر ! . . . »

« أعتزل ؟ . . . »

« نعم . ونجعله شورى بين المسلمين . فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك . . . »

فهذه هى القضية ؟ . . هذه هى النية الخفية وراء قصة القصاص ؟ . . .

وقال على ولما تختلج فيه جارحة :

« أو لم تبايعنى طائعاً غير مكره ؟ . . . »

« بايعتك والسيف على عنق . . . »

فصابر لم يدع هدوءه ، وقال له :

« ما كنت لأكره أحداً على البيعة لى . . . ولو كنت مكرها أحداً لأكرهت سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة ، أبوا البيعة واعتزلوا فتركتهم . . »

ولم يكن طلحة بحاجة لمن يذكره قصة البيعة ، وما تم فيها ، ومبادرته إلى كف على يسبق إليها الناس بالولاء . لم يكن به حاجة إلى من ينقل له صورة صادقة لذلك اليوم القريب إلى الأخلاد وقد كان هو ممن رسموه وسطروا أحداثه فى سفر التاريخ . . . ولكنه الآن غيره بالأمس . تبدلت به الحال غير الحال . ومالت المشاعر فمال . هذا الصرح الباذخ من المنى والأحلام عزيز عليه هدمه . فلقد أخذ من حياته أعواما توشك أن تكون نصف عمره ، وأوفى به على الغاية اليوم . . . الحلم القديم هم أن يشرق وتسطع شمسه ، وما أعسر على النفس أن تنفض الأكف من أحلام المجد ! . .

فى لحظة غدا الرجل كما وصفه ابن عمه خليفة رسول الله . يجعل أنفه فى قفاه ! . . . الزهو والكبر والاستعلاء سدت دونه مسالك التفكير ، فلم ير أحداً أحق منه بالأمر ، ولا هذا الذى عاهده علانية على الولاء . أم لا فكيف إذن نقض البيعة وحنث فى اليمين ؟ إنما له حجة تؤازر النكث وتقوم ذريعة تبرره ، ونبش الماضى حتى عثر بها فى أطلاله ، ثم نهض يرمى بها وجه غريمه فى اعتداد وخيلاء :

« يا على . . . كنا فى الشورى ستة ، فمات اثنان . . . وقد كرهناك نحن الثلاثة ؟ . . . »

شورى عمر عادت ثانية إلى الحياة ؟ . . . لوح بها طلحة كما يلوح بسيف ، وقد حسبها البرهان الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! . . . لقد يعجب المرء كيف يراها الرجل حجة له تؤيد دعواه اليوم بعد أن دالت فى الغابر ، ولكن عجبه يخف هونا بغير شك إذا تدبر الحال النفسية التى كان عليها طلحة فى هذه الآونة التى حاج فيها الإمام . . . إنه ليتحدث بمنطق من يتصيد الأدلة ولا دليل ، فكانت حجته تلك قشة الغريق ! . . .

ومع ذلك فلنر إلام سوف تسوقنا ذريعته ، وإلى أى مدى تستطيع أن تظاهره وتسند ادعاءه . . . فقد جاء عمر غب الطعنة بشوراه وهو يتحرج أن يوصى بالأمر لامرىء بعينه ، أو يدع الناس يختارون لأنفسهم فتقع بينهم فتنة تؤدى إلى

الانقسام . وكان يخشى كلا السبيلين ، فاختار نهجا وسطا لأمته . وحدد نفرا من خيرة صحب الرسول حبس فيهم خلافته ،ومنحهم وحدهم الحق فى اختيار الخليفة . فكان نهجه هذا ترشيحا وانتخابا فى آن . . .

فمن كان أولئكم الناخبون المرشحون ؟.. ومن بقى منهم فى الحياة اليوم ؟ . . وأيهم أقرب أن يعهد إليه زملاؤه بالأمر ؟ . .

هم الآن ثلاثة سوى الإمام : طلحة ، والزبير ، وابن أبى وقاص . بايع اثنان ونكثا ، واعتزل الثالث . ومن كلا النكث والاعتزال استخلص طلحة حجته المزعومة ! . .

وأول ما ينقض هذا الزعم المعتسف أن شورى عمر كانت وصية نفد الغرض منها بعد أن تمت البيعة لعثمان . فما يسع عاقلا أن يراها خالدة على الزمن تلزم الناس بعد انقطاع عهدهم بصاحبها ، وبعد انتقال العهد منه إلى غيره ، لأن الحق فى الإيصاء غدا لخلفه دون سواه ، ولم يوص الخلف الأمة بشئ . فهى وصية واجبة النفاذ ما بقيت بغير نفاذ ثم تذهب ريحها بذهاب الطرف الذى أوصيت فيه والسبب الذى شرعت له . . فمن عجب أن يبيح طلحة لنفسه تحميلها غير ما تطيق ! . . .

وثانى ما يدحض تلك الحجة ، لو ترفقنا بها وسرنا وزعم طلحة ، أن اثنين بايعا واعتزل ثالث ، فصحت إذن بيعة الإمام بثلاثة أصوات . ولا عذر عليه فى نكث الناكثين ، بل الإثم يلزم من نقض العهد وحنث باليمين ! . . .

ولكنها — كما أسلفنا — حجة من يعتسف الحجة ويتصيد الأدلة ولادليل، والقشة التى يحسب الغريق أنها عاصمته من الغرق ! . . . فما زال طلحة يحلم بالمجد ويجهد لبلوغه من أى سبيل ، وإنه ليمد بصره فيراه دانياً منه لولا هذا الذى يسد عليه المنافذ ويفسد الوسائل . أفما يحق له أن يعمل على تنحيته من طريقه لعل نفحة من الحظ تواتيه فيختاره الناس أو يحتلب هو النفوذ حين سانحة تعن له أو تسوقها إليه الأقدار ؟ . .

وهز على رأسه آسفاً لهذا اللجاج الذى آثره الرجل على المحاجة بالدليل والاحتكام إلي البرهان دون التضليل . وهم يغادر المكان عائداً إلى صفوفه وإن نفسه لحزينة على رفيق ماضيه . فما كان شىء أحب إليه من هدايته وتألف تماسه . . . وماسار مسيره هذا إلا ليستفيئه إلى موطن الحق والوفاء . . . على أنه مع ذلك رأى أن يرد عليه زعمه قبل أن يبرح ، فلعل الله أن يهيء له رشاده . . .

قال له مصابراً ، فى رفق وهوادة :

« ياأبا محمد . . إنما كان ألا ترضى قبل الرضا وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لك غير ما رضيت به ، إلا أن تخرج عما بويعت عليه بحدث . فإن كنت أحدثت حدثا فسمه لي . . . »

فلم يجب بشىء . وهل كان بمقدوره أن يجيب ؟ .

وعاد الإمام — وقد شهد حسره — يعاتبه ، عسى أن يمينه العتاب على نقاشه فالاقتناع من بعد . . وكان عتابا كله مرارة واستنكار :

« . . أليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم ؟ . . أ كان رضا لرسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا ستراً ضربه عليها وتخرجوها منه ؟ . . »

« إنما جاءت للاصلاح . . »

فابتسم الإمام بسمة فيها عجب وفيها زراية :

« يا أبا محمد . . . هى لعمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج ! . . . »

وبعد عنه . . .

وحين بلغ صفوفه ، وسأله صحبه عما انتهى إليه الحديث قال :

« أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحه فسألته عن الحق وأجابنى بالباطل . ولقيته باليقين ولقينى بالشك فوالله ما نفعه حق ولا ضرنى باطله ! . . »

ثم رمى بعينه إلى بعيد . . إلى المجهول الغائب عن رأى العيون والضمائر ، وانثنى بعين تجول فيها دمعة ، وهو يهمس — كأنما لنفسه — بصوت خفيض :

« أما إنه لمقتول . . غدا . فى الرعيل الأول ! . . »

٧

أعن رهبة وضعف وانهيار عزم ؟

كثيرون حسبوا هكذا الأمر — ظنوا حرصه على السلم كان وليد خشية تملكه كلما جال ذهنه فيما حشدوا له من رجال وعدة قتال . . فلعلهم إذن نسوا ماضيه ، وذلك التاريخ الحافل الذى انقضى به وفى كل صحيفة منه سطور خطتها شجاعته ، ورسمت بها صورة له فريدة بين الأبطال ، غاب عنهم ذلك الفارس القديم المقدام ، الذى شهده الزمن فى مطالع الإسلام معلما مجلى لم يبلغ شأوه من قبل ضريب ولا من بعد قرين . أخدعتهم الأعـــوام عن حقيقته فاختفت عنهم وراء ستر النسيان ؟ . . أم قرنوا الظن بتقدم عمره وقد خاض السن التى يلين فيها العزم وتتهافت الصلابة ؟ . أم لا فآثر الدعة والسلامة تأتيانه فى نعومة الحياة ؟ . بلى قد رأوه بأعين حدسهم عدا عليه هرمه ، وركن للتخاذل ، ودبت الشيخوخة إلى عزيمته دبيبها فى ملامحه حتى أصبح وليس له من فروسيته الأولى غير ذكرى تراود الذاكرات . .

وكانوا فى حسابهم مخدوعين ! . . لو استطاعوا نصفاً لأنصفوه . ولـكن ظنهم دفعهم عن الحق ، ومشى بهم عن الغاية . فلم يكن لحسب خطرة من الخواطر العابرة تجول فى الخلد ثم تقر كأن لم يكن لها من قبل كيان ولم يعد بقاء ، بل مضت حديثاً تلوكه الأفواه ولغطاً تبعثه الألسن زراية وسخرية ، فى السر والعلانية . فـكم أرجفوا بوهنه ، وبجبنه ! . . وكم عيروه وعابوه حتى لقد طال ما كان يدفع ويقول :

« . . ومن العجب بعثهم إلى أن أبرز للطعان ، وأن أصبر للجلاد . . هبلتهم الهبول ؟ لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . وإنى لعلى يقين من أمر ربى ، وغير شبهة من دينى . . »

ولـكنهم رأوه قولا لا ينضح بغير المباهاة بماضيه ، والاعتزاز بهمة له غربت فى الغابر . . أما أمسه فذهب إلا قبساً خافتاً كأنه لمح النجم خلف

الغيوم ! . . وأما الحاضر فشمسه مشرقة على آفاق عالم من آمالهم فسيح . إنهم على ثقة منه ، فيما يتصل بهم من دلالاته وأحداثه وما يتصل به . . . وأما الغد فهذه أمامهم بشائره ، كطلع الزهر وبواكيره ، كلما رنوا بالعيون إليها ازدادوا إيماناً بنصر قريب .

لقد كانت الأنباء تأتيهم بخبر رجال يظاهرونه ، شدوا إليه المطى وانتظمتهم صفوفه ، ولكنها جاءتهم أيضاً بنبأ كثيرين تخلفوا عن ركابه وكثيرين خيبوا أمله فيهم فنقضوا عهدهم له باعتزال القتال مؤثرين الانحياز إلى جانب أعدائه عونا لهم وحربا عليه . . . فما كان شيء أبعد عن وهم أصحاب الجمل من أن تواليهم طائفة من رجال الأحنف بن قيس . أما اليوم فقد غدا ما عز على الوهم والتصور حقيقة واقعة . وبعد أن كانوا يرهبون عشيرة الأحنف حتى تألفوه وسعهم ليعتزل بها عن النزاع بوادى السباع ، أصبح الرجل عاجزا عن امتلاك عنان أعوانه ، وانشق عليه منهم فريق كبير التحق بخصوم الإمام . . . هذا أمر لم تخف عنهم أخباره ، بل قد بلغتهم بشراه . فما أن نادى الأحنف قومه إلى الاعتزال حتى نهض المنجاب ابن راشد يهيب بفريقه منهم :

« . . يا آل الرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر ! . . »

وهتف بعده أبو الجرباء :

« يا آل عمرو لا تعتزلوا ! . . » .

وصاح هلال بن وكيع :

« يا آل حنظلة لا تعتزلوا ! . . » .

وكذلك اختلط على الأحنف رأيه ، وجرت الأمور بغير ما شاء ، وبنقيض ما وعد به الإمام .

وقال الرجل يعاتب هلالا :

« أفلا ترى الاعتزال ؟ . . »

« بل مكاتفة أم المؤمنين ! . . . »

فصمت لم يعقب . وأهاب جزينا بمن أطاعه أن يتبعه إلى معتزله فلعل خاطرا

راود ذهن هلال إذ ذاك دفعه أن يغرى شيخه بالعدول عن عزمه ، فقال فى مصانعة وكبرياء :

« أفتدعنا وأنت شيخنا وسيدنا ؟ . . . »

فرماه الأحنف بنظرة ، وأجاب وصوته يقطر المر مع الكلام :

« إنما أكون سيدكم غدا ، إذا قتلت وبقيت ، فأنا الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع . . . ! »

ومضى عنه بمن أطاعه من بنى سعد إلى وادى السباع . . .

كان هذا نصرا بغير شك ، حازه أصحاب الجمل قبيل القتال . فتلك فرقة لها حسابها فى المعركة المقبلة ، كانوا يخشونها على أنفسهم ، ثم زادوا بها الآن نصيرا ومنعه . . أما البصرة فغدت اليوم دار أمان ، يسعهم أن يسندوا ظهورهم إليها وهم مطمئنون بعد أن غادرها أولئك الذين كانوا ذوى هوى مع الإمام . وإذا كان للوفرة أثرها فى ترجيح الميزان فلسوف إذن ترجح كفتهم ، وتشيل كفة العدو لقلة معينه . ولن تشهد الوقعة القادمة غريمهم إلا واهنا بنفره ، يرقون عنه كما يرق الثوب الشفاف ! . . . أما هم فجندهم كثير ، وأما عديدهم فموفور ! . . . .

ثم قد بدت الغلبة الآن إلى أين تميل ، وفيمن منهما تكون . ولو صدقت الأنباء لكان ابن أبى طالب فى عشرة آلاف من الأولياء ينضحون عنه أمام ثلاثين ألفاً أعز وأوفر . فقد خرج من المدينة فى سبعمائة ، ثم تلبث بذى قار حتى صاروا سبعة آلاف ، ثم انطلق بهم صوب ميدان الصراع فزادوا ألفاً أخرى أو ألفين ممن لحق بهم من القبائل الضاربة حول المكان . وأسخى الأنباء قد زعم له جنداً لا يبلغ غير نصف جندهم ، أو أكثر من النصف بقليل . فهلا كان هذا بشيراً لشمسهم بالإشراق ، نذيراً لشمسه بالأفول ؟ . . .

غاب عنهم الصواب فأخطأوا الحساب . أم كان ابن أبى طالب بتقديرهم بأنه للنصر وحده ويسعى إليه ؟ . . لو مشوا معه بدرب عمره خطوة بعد خطوة للقنتهم حياته درسا حقيقا على الدوام بالتذكر ، كفيلا بأن يبديه لهم كما جبله طبعه .

فما هو بالمفتون بالغلبة هياب الهزيمة إن جرعته كأسها دنياه . ولكنه رجل حب الحق بضعة من طبيعته ، وكلفه بنشدانه يأخذ عليه كل مسالك تفكيره . كذلك انقضى به صباه ، وتصرم شبابه ، ومضت عهود الكهولة والشيب . وأولى بهم إذ صاحبوه أزمانا أن يذكروا له هذه السجية التى لم يتنكر لها قط حين فعل أتاه . أم كان يقدم فى باله النصر ، ويتهيأ ليستقبل الفخر يوم الخندق لما وقف يصاول عمرو بن عبد ود وكانوا فى الجاهلية يقومونه بنحو ألف من الفرسان ! . أم شام الغيب فرآه ينطوى على ظفر ينتظره عندما انقض على حصن ناعم من خيبر وقد ترس عن نفسه بباب حتى أصاب الفتح الذى استعصى قبله على أبى بكر وابن الخطاب ؟ .. أم حسب الموت لا بد سيعدوه وقد رقد مرقد رسول الله ليلة الهجرة وكل قريش تظنه محمداً وما منها إلا رجل قد شحذ سيفه وتهيأ أن يرويه بدم هذا النائم فى لفائف الفراش ؟ . .

فيما سلف من سنيه كان يومه صورة ماضية ... صورة لاتنى تتكرر كل مطلع صباح فلا تختلف فى الدقائق التواقه عنها فى سابقاتها قبلها فضلا عن الخطوط البارزة والشكل العام ... ذات المادة ، وذات الألوان ، وذات الأضواء والظلال . كان آنس بالموت من الطفل بثدى أمه ، يسعى مشوقاً إلى غواشيه لا يرهب مأتاه . ويسير تحت ظله أو هجيره ، فى رحابه أو دروبه ما رأى الحق غاية للسير . فلم تكن الشجاعة ثوبا اكتساه إنما بضعة من أعصابه ! . .

ولكنها قريش القديمة عادت تفترى عليه الأكاذيب ، وتجهد لتنتقص منه وتنكر عليه سجاياه . كشأنها بالأمس مع رسول الله ودت أن تخدع عنه الناس . وهى اليوم تريد أن تخدعهم عن الإمام فما خدعت إلا أنفسها حتى لبستبد بها الغرور فتراه على نقيض ما سوف تراه . وليس موعد اللقاء بينها وبينه ببعيد . . .

أما هو فكان راضى البال إذ سلك نهجه المستنير وإن خالفوه ، فقد أوفى ما عليه لله إذ دعاهم إلى الكلمة السواء . إنه لا يطلب النصر بل ينشد الحق ، ولينقبن عنه خاصرة باطلهم حتى يخلص إليه بسن الحسام بعد أن وهن صبره دون حملهم بالحسنى على التزام الجادة :

« . . . والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلنهم مفتونين . وإنى لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ! . . . » .

كم فيهم ممن نفذت إلى قلوبهم دعوته السمحاء ؟ . . بضعة لا تغنى عن البقية ، غير ذات خطر لا تملك شيئاً ولا تقوى على إبرام شىء . حتى طلحة نأى بجانبه وآثر أن يسير وهواه ، ولعله يتشرع للحرب تشرع أولئك المفتونين الذين ضمهم ركابه ، ومضى يتهيأ للوقعة الكبرى يحسبها ورجاله سوف تحسم الأمر وفق ما يشتهون . . .

فلعل الله أن يهدى الرجل كما هدى رفيقه منذ قليل . إن الأمل فى الوفاق لم يغب قط عن قلب على ، ولم يبارح تصوره . حتى فى هذه اللحظة التى أشرعت فيها الأسنة الحديدية وسلت السيوف الظمأى كان ما زال يطمع أن يكون الله قد ادخر للشيخ مخرجا قريبا من الخلاف الذى نفخ فى سعيره . فما أضيق المدى بين الهدى والضلال ، وما أرقه من فاصل ، كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار . . . وإن هى إلى خطوة إلى يمين أو إلى يسار تكتب المصير ! . . .

وكان الإمام يأمل أن تجنح نفس طلحة إلى اليمين ! . . . كلما كر بذهنه إلى ماضى الرجل : وتلك الأيام الأولى من عمر الإسلام التى شهدته يبلو فى الله أحسن البلاء ، رآه أكرم على الله من أن يفرق به شمل الأمة التي كان له بعض الفضل فى تشييد بنيانها الركين ، وزاد إيمانا بأنها محنة موقوتة لن تلبث شدتها أن تزول . . . كان الرجاء فى على يكاد يسبق الحقائق البغيضة ويود لو يحجبها عنه . وكان اهتداء الزبير إلى الجادة يوشك أن يملأ قلبه إيمانا بقرب اهتداء صاحبه وميله عن هواه . أم الزبير كان أهدى بصيرة وآثر من رفيقه عند الله ؟ . . .

تأبى الرغبة إلا أن ترسم للمرء صورة المستقبل الذى يشتهيه ، وكذلك فعلت رغبة الإمام . حبه السلام أفعمه ثقة فى نجاح دعوته إليه ، ويقيناً بتلبية خصومه نداءه الذى سيوثق عرى الوحدة بين فريق الإسلام . ولم يكن شعوره هذا وهما كله ينبعث من الأصداء التى ترددها نفسه النقية ، بل الواقع أيضا أمده ببعض الثقة وبعض الاطمئنان فلقد شهد كيف أسلس الزبير ، فى اللحظة الأخيرة ،

مقاده ونزع عما كان فيه . غدا رجلا غير ما كان ، وفعلت كلمة واحدة بنفسه ما لم تفعل عشرات من الكتب والرسائل طالما حملت له العظة والعتب والملام ، وبضعة من الرسل والسفراء عجزوا عن تألفه ، فى شهور وأيام . . .

وكانت كلمة كأنها السحر . . ليست تلك التى أنبأته بما أنسيه من حديث رسول الله ، بل أخرى فتحت قلبه ونقته حتى أحسن استقبال ذلك الحديث . .
وكان هذا قبيل التقاء الجمعين ، ذلك اليوم المشهود من جمادى الآخرة بساحة القتال إذ ذاك كانت طلائع الزبير لا تنى ترود له الطريق ثم تعود إليه بأنباء تحرك جيوش الإمام . وكم من رائد أتاه ، وكم من نبأ بلغه حتى بدت أجناد على قيد النظرة من البصرة فجاءه النبأ الذى حول تيار أفكاره إلى غير مجراه . . .

أقبل عليه أحد طلائعه يقص ما استقصاه ، ثم قال :

« . . . ثم لقيت عمار بن ياسر ، فقلت له . . . »

فما تركه يتم بقية الحديث ، بل صاح به كالمفزوع :

« ابن ياسر ؟ . . . إنه ليس فيهم ! . . . »

« بلى والله أيها الأمير » .

« والله ما جعله الله فيهم ! . . . »

واعجب أنت مع الشاهد الذى يكذبه غائب عن موطن مشاهداته ! . . . وزد عجبا من الزبير وهو يمعن فى التكذيب والإنكار كلما أكد الرجل صدق نبئه . . . أما الرسول فقد امتلأ حيرة ودهشه من موقف أميره منه وهذا القلق الذى رآه يغشى وجهه لخبر كهذا من عرض الأخبار . وأما الزبير فلم يجد معه التوكيد ، ولم تزحزحه الأيمان ، بل مضى وإنكاره وإن كيانه ليهتز من فرط خوف خفى ملكه فصيره مثل ريشة فى مهب إعصار . . .

وكأنما شاء أخيرا أن يخرج مما أوقعه فيه ذلك الخبر المزعج المخوف فهم يقطع الشك باليقين . . وهتف ببعض أهله ، وصوته تعتريه رجفة تكاد أن تتناثر بها حروف الكلمات :

« اركب وانظر أحقاً ما يقول . . . »

ووقف فى غمرة من فزعة غامرة ينتظر فصل الخطاب . . .

ولكن الذى خشيه هو الذى كان . فما رأى مبعوثه يعود حتى سأله كالملهوف

« ما عندك ؟ . . »

« صدق الرجل »

فبغته الجواب . ونال منه أشد منال حتى صاح ، ثم هاض ، ثم تماسك جهده ومضى يفر فى زحمة الناس . . .

وكان جون بن قتادة واقفا ينظر ، لم يخف عنه شىء من القصة منذ بدأها الرائد ، فقال هامسا لنفسه وهو مشدوه :

« هذا الذى كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه ؟ . . ثكلتنى أمى ! والذى نفسى بيده ما أخذ هذا ما أرى إلا لشىء قد سمعه أو رآه من رسول الله . . . » .

ولقد سمع الزبير حقاً من رسول الله ما خلع فؤاده ، إذ ذكر ، ورده إلى الصواب . سمع بنبأ الفئة الباغية التى ستقتل ابن ياسر فأشفق أن يكون الأجل سوف يوافى فى هذه الملحمة نفس عمار . . وسمع أيضاً كلمات محمد عن قتاله عليا هو ظالم وهذا مظلوم ، فرضى من أمره بالفرار . . .

وكذلك تفتحت نفسه للحق ، وفعلت كلمة عابرة فعلها فيه . . . كلمة واحدة كان لها ما لومضة البرق الخاطف إذ تنير لمدلج بليل فيتبين على سناها معالم طريقة بعد طول تخبط فى الظلام . . . أفما آن أن يصغى طلحة لمثيلة لها ترده عن غيه وتفىء به إلى جماعة المسلمين فيتحقق الوفاق ؟ . . .

ليس هذا على الله ببعيد . فما أقرب المدى بين الهدى والضلالة ، وما أرقه فاصلا كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار ، تحدد المصير فيه خطوة إلى يمين أو أخرى إلى يسار ! . . .


الجمل

١

جو ساج ، وليل داج ، قرت الريح فيه بعد ثورة ، وصمت ما كان من عزيفها الذى شابه عواء الذئاب وزئير الليوث الغضاب . . . الطبيعة الشكلى رقأت دمعها ولاذت بالسكون الحزين ، تكاد تكتم الشهقة والزفرة . وأسدلت على وجهها نقاباً كثيفاً من الظلام يخفى عن العيون الوجيب المكنون . . . والضوء الباهت الذى تخلف عن القمر الغارب كان كالطيف يلون جوانب السماء بخيوط شاحبة من نور كلا نور ، تنشر الظلال كأنها أعلام سبقت موكب الظلام . .

ولكنه هدوء مرسوم موهوم . بدت سماته فى الأراضى الوسنى ، ولاحت آياته على رقعة الأفق النعسان . إنه طلاء . أو هو الجلد الناعم المرقش اكتسته رقطاء . . أما الخبىء فنار حامية فى جوف بركان ، تتحين لحظة اندفاع للاندلاع . لا خباء فى العسكرين كان باطنه كظاهره يشيع فيه الهدوء ، بل كانت قشرة من السلام تغشيه وفيه حمم وضرام . . بل العيون المسلمة جفونها لهدأة النوم قد غمضت أيضاً على توجس . بل النفوس الحاملة بالدعة تجيئها فى أعقاب الفجر قد تنازعت فى أحنائها ملائكة السلم ومردة القتال ...

وكان الرجل من القوم إن خلا بنفسه ينفصل اثنين لهما كيانان : فى أحدهما قسوة المحارب ، وفى الآخر رقة المواطن الوديع . . وكانت الحيرة هى التى تشطره ، تارة مع الرجاء ، وتارة مع الطيرة . فإذا تقاسمه الهم الذى يحالف الحيران ، أسلم عينه للنوم لو أنه استطاع ، أو هام خياله فى وادى حدس تملؤه أشباح من الرؤى والأوهام ، أو مال إلى رفيق يبادله فكرة بفكرة ، ونظرة بنظرة ، ثم تسلمهما معاً يد الوسن إلى الغامض المجهول الذى ستبزغ عليه شمس الصباح ..

لا أحد فيهم حاد به الليل عن التخمين إلى اليقين . كلهم كان من حيرته فى بحر لجى عجاج الأمواج لا يدرى على أى شاطئيه سيكون مرساه . . .

حتى الإمام المفتون بالسلام كان موزعا بين القلق وبين الرجاء ، يود لو ترفقت به وبقومه رحمة الله فأنزلت السكينة عليهم أجمعين : أولياء وأعداء ... وحتى طلحة اللائذ بحد الحسام ، السافر اللدد والخصام ، قد اشتبهت عليه النتائج ، أيصبح وفى يده سيف انسلخ من إهابه أو قر فى قرابه ؟ . . . آية الوفاق التى استجابت لها نفس رفيقه قد زعزعت إيمانه بشبوب نار القتال ، واحتدام الضرام ، تلبيه لدعوة الانتقام . . . بل الزبير أيضاً لم يكن من موقفه على بصيرة . استبان له الهدى فى المهادنة والتزام الجماعة والفىء إلى الطاعة ، ولكنه كان كالسائر على شوك من آراء أعوانه يعوق وصوله إلى مبتغاه الرشيد . . . وعندما حسب أنه سيجد نصيراً له فى أم المؤمنين كان مجاوزاً حدود الواقع الذى تنتهى عنده الثقة فى التفاؤل . فما أقرته السيدة على نظرته الجديدة التى هى توبة بعد حوبة ، بل ردته رداً زلزل فيه الفرحة بنشدان الحق ووجدانه وكادت أن تدفعه إلى جانب الباطل الذى أوشك أن يتحرر من إساره وما كاد . . .

أقبل الرجل عليها فى حياء ، يتخير من الكلام ما يحسن التعبير عن الراحة التى يحسها بعد إذ قابل وحادث الإمام ، فقال صافى النفس خفيف الضمير من وقر ما اجترح وأصاب :

« يا أم المؤمنين . . . إنى والله ما وقفت موقفا قط إلا عرفت أين أضع قدمى فيه إلا هذا الموقف ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! . »

فإن هى إلا نظرة أرسلتها إليه حتى عرفت خبيئته ... لأمر ما توسل الرجل بهذا الحديث الناعم الذى يتبطن بالتوبة ! . . ولغاية يكتمها كان يسوق كلماته لينة ، عسى أن يلقى منها ما يعينه على الكشف عما يخفيه ...

ولكنها لم تترفق به ، ولم تعل له فى الإفاضة بالاعتراف ، بل هتفت وئيدة اللفظ تقطع سبيل الكلام :

« يا أبا عبد الله ... أظنك فرقت سيوف ابن أبى طالب ! ... »

فصمت كالمبهوت . آده هذا الهجوم المفاجئ الذى شنته عليه ، وهذه السخرية المرة البادية من خلال كلماتها الرقيقة وبسمتها التى تفيض بالتهكم .

ولم ينبس بشيء ، بل وقف صامتاً وقد عاجلته سراعا بما جمد اعتذاره فوق شفتيه :

« . . . إنها والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد . . . ولئن فرقتها فقد فرقها رجال قبلك يا أبا عبد الله ! . . » .

غير أنه كان أمراً بعيداً عن الجبن والخشية ذلك الذى دفع الزبير إلى اختيار الموقف الجديد وإن لاقى من ابنة أبى بكر الزراية . فكم تنكر للحق الناس ، وكم استقبلوه بالعيون العشواء لا ترى فيه النور لأنها انطوت على ظلام وقتام !...

وندع الرجل وما أصبح فيه ، قلقاً قد لعبت بقلبه التوبة المطهرة وعبثت بنفسه الريب المحيرة ، يطوى ليله ساهر الجفن تذود الكرى عنه أفكاره ثم لايفقد الرجاء قط فى أن يأتيه الصبح القريب بما قد يضفى على ضميره الهدوء والصمأنينة . أولم يعلم أن المتمسك بالحق أثناء فتنة كمثل القابض على جمرات النار ؟ . . .

بلى قد علم فبقى على رأيه ما وسعه البقاء ، وكمثله كانت طائفة رأت الحق حيث كان فى جانب الإمام ولكنها لا تملك أن ترد نوازى الشر أن تعبث به وتعوض أركانه فأسلمت الأمر إلى يد القدر تنسج مصيره كما تشاء : سلما مجزية أو حرباً عادية باغية . . . وكان ثمة طائفة أخرى دانت بالباطل وانساقت له وهى موقنة أنها إنما تظاهر الصواب وتنضح جاهدة عنه ، تلك ساء ما تراه . . . أما الثالثة فأصحاب البهتان تلبسوا بالوزر والضلالة ، وضح أمامها النور اللألاء فآثرت اللياذ بالظلمة العمياء . وإنك لتسمع طرقا من أنبائها بعد حين ، عندما ينجاب الغبار عن حلبة القتال مخلفا على أديمها جرحى وشهداء . ولكنك قبل الوقعة المقبلة لن تسمع لها نأمة ولن يسرى إلى أذنيك منها صوت لأنها رجال ليل ، يعملون فى الخفاء مستترين بسجف الظلام وغفلة النيام ، رواق المساء مسبغهم كأنهم خفافيش ! . .

أولئك كانوا أعداء على وأعداء أعدائه على السواء . بل هم عدو الأمة والدين . الحفنة التى ليس لها من حياة إلا فى الفرقة ، بين مسيل الدم ومهوى الأشلاء .

غايتهم الذات يروون غلتها من أى سبيل . وهدفهم أشخاصهم التى استهوتها الدنيا يسعون إلى إشباع نهمها من الحظوظ والمآرب ، وما كانوا قليلين حينذاك . . .

ما كانوا قليلين لو حسبنا كل ذى هوى فى إنشاب القتال كى ينال طعمة عاجلة ، أو يحقق مطمحاً قديماً عز عليه من قبل تحقيقه ، أو يسترد جاهاً فقده إذ دالت دولة عثمان فعلم أن لا مكان له فى دولة الإمام التى لا تعرف التحيز ولا تستهدف خير أفرادها إلا وهم كيان وثيق العرى ولا تراهم فرادى مفرقين . كل أولئك كانوا دعاة القتال والتفرق ، ود الواحد منهم لو استطاع أن يشب نار الحرب كما يشبها فى هشيم . وغيرهم أيضاً فرقة موتورة وأخرى واترة ، هذه شركت فى الثورة التى أودت بحياة الخليفة القتيل فخشيت إن كان صلح أن تقوم دعائمه على رقابهم التى سيحتزها القصاص ، وتلك وترها الإسلام إذ غزا قلوبها وأراضيها فأسلمت على ضغن ، وراحت تصانعه وتصانع سلطانه عسى أن تجيئها لحظة الثأر المرقوبة ، ذات يوم قريب ، فى ركاب فتنة كهذه يختلط فيها الهدى بالضلالة ، وتشتبه على الناس الدروب والطرائق ، ويغم عليهم اكتناه عقبى الأمور . . .

هنا يهمس التاريخ كرة أخرى باسم ابن السوداء ، يهودى اليمن الذى أبدى الإسلام واندس بين أهله ليفسد عليهم عقائدهم السمحاء ، ويفرق جمعهم شيعاً تسود فيها شريعة الخصام . وكما هى الحال المألوفة فى أمثاله من بنى جنسه وملته تحمل إلينا الصحف التى رددت ذكره أنباء ما طوى عليه صدره من عداوة للدين الناشئ وللأمة الفتية هى صورة مما طواه اليهود كلهم من قديم من الغل والضغينة لكل شعب عاشروه منذ وصم وجودهم على الدنيا جبين البشرية . . . فلم تكن الأمة الإسلامية وحدها مستقر بغضائهم بل جرى الحسد والحقد فى شرايينهم مع الدماء ينوشون بهما جميعاً الشعوب والأفراد . وعداوتهم الآن حلقة من سلسلة طويلة طول الدهر ، ممتدة مع الزمن حتى تطهر منهم الأرض . . .

فى تلك الليلة تحرك ركاب الشيطان ، وامتدت يده الشائكة تقلب مهد الفتنة وتكشف جمراته . وكيفما كان الدور الذى لعبه اليهودى الآثم فقد اندلعت النار وعلا لهيبها يصيب وجه السماء . انطلقت من قربها السيوف وتطايرت الأسهم

المريشة تروى الأرض الظامئة من سيل الدم . . . أما التاريخ فقد وقف وقفته يعرض موكب الحوادث ولا يعنى بأن يحدث الأجيال من أين كان مبدأ مسيره . إنه لا يشير إلى ابن سبأ إلا بإعاءة كأنه خالق الخطر الناشب ، أو كأنه بعض خالقيه ، أو كأنه خط من خطوط تكتمل به الصورة . فهاهنا لا تتفق الروايات المنقولة بل تختلف هونا حينا وتتباين أحيانا أشد التباين . تارة ترى الصحائف غفلا من اسم اليهودى الحاقد قد تطهرت من حروفه حتى لتحسب ذكره مضى فى قبر الغابر ، وأخرى تجده باديا من وراء السطور والكلمات . فإذا ركنت إلى التوفيق جهدك بين هذه الروايات المختلفة لم يستعص عليك أن تقر للرجل بنصيب من الفتنة القريبة لا ينكره عليه ما ألفناه من ماضيه الموسوم . . .

نعم قد أدلى ذلك الهدام بدلوه مع غيره من الدلاء حتى نشبت الحرب التى شاءت لو تجنبتها أحلام العاملين للسلام ، وكان ذلك وراء ستر كثيف من ظلمة المساء ، تلك الليلة الشاتية فى جمادى الآخرة قرب مسجد الحدان . عندئذ جرت خواطر اليهودى حتى ظن أن الوفاق سيلأم الفريقين من أصحاب على وأصحاب عائشة لأما يجمع الشمل ويرتق الفتق فلا ييسر عليه أن يكيد كيده للإسلام الذى قرح قلبه . فإن هو أن ظن ظنه وخشى خشيته حتى قام يؤلب ويحرض وينفث فى أسماع من أصغوا إليه سم الرقطاء .

تخير له فرقة ممن غلبت عليهم الوساوس ورأوا فيما سلف منهم خلال محنة عثمان شبهات قد تبدى أكفهم أمام الناس ملطخة بدم الشيخ المقتول . . أولئك الذين شركوا فى الثورة الدامية وآذن الصلح المرجو أن يجعلهم أكبش القصاص . أفيعسر عليه أن يجسم مخاوفهم حتى يثيروها حرباً طاحنة تقضى على الوفاق قبل أن يقضى عليهم الوفاق ؟ . . .

وكذلك أسروا الغدر والناس نيام . وما علم امرؤ قط سوامم بما بيتوه ، ولا وضحت نياتهم الخفية حتى تحت صحوة الشمس والمعركة محتدمة الأوار ، ولكن التاريخ حدثنا عنهم وأبلغنا نبأهم بعد حين بعيد ، عندما سكن النقع وتوالت الأجيال تباعاً جيلا فى إثر جيل ، فلم يخل حديثه من قصد فى دقة الرواية وإسراف فى شطحة الخيال ! . .

٢

أغرق الرواة فى الخيال أيما إغراق عندما أضفوا على ابن سبأ روعة الأساطير ا . .
الرجل كان حقاً ذا كيد ، غارق النفس فى بغضائه ، يضمر للإسلام عداوة ليست تخفى تحت أثواب ورعه . ولكنا لا نستطيع أن نرى أصابعه وراء كل فتنة ، تنسجها خيوطا ثم تحيكها ملاءة من نار تلف الأرض والسماء ! . .

لنكاد أن نحمله فوق ما تقوى عليه طاقته لو أصغينا لكل ما سطر الرواة عنه . ولنوشك أن نلمحه مارداً جباراً يملأ الفضاء الرحيب بهيكله الضخم إن ألقينا العين على الصورة العجيبة التى تبدت لنا من بعض صحف التاريخ . أما الهدم فكان ديدنه ، يحاول أن يتولى به الكيان الإسلامى بغية نقض بنيانه . وأما الحقد فكان مركبه إلى غايته المتلبسة بإثم الآثام . غير أنه لم يكن بقادر على خلق الحوادث أو ابتكار المناسبات التى تؤلف لجة يسبح عليها شراعه . إنما كان يتربص بها ، وينتظر تدبير القدر أن يعينه ، فإذا وقع حادث نفخ فى رماده الملتهب حتى تستشرى النار . . .

كذلك كان دوره أيام عثمان ، وكذلك هو الآن ، ينتهز الثغرة التى ينفذ منها بتدبيره اللئيم . وهو إذ رأى بوادر الانقسام بين الأمة ، ودخان الحرب الأهلية يكاد ينبئ عن كارثة عامة ، لاحت على شفتيه بسمة شيطان ! . . فلما أن حسب الصلح سيؤلف بين جمعها سارع يصوغ أحابيله . . .

ومن العبث أن نظنه وحده عدو الوفاق . بل كان فرداً بين طوائف وجماعات قادتها الأهواء العمياء إلى اختيار طريق التفرق . فلو قد خلصت النيات حينذاك وأجمع الشعب رأيه على الألفة ولأم الصدع لما كان وسعه أن يضار الوحدة المنشودة . ولذهب كيده حصاة فى محيط . . ولكن التاريخ ألبس الرجل غير طيلسانه حتى بدا من خلال السطور كأنه السبب الأول ، بل الأوحد ، لإنشاب القتال بين أحلاف الجمل وبين على وما كان غير عامل واحد بين كثير غيره من العوامل والمسببات . . .

وحين يعرض المرء سيرة اليهودى على ضوء الحوادث المتعاقبة منذ جأر بفتنته الدينية حتى وقعت الواقعة ، يكاد يجزم أنه لم يتبد فى الميدان سافراً صريحاً إنما شرك فى دواعى الفتنة الجديدة من خلف ستار ، متخفيا بالظلمات فى مسابح الخفافيش ! . . وهل كانت قصة الرجعة التى تأولها على التنزيل السماوى لا تموق تقدمه ولا تحد شيئاً من اجترائه على الدنو من صفوف الإمام ؟ . .

بل قد كانت حرية بأن تقتضيه دماء روحه وخفقة أنفاسه فى هذه الحياة لو أنه أقدم غير هياب للانضواء تحت لواء ابن عم الرسول . وعندما نخاله غريراً واهى التبصر وقد سعى إلى اللحاق بمسكر على والسير فى ركابه فإنما نحرمه مكره ونراه قد مشى مختارا إلى حتفه ووضع رأسه بين فكى الليث ! . . وليس الرجل بالساذج الغرير . وليس على بالذى يغفرله قط تأويله الأثيم ويشترى منه نصرته بما سلف من افترائه على الله . بل قد كان أولى بمن هو مثل الإمام الذى لا يساوى فى حق الناس ، ويعالج بالسيف تحيف بعضهم على بعض ، أن يعالج هذا اليهودى الصابئ على تنزيل السماء بنفس تلك الأداة . وما نحسب إلا أن صفحة من التاريخ كانت حرية بأن تبدو لنا اليوم ، دامية مروعة ، تنقل لنا نبأ ما أصاب ابن سبأ من عقاب رادع على يد الإمام جزاء وفاقا لافترائه على الله . . .

نعم كان هذا أدنى إلى الحدوث لو أن الرجل وقع بين أصابع على فى ذلك الحين ، ليكون أمثولة لسواه من أصحاب الرجس ، الداعين إلى الفتنة ، البائين الخرافات فى ثنايا العقيدة ، ولكن بعده عن الإمام فى هذه الفترة أولا ، ثم فيما تبعها من الأيام بعد ذلك حتى نهاية عهد على قد جنبه — فيما نعتقد — جزاءه الرهيب . فإذا تركنا جانبا غلواء التاريخ إذ أرانا الرجل عاملا فى صفوف على ، منتصراً له عند البصرة قبيل الوقعة . فقد ييسر أن نراه خلف الصفوف ، متربصاً بالفريقين الدوائر حتى تحين فرصة يضرب فيها ضربته وهو قابع فى الظلال . . فما سوى الخفاء ميدانه ، وما الظلمات إلا مسارب خطاه .

غير أن هذا الافتراض نفسه حقيق بالتدبر لو أننا أخذنا بما بقى من رواية الرواة . فقد حدثنا التاريخ فى شطحته أن ابن سبأ استمال إليه رجالا ممن شرك

فى دم عثمان راح يحضهم على إنشاب القتال خلسة والناس نيام حتى يأمنوا أن ينال منهم القصاص الذى لا بد واقع بهم عندما يبرم الصلح ويتم الوفاق . ولسنا ننكر على اليهودى ترتيب مثل هـذا التدبير ، ولا العبث ببضعة من العقول الواهنة التى تستجيب لنزغه ووسوسته ، فما هو إلا شيطان ، ولـكن قصة المؤامرة المبيتة فى الظلام تجاوز الحقيقة فى بعض سطورها وتتبدى لنا أسطورة نسجها الخيال ولفقتها الأغراض عندما نلقى العين على أسماء أبطالها المتآمرين فيطالعنا من بينها اسم الأشتر : مالك بن الحارث النخعى أخلص رجال الإمام . وهل يسع المرء إلا أن يجزم بأن هذا الاسم النبيل قد أقحم إقحاما فى هذه الرواية فى عصر لاحق بغية النيل من براءة صاحبه ، وإلقاء ظل من الشبهة عليه يوهن موقف على إذ يبديه ضالعا مع قتلة عثمان ؟ . .

إن التاريخ نفسه يجأر بأن اشتراك الأشتر فى مؤامرة ابن سبأ كان أكذوبة ، ودليلنا على هذا سيرة النخعى وخلق على . فما شرك الأشتر قط فى اغتيال عثمان ولا علق به من دمه رشاش . وإنما كان رجلا ممن أساء الخليفة القتيل إلى مواطنهم ، فاستشعر إنكاراً كان به يعبر عن الشعور العام الذى شمل بقية الأقطار ، وهب هبته كغيره من دعاة الإصلاح يبغى إفاءة العدل والطمأنينة على البلاد . ولم يكن أيضاً رجل خفاء ، يحسن تدبير المؤامرات ، بل كان شجاع القلب يجاهر برأيه ولا يكتمه وإن أضرت به الصراحة وتركته هدفا سهلا لنقمة الخليفة ورجال عهده الذى لاحق أصحاب الشكايات بالتشريد والعسف والنكال . . . انظره كيف نقد تصرف عثمان وعاب سياسته فى كتاب إليه خاص حين كان غيره لا يجاوز بشكواه دائرة الهمس والإسرار . . . كتب إلى عثمان إذ ذاك يقول :

« من مالك بن الحارث إلى الخليفة المبتلى الخاطئ ، الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن وراء ظهره ! . . .

أما بعد : فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين تسمح لك بطاعتنا . . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذى

أرداك فأراك الجور عدلا والباطل حقا . . . وما محبتنا فأن تنزع وتتوب ، وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا . وتسييرك صلحاءنا ، وإخراجك إيانا من ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعرى وحذيفة ، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله ، والسلام . . .

ولسنا نعرف أن امرأ يبطن غدراً ويبيت التآمر للخلاص من خصمه يسدى لهذا الخصم النصح الذى يرفع من قدره ، ويصلح أمره ، ويرده مرضيا عنه من كل الناس لو أنه احتذاه ، إنما الغريم الذى يتهيأ لتسديد الضربة القاضية هو من يكتم خطواته ويملى لغريمه فى الغى والفساد . وما كان الأشتر من هذه الشاكلة ، بل قد شاء لو صلح إمامه فصلحت الرعية بصلاحه ، وقام من لدنه يهديه إلى محجة الصواب .

فإذا استقصينا بعد هذا الأسباب التى أحنقت الأشتر على عثمان وأثارت فيه كوامن الخصومة ، رأيناها فى جماعها تكاد أن تكون مطلبا « إقليمياً » لا يعدو إبدال حاكم بحاكم وأمير بأمير يسوس أمور بلدته الكوفة خيراً مما ساسها سلفه المكروه . وعثمان فى نهاية الأمر قد استجاب لهذا المطلب ونصب أبا موسى بعد سعيد ، عاملا برأى ناصحه ، فلم تعد إذن ثمة حاجة بالاشتراك إلى الإقامة على خصومته دع عنك تبييت الغدر وتدبير المؤامرات . ولعل أبرز ما يظهرنا على صفاء ما بين الرجلين أن عثمان ، حين اشتبكت عليه الأمور وضاقت حلقة الحصار ، بعث إلى الأشتر يستنصحه ويطلب منه المشورة التى تكشف عنه البلاء وتفض جموع الثوار . . . قال له :

« يا أشتر ، ما يريد الناس منى ؟ . . . » .

فأجاب دون إخفاء :

« ثلاثا ليس من إحداهن بد » .

« ما هن ؟ . . » .

« يخيرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك » .

« أما من إحداهن بد ؟ . . »

« ما من إحداهن بد » .

فلو كان استغشه لما استشاره ، ولو كان المشير يضمر الغدر ويرجو الإيقاع بالمستشير لخدعه عن شأن عدوه ، ولأخفى عنه حقيقة موقفهم منه . غير أن الأشتر كان نقيا أمينا يبتغي رضوان الله وصلاح الشعب والخليفة عندما قام يناهض عثمان . وكان كذلك جديراً بسيرته التي لم تتلبس بالشبه والمظنات ، وبالثقة التي أودعه علي إياها فيما أقبل من الأيام لأن طبائع النفوس لم تكن لتستغلق على فراسة الإمام . . . وهل كان صفي محمد وأطيب الناس بعده خلالا وخلائق بالذي يستصفي غادرا وهو الذي قد وصف مالكا بعد انقضاء أجله فقال ؛ مجملا الوصف في خير مقال :

« كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله . . »

وكذلك يظهر أن ظلال الاتهام التي شاءت أن تلصقها بالرجل رواية الرواة لم تكن غير نسيج وهم متذائب ، أو عقل كلف بالافتراء وصياغة الأباطيل أراد أن ينتقص من قدر على خلال النخعي . . . وليس هذا على طبيعة الأمويين ببعيد .

وندع جانبا هذه الأسطورة الباغية التي ود ملفقوها أن تنال من قدر الأشتر ومن نقاوة صحيفته ثم نردد ما بقي لنا من سطور التاريخ التي لم تدمغها شطحة الخيال ولم تشبها الأهواء والأباطيل فكيف نرى الرجل إذ ذاك ؟ نراه رزينا لا ينطلق كغيره مع المغالاة وإن منهم لكثرة بالغة من أعداء الإمام كانوا بالأمس حربا مشبوبة اللظى على عثمان غدوا بعد مصرعه يدعون لأنفسهم ولاية دمه والقصاص له ! . . . وما نغالي إذ نقرر أن الأشتر قد أنكر اندفاع الثوار وركوبهم بالعنف خليفتهم حتى قتلوه . . . بل قد اعتزلهم ولم يدل في فتنتهم بمنطق لسان دع اشتراكه بسيف وسنان . بل قد كره عدوانهم على الشيخ وإحراقهم

دماءه الحرام حتى ظن الناس أنه لن يفتر عن اللحاق بمن دعوا بدعوة الثأر ...
قال علقمة ، وقد عجب إذ رآه لا يؤازر طلحة وأعوانه ، على خلاف ما كان يتوقع منه :

« قد كنت كارها لقتل عثمان ، فما أخرجك بالبصرة ؟ . . »

فأجاب معبرا عن طبعه الذى يأبى الغدر ويكره نقض العهود والمواثيق وهو يعنى ما كان من خلع طلحة والزبير طاعة الإمام من بعد ولاء :

« إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا ! . . . »

فلغير هذا العف الطاهر يساغ سوق الاتهام . وما كان مثله بالغرير الذى تستهويه بدعة أو تفتنه ضلالة وإن أزجيت إليه بلفظ معسول على ألف لسان ولسان تندلع بكلمات يهودى اليمن من شدق الشيطان ! . . .

٣

من أخرج الجمر من رماده ؟ . . من نافخ البوق للقتال ؟ . . من أشعل النار فى الهشيم ؟ . . .

سليل إسرائيل ؟ . أم رجل فى القوم سواه ؟ .. أم أفراد انطووا على مثل غدره وتبييته ؟ . ليس هذا بذى أثر ، ولا كان محولا تيار الصراع عن مجراه . ولو قد سكن الرجل لوقعت الواقعة ، وإن تأخر الزمن بها قليلا إلى ساعة من نهار ، بعد بضع ساعات . . .

أما الآن فداهمة الأمر دهمت الناس حين غفوة وهم رقود ما زالت تنادم الأكثرين منهم فى السكرى أحلام السلم . . . كان كل من فى العسكرين آمنا ، ظن هدأة الليل جنة وقته شرة القدر الغادر فأسلم مصيره إلى طلعة الصبح . غير أن الغسق أتى بالمدة ، . فلما بزغت الشمس بعد قليل على أرض البصرة ، كان شعاعها الدامى كأنه خيال الثرى المصبوغ !

وهب اليهودى سكنت نفسه تلك الليلة ونام عنه شيطانه ، أليس ثمة أنفس أخرى كانت تتأكلها اللهفة على إثارة القتال ؟ . . بلى وكثر ! . . وعندما ننشرها للإحصاء قد يعيينا الحصر . وإذا وسعنا أن نستقصيها فلن نراها جميعها كذات ابن سبأ سوداء ضليلة . بل فى أصحابها أناسى على إيمان . أم ابن الزبير علمكنا الشك فى حسن إسلامه ؟ . .

إنه لا ريب واحد ممن شغفهم القتال حتى ودوا لو أنهم تعجلوه . ولم يكن يخفى شغفه ، ولا احتجزه لنفسه دون أن يعدى به سواه . إنما قد راح حينذاك يبسطه كبسط البنود ، وعندما آثر أبوه أن يقعد عن الحرب ، ويفىء إلى الحق والطاعة ، ثار به حتى آذاه ...

قال له الزبير ، وكان حديث الامام قد ألان شكاسته وعطفه إلى التزام السلام :

« ... ما لى فى هذه الحرب بصيرة .. »

فصاح به عبد الله :

« إنك قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب ، وعرفت أن تحتها الموت فجبنت ! . »

« ويحك ! .. »

ولم يشفع له عند ابنه أن يعتذر بقسم أقسمه ألا يقاتل الإمام ، بل قال له الفتى العنيد المشغوف بالقتال :

« كفر عن يمينك بعتق غلامك . . . »

تلك صورة من صور تظهر لنا مشاعر طائفة من القوم ، كثيرة العديد ، لم يأبهوا للسلم ولا ارتضوه وإن لم يسيطر على قلوبهم ما ملك فؤاد ابن سبأ من الزيغ والإلحاد ، وإن لم يبطنوا مضرة للإسلام . فلو غاب اليهودى عن الميدان ولم يقدم خديعته فى أطواء الظلمة ، لقاموا عنه بإشعال الحرب فى واضحة النهار ..

ومع ذلك فالقطرة الأولى من الدماء المسفوحة لم تكن بنت الليل ، كم من راو أنبأتنا أخباره أن طلائع الصراع بدت مبكرة ، قبل أن يوغل الليل فى مسيره ،

وقبل تهيؤ مواكب الظلام لاستقبال باكورة الفجر . . . ثمة ضحايا لقوا مصارعهم تحت سرادق النور ولما يولد المساء — رجل ، ثم بضعة ، من صحب على ، أصابتهم الأسنة الغدارة وما التق الجمان فى ساحة وغام .

ولكن الإمام تحاجز دونهم بصبره . سكت عن العادين وفى نفسه بقية من أمل أن تسترقهم سماحته فتنفتح قلوبهم للوفاق . قد كان يطمع أن يصغوا أخيرا لمنطق العقول الرشيدة والحكمة المنجية الهادية وإن لجوا بدءاً فى غيهم وسايروا هواهم إلى مداه . فعندما نزل البصرة أول نزوله قنت لربه مخلصا أن يهدى غاويهم ويؤلف عاصيهم عسى دماؤهم ألا تهراق . ولما اصطفوا أمامه ، جموعا فى سلاحهم شاكين ، قد باتت سورة الوغى فى مآقيهم ، دعا جنده أن يصابروهم ولا يبدأوهم بعدوان وطعان :

« . . . لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة . وكفكم عنهم حتى يبدأوكم حجة أخرى » .

غير أن الذى تبطره الكثرة وتملكه السورة وتقوده الغدرة ليس يهديه رفق ولا تسامح . وكذلك كان أحلاف الجمل ذلك النهار أو كان سوادهم الكبير كثرة غادرة مهتاجة . فما هو أن بدت لعيونهم أجناد على ، عند الحافة الأخرى من خندقهم ، حتى بدأوا العدوان .

وسقط امرؤ علوى أول ساقط فى الساحة ، وقد أصماه سهم خرق إلى صدره خباء الهواء . . . لم يكن آخر ضحية طل دمها وذهب مهدرا دون ثأر ذلك اليوم قبل إعلان بدء الوقعة ، فما هو الاعتداء من على هدوءه ولا أخرجه عن الترفق بالعدو المغتال . . . ولم يكن أيضا الضحية الوحيدة بل أتبعتها السهام العادية ضحايا تترى ، كأنما حسب أصحاب عائشة أنهم إذ يرمون أخصامهم يتلهون بصيد سانحات من الطير ! . . .

وغضبت لهذا التحدى طائفة من رجال على ، أقبلوا يحملون صاحبا لهم ممن دهتهم إحدى تلك الرميات وحملت إليهم المنون . فلما أصغى إليهم الإمام هتفوا به يقولون :

« يا أمير المؤمنين هذا أخونا قد قتل . . . »

ولبثوا ينتظرون أمره . أفطالعهم بغير ما رده عليهم من قبل كلما حملوا ضحية منهم اقتنصتها سهام الخصوم ؟ بل قال كما اعتاد أن يقول :

« أعذروا إلى القوم » .

فلم يتسع حلمهم هذه المرة اتساع حلمه . وقال ابن أبي بكر له وقد أخرجه عن طوره ما قابل على به بغى القوم وتحديهم من هوادة لغير أهل ورفق نظير قتل :

« إلى متى ؟ . قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار . والله لتأذن لنا فى لقاء القوم أو لننصرفن ! . . . »

وكأنما أحس الفتى أنه جاوز حده فأردف وفى صوته رنة من الندم يشوبها أسى عميق :

« . . . يا أمير المؤمنين ، إلى متى نستهدف نحورنا للسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ . . . » .

فلعل هذا الحادث وأشباهه كان آفة الأمل الذى ظل يراود بضعة من النفوس فى أن ينتصر السلم . العدوان المتواتر من جانب عسكر الجمل فت فى عضد على ، وأثقل قلبه ، وطمس آية الوفاق التى تبدت فى آفاق أفكاره كنجم غائر فى جوف الظلمات . ولم يبق من رجاله أحد إلا أقام على خشية ، لا يستريب قط فى أن عدوه سيدهمه حين لحظة تحين . . .

ومع ذلك فجمعهم قر تلك الليلة . ولانت له المراقد فأسلم العيون للنوم إسلامه مصيره إلى الصباح القريب . ما حسبوا قط أن ليلهم خادعهم وحامل إليهم فى أطوائه الوغى المقتالة . . . وكيفما كان الدور الذى لعبه ابن سبأ فهو دور كان حقيقا أيضا به سواه من خصوم الإمام الذين تلبست نفوسهم بالنهم إلى الدم . فما يدرى امرؤ من أين أتت أول طعنة ، وأى صدر من الفريقين استقبلها والغلس ينشر ظلامه كثيفا على المضارب والأخبية التى ملأها الجنود . وعندما نصغى قليلا إلى رواة التاريخ نسمع كيف وصفوا لنا اضطراب العسكرين فى عماية الظلمة

والسلاح يشق صدورهم ونواصيهم وفى حسبان كل فريق منهما أن عدوه قد بدأه بالعدوان . وبين ظن الظنون ورجم التخمين يتيه أول عاد ركب الناس بغدره فى مراقدهم ، وتضل الحقيقة حتى يعسر أن يهتدى المرء منها إلى رأى قاطع وحكم حاسم صريح . . .

فليكن إذن ابن سبأ مشعل النار ونافخ البوق للقتال . ليكن هو قبل سواه — لا دون ســـواه فكثير غيره إلى الفرقة ساع وإلى الدماء منهوم ! .
أما الواقعة فوقعت منذ انطلق أول سهم فى جوف الليل ، ضريراً يندفع عن غير بصيرة ولا إحكام تصويب حتى استقر بصدر أو نحر . . . وقعت ، ودهمت داهمتها الناس وهم رقود ، فاءوا إلى المضاجع فى أحضان حلمهم بالسلام ! . . .

واندلعت ألسنة الحرب . واختلط القوم من الفريقين شر اختلاط وأبغضه ، يضرب بعضهم وجوه بعض وما يدرى الرجل أيقتل رفقاءه أم يقتل أعداءه . فمن عجب أن تختار سهام الرماة ورماح الكماة أقرب أناس إلى قلوب أصحابها وأحبهم إليها . . . كانت تختار لها أهدافاً من الأهل والعشيرة . ذلك أن رجال على عندما نزلوا البصرة رأوا أن يعسكروا تجاه أبناء قبائلهم من جند عائشة ، فنزلت عن الكوفة إلى عن البصرة ومضر إلى مضر وربيعة إلى ربيعة وكلهم يظنون أن صلحهم قريب . . .

وانطلق على إلى الغمار وقد فجأته الضجة التى علت على غير توقع يهيب بالجموع التى ملكتها حمى القتال .

« أيها الناس ، كفوا . . . كفوا فلا شىء . . »

فكان صوته يغرق فى الضوضاء كما غاب هيكله عن العيون فى الظلمة الكثيفة ، لا يكاد امرؤ أن يراه أو يسمع دعواه . . .

ومال إلى رجل دان يسأله عما دهى الناس ، فأجاب :

« ما فجأنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم على رجل . . . »

عندئذ قال ونفسه تسيل أسى وموجدة على ما انتهت إليه حال رعاياه من تفرق وانتشار :

« لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا . . . »

فكأنما صبها بأحرفها فى فمى غريميه تنطلق كلاما عبر عمـــا ظناه ، سألا أصحابهما عن الداهمة ، فلما قالوا :

« طرقنا أهل الكوفة . . . »

أجابا وهما يسترجعان ، بنفس ما قاله فيهما الإمام :

« قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ! . . »

وكذلك أخذت الريبة على كل فريق مسلكه إلى التفاهم والمصافاة مع الفريق الآخر ، وسدت دونه الطريق . . . فإذا الحكمة تتوارى ، وإذا العقل يهيض ، وإذا المنطق الرشيد يخلى المنبر ليخلفه السيف البتار ! . . .

٤

أتم على طوافه ثالثة بين رجاله ، ثم رفع المصحف أمام عيونهم فى عناء ونادى وما زالت بقلبه أمل أن تتداركه الناس رحمة الله :

« أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه . . . وهو مقتول ! »

فنهض له الفتى الكوفى الصغير — نفس ذلك الحدث الذى أجابه إلى دعوته مرتين من قبل وإن نفسه لتفيض حماساً ولهفـة ، وإن لمح عينيه ليتلهب من عزيمة وتصميم :

« أنا يا أمير المؤمنين » .

فأشاح برهة عنه . ود لو الغلام تأخر عن هذه المهمة لمن هـو أقوى منه وأشد ـ خاد عن المنون بشبابه . . .

وقال الإمام وعينه ترقب الشاب :

« . . . فإن قطعت يمينه أخذه بيساره ، وإن قطعت يساره ، أخذه بأسنانه . . . »

فلم تختلج فى انعلام جارحة من خوف . بل زاده التلويح بالخطر الذى ينتظره تمسكا بعزمه .

ودفع على إليه أخيراً بالمصحف .

« اعرض هذا عليهم ، وقل هو بيننا وبينكم . . . والله فى دمائنا ودمائكم » .

فانطلق الفتى به فى الغمار مزهواً ، ينطق تطلق أساريره ، وتلك البسمة التى شاع نورها فى محياه بمقدار فرحه ، كأنه يسير إلى عروس مجلوة ساعة زفاف وإن قباءه الأبيض ليعلمه ويزيده رواء على روائه . . .

ووقف جند الكوفة فى صفوفهم يرقبونه تكاد قلوبهم أن تسير حوله وهو يشق لنفسه طريقا بين أسنة الأعداء . لو نجح إذن لاحتقن الدم ، ولو استجاب رجال الجمل لدعوته القدسية التى يتحدث بطهرها كتاب السماء لعاد الناس كلهم إخوة على صفاء : فما بال هؤلاء يتنكرون له ، ويبطرون بالنعمة التى تقدم يزجيها فى دعوته السمحة الرضية ؟ . . . قد أكلتهم شرة العداوة فانقلبت إنسانيتهم ضراوة ، واختفت فيهم طبيعة البشر خلف تنمر الوحوش وسكان الغاب . وإن أسنتهم لتلعب إذ ذاك دور المخلب والناب فتتعاور الغلام وتضرب فيه ، لا تكبحها حرمة المصحف المرفوع فى يمناه . ولا تردها عنه ما يرد العداة عن خصومهم إذ يسيرون نحوهم حاسرين ، بغير سلاح ، يعلنون وهم عزل غير شاكين ، أنهم فى أكناف الأمان . . .

تعاور أصحاب الجمل هذا الفتى الأعزل إلا من كتاب الله غير متلومين ، تقد منه أسنتهم الباغية وتفريه . ولكنه صبر أمام العدوان ، ومضى وما عزم عليه يناديهم إلى الكلمة السواء وإن خانته يمينه وتخلفت عنه فى مضيه شلوا مبتوراً رقد على الثرى وقد أغرقه الدم ! . . . فما زالت ثمة يسراه تستطيع حمل الرسالة المقدسة ، وما زالت قدماه تحملانه إلى حيث لعله يستطيع الأداء . . . وما زالت أيضا له أسنان تمسك بكتاب الله عند ما تأتيه ضربة أخرى عادية فترسل يده الثانية لقى على الأرض . . . أفلا يسعه أن يحتضن المصحف بين صدره ونحره ويجاهد طاقته ليسمع القوم دعوة السلام :

«كتاب الله بيننا وبينكم . . . الله الله فى دمائنا ودمائكم . . . » ؟ .

ولكنها صيحة لم يتح لها التردد إلى كثير . صمت عنها فى البدء الآذان ثم خرس عنها صاحبها الآن !.. المخلب والناب ووحشية الغاب قضت منها الوطر ، ورمت بالفتى الصغير ، أو ببقاياه ، ساكنا على الأديم قد راح قباؤه الناصع البياض مزقا حمراء ! . .

أثمة للصبر بقاء ؟ . . أفيه ذماء ؟ أم تفرى إهابه وتقطعت به عن الوجود أسبابه ؟ . . ود على لو قدم على مذبح السلم ضحايا أخر وقرابين تصل بينه وبين خصومه ، فتلين له عاصيهم ، وتؤلف عليه شاردهم ، وتمسك وحدة أمته أن تنهار . ولكن بوادر الصراع أيقظت الفتنة ، ورائحة الدم المسفوح انسابت من الخياشيم إلى الأوردة والشرايين تحرض الدم الحبيس على الفوران والتحرر . فى كلا العسكرين حميت نخوة القتال وبان فى العيون التنمر . وعندما رد الإمام طرفه عن الفتى الصريع ، الذى مزقته الأسنة ، إلى صحبه وأجناده طالعته منهم غضبة ليث جريح مزير ، قتل صغاره ، وديس غاره .

ما لعلى بعد هذا سبيل إلى الإعذار ، إنه قد أعذر حتى ظن أنه خوار وصبر حتى حسبوا الصبر منه مجبنه . بل لعل عدوانهم على جنده ، وملاحقتهم رجاله — وإن كانوا كافين — يغى السيف ونار الحتف لم يكن لولا حلمه الذى أطمعهم فيه وأملى لهم فى الطغيان . أما وقد كف وصابر حتى كاد أن يصبح عونا لعدوه على أوليائه ، فلم يعد له معدى عن ترك الحلم إلى الحزم والكف إلى السيف ؟ . . .

وهتف وما زال يلوح لعين خياله الفتى الحدث فى قبائه الناصع البياض كما تلوح بقية رؤيا رق عنها الوسن :

« حل قتالهم . الآن طاب الضراب ! . . . »

ودعا قواده فأقامهم على أماكنهم فى الميمنة والقلب والميسرة من جيشه . وكان كعب بن سور فى صفوف الجمل واقفا ينظر ، فلما رأى تأهب الإمام حتى أخذته خشية أن تستعر الحرب بين الجمعين . . . إن هاتفا فى أعماقه يحذره ، ويكاد أن ينذره بشر قاصم سوف يلقاه فريقه غب الالتحام .

وانتقض الرجل فبرح المكان مسرعا صوب عائشة ليخبرها الخبر ، ويهيب بها أن تجهد وسعها لتكف عن أصحابها المصير المخوف الذى سيجنونه كفاء الطغيان :

« يا أم المؤمنين .. أدركى فقد أبى القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك ... »

فبرزت من حيث سترتها الدار ، مضطربة واجفة ، فقد أعداها ما أحسه ابن سور وعاناه . . وجاءوا إليها بعسكر على الأثر ، ألبسوه الجلود وشدوا عليه هودجا درعوه بالحديد حتى بدا كأنه القلعة الحصينة . الله يعلم أى أمر طوته وهى تحت مطيتها الدارعة إلى الميدان ! . . ولكنها حين شارفت الساحة ، ورأت الجموع فى التقائها تمتد ثم تنحسر كالأمواج ، وسمعت السلاح يصطفق والسيوف تعتنق أخذتها رهبة غلبت ما كان من قبل فى نفسها من صرامة ، حتى همست أسيانة إذ التقطت سمعها تلك الجلبة المدوية من جانب جيشها الذى ملكه الهرج وشاع فيه الضجيج :

« أى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون ! . . »

ونأت بعينها رائية . . . ولوت جيدها نحو كعب بن سور تهيب به بلهجة فيها حدة الأمر وفيها رقة الضراعة :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه . . . » . ودفعت إلى كفه بمصحف كما فعل على قبلها مع الفتى الكوفى صاحب القباء ولكن رسولها لقى مصرعا كمصرع سلفه . استنزف منه دم الحياة وما استجاب امرؤ إلى ندائه ...

عندئذ صاحت وقد أشفقت أن تأكل شرة الحرب الناس . . . عادت بها رهبة الموقف الضنك وشبح الموت الذى حلق على الرءوس إلى ما هو مألوف فى هذه الموطن من طباع النساء ، فراحت تصيح :

« . . . يا بنى البقية المبقية ! . . . الله الله ! . . اذكروا الله عز وجل والحساب . . . » .

فلم يلق أحد منهم بالا إلى دعوتها ، ولا بدوا كأن قد سمعوا صوتها الرفيع الجهير . بل مضت الوغى سبيلها فى سورة مجتاحة ، تأكل من عرض للظاها أو تأخذ منه . والساحة بعد هذا تغطيها رويداً رويداً الدماء ، ثم الأشلاء ، ثم

الهام بعد الأقدام .. ! فما ارتضى امرؤ توقفا عن الطعان ولا آثر التريث ، يستوى في هذا أولئك وهؤلاء .

ومع ذلك فثم قلة ودت لو أصغى الناس إلى دعوة السلم المرتفعة من بين القعقعة والصليل ، عسى الله أن يهدى إلى سبيله ويحقن دماء المحاربين . وإذا كان الغلام الكوفى قد لقى من أهل الجمل شر جزاء على خير دعاء ، فليس مصيره بعقمد سواه عن القيام مقامه والتنادى تناديه . . . وما هو رجل من صحب على من عبد القيس ، يزدلف خفيفاً نحو عائشة إلى أعوانها المضريين ، فيحدثهم هادئاً غير هياب :

« أيها الناس ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله . . . »

فصاحوا به محنقين :

« وكيف يدعونا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله ، ومن قتل كعب ابن سور داعى الله ! . . . »

ذكروا صاحبهم ونسوا صاحبه كأنما ليس لغير صريعهم حساب . . .

ثم وشت بهم نواظرهم بعد قليل ، فإذا لمح النقمة يتأجج فى مآقيها تأجج النار ، وإذا جمعهم يلتف بالداعى المتفرد يسد عليه منافذ النجاة ، ثم يرمونه بنبلهم كأنما عن قوس واحدة حتى غدا جسده ، من ما فرط رشق به من سهامهم كأنه جسد قنفذ غطته الأشواك . . .

وضاعت الحكمة فى حلبة النزال المجنون. وانقلب الناس كالوحوش لا يدينون بغير شريعة الغاب ، ولا يصغون لغير حديث السيوف والحراب .. وعندما أسفر النهار، وألقت الشمس وشاحا من ضيائها البراق على جوانب الكون ، كان النور يملأ الأرض ولكن الظلمة كانت تملأ العقول ! ... ولم يعد أحد يشهد إلى أكثر من مرمى عينيه ، فالبصر سليم والبصيرة كليلة ! . . وأخذ السلاح يلتمع ، إذ يتهاوى فى سرادق الضوء ، كالمرايا المصقولة . . .

٥

هذه صيحة الحرب راحت تزأر : « يا لثارات عثمان ! » فيها مثل قصف الرعود ، وعزيف الإعصار ، ودوى الانفجار المجلجل جاشت به فورة بركان...

من ناحية « عسكر » أقبلت مدوية ، رجفت لها الأرض والسماء . . فى طيها غضبة وفى إثرها رهبة قد أطلقتها ألوف من الحناجر الصاخبة وألوف . بضع عشرات جمة ، فى جرس واحد ثابت كأنما أرسلها لسان وشفتان ! . .

إنها نداء الدم .. شعار نقمة هوجاء رفعته النفوس الموتورة كرفع الكتيبة العلم .. دعوة للقصاص فطرية ، ترددت عن قلوب ملأتها إلى حوافيها شهوة الانتقام وآمنت أعمق إيمان وأقواه بشريعة الثأر كإيمان إنسان الكهوف والمغاور ! . .

وكان فيها رنة غير رنة النقمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس اندفاع الينبوع الفوار . . . فيها أيضاً تنغم النشوة ينبئ بزهو غامر بمثه الشعور بالتفوق فتلك آية النصر بادية ، لاحت لهم بواكيرها ولما تأكل الحرب منهم سوى قليل .

حيثما مد امرؤ من رجال « عسكر » عينه إلى أطراف الساحة التى عجت بالأسنة المشتبكة كر إليه بصره وفيه إشراقة التمعت بها بسمة الرضا والطمأنينة . الراحة فى القلب والفرحة فى العين ، والأمل المعسول كخفق الضياء يداعب النهى والخواطر . حتى عائشة بهودجها ازدهاها الظفر الظاهر ، وغدا أمامها حقيقة مجسمة ما كان من قبل حلماً طوف بها فى هدأة التصور . فرغت الآن مما عراها من اضطراب ففاءت إليها نفسها بعد خشية ووقع قلبها الجزوع موقعه . وطلحة ابن عبيد الله . . أين منه اللحظة هدفه — ذلك الوهم القديم الجميل ؟ . . كاد هاهنا يلتقى حلمه المنشود بالواقع المشهود على أديم الميدان وفى غيمة النقع الثائر من حوافر الخيل وحركة المشاة ، لا يفتأ يبدو لعين خياله المقعد الأثير ، وسيف الحكم ، وطيلسان الخلافة تهم أن تتقدم بها نحوه النتيجة القريبة المرقوبة نصيباً حلالا له وحده بعد ما كان من نكول الزبير ! . .

النصر إذن لم يعد بارقة رجاء ولا نسج خيال ، وإنما أوشك أن تنقبض عليه كفاه . إنه ليراه مقتربا منه ، دائبا على الاقتراب ، يدنو إليه خطوة كلما دفع رجاله بجند على خطوة إلى الوراء . ولقد دنا حثيثا ، وقطع أشواطا جمة بدل الخطوات. وما دام نصره قرين هزيمة الإمام فإنه منـــه مستيقن لأن هزيمة خصمه غدت تدق عليه الأبواب ! .

ليس يخامره شك الآن فى عقبى الواقعة بعد أن شهد من مكانه بقلب جيشه كيف راح جنود الكوفة يركنون إلى الارتداد . ما كاد يغزو عليهم جناحاه حتى نكلوا عن الثبات . الضربة الأولى ألزمتهم التقهقر ، فعسى الضربة التالية أن تلزمهم الفرار ! . .

كذلك كان عامر القلب بثقته ، يغمر نفسه البشر والتفاؤل . فما كذبه حدسه فى قائديه ، ولا خابت فيهما فراسته . وساعة أن نصب أولهما . عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام على ميمنته ، وبعث الآخر: عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليقود ميسرته ، كان موقنا أنه أصاب أوفق اختيار ، فأنعم بما قام به السميان ونعم ما أبلياه ! . . هما أن تصبح لهما الكلمة العليا فى الصراع الدائر فيبلغاه وطره من عدوه . ولولا أن ثبت قلب جيش الإمام كل هذا الثبات لانفض السامر ! . .

ومع ذلك فليس يكتم عن نفسه أن النصر الذى حازاه جاء خاطفا سريعا أكثر مما تخيله وهمه . كل من شهد الوقعة عجب كيف زالت هكذا ميمنة على وزالت ميسرته عن مواقعهما تحت هجمة الخصوم . وحق لمن شاء أن يعجب كما يشاء . فما كان جناحا الإمام من الوهن والتهافت بهذا القدر الذى يردهما القهقرى بعد أولى الضربات. لا وليست تعوز رجالهما الحنكة الحربية ، ولا البأس والصبر فى مواطن الجلاد . أفثمة يا ترى أسباب خفية فرضت عليهم التقهقر أو قهرتهم عليه ؟ . . أعن تدبير ؟ . . أم هى ضربة مفاجئة بدأهم بها جيش « عسكر » قبل أن يأخذوا أهبتهم لملاقاته بالقتال ؟ . . لعلهم أخذوا على غرة وإن اشتبهت حقيقة الأمر على الرواة . . أو لعل علياً هو الذى مكن لعدوه من هذا النصر الخاطف السريع ، فقد كان مسرفا غاية السرف فى الصبر والموادة

كما عهدناه ، متحرزا أشد التحرز وأبلغه من لقاء خصومه فى حرب إلا أن تعجزه أناته عن الضن باللقاء . ولطالما صبر من قبل وأعذر فلا عليه لو أملى لهم هذه المرة كذلك لتكون له على طلحة وحزبه الحجة البالغة بأنهم أصحاب العدوان .

على أى حال قد كان هادئا تلك اللحظة بقلب جيشه الذى ثبت أمامهم ثبات الرواسخ ، تشهد عينه ولا يضطرب جنانه ، وإن وجدهم ينالون من رجاله ويضغطون مجنبتيه ضغطا شديدا حسبوا معه أنهم هازموه . الشك لم يراوده قط فى نتيجة المعركة ، وإن بدت للعيون مقدماتها لا تبشر بخير كأنه قد علم عاقبتها قبل أن تحين . . .

إنه هادئ الخاطر رخى البال ، لا تكاد المحنة الحازبة التى أصابت جناحيه على يدى قائدى غريمه أن تنال منه . بل قد بدا محسور الطرف عن أطراف الميدان وعما يدور فيه . . . ثمة هدوء سابغ ، كأنه الكلال أو سنة كرى ، جلل محياه المطمئن القسمات ، حتى ظن أدنى قومه منه أنه راح فى خفقة نعاس ! .

ولكنه رفع رأسه بعد قليل ، فى حركة بطيئة وئيدة ، ومال بأذنه يرهف سمعه إلى صيحة شقت نحوه غلالة الهواء من ناحية الهودج الدارع . إنها تختلط بصليل السلاح وصخب الأجناد ، حتى لا يصله منها سوى ضجيج مبهم تضطرب حروفه ويوشك أن يغيض فى غمار الضوضاء . . .

ويلتفت ، وقد أعياه تبين الصيحة ، إلى امرىء قريب منه يسأله فى هدوء :
« ما هذه الضجة ؟ . . »

« عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان »

فترسم على الأثر بشفتيه بسمة حزينة ، فيها رثاء وعطف ، وتلتمع بعينه نظرة تسيل رقة كأنها دمعة يسكبها وهو يذكر الشيخ ، ويقول بصوت عميق حروفه لأحاسيس قلبه أصداء :

« لعن الله قتلة عثمان . فى السهل والجبل . . »

ثم يفىء ثانية إلى الهدوء ورضا البال ، كأنه ليس بموطن حرب تتهاوى فيه الرءوس والجوارح ، وتتحدث الألسنة بمنطق الدم . .

عندئذ يقبل عليه ابن جهين ، والعجب يستبد به ، يحدثه وقد كادت ألفاظه أن يقطر منها اللوم ويفيض الإنـكار :

« تالله ما رأيت كاليوم قط . . . إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمنتك وهزمت ميسرتك ، وأنت تخفق نعاسا ! . . »

فرمقه على ملياً فى سكون حتى ظن الرجل أنه لم يسمعه ، وهم أن يعيد عليه ثانية ما قال . . . فإن هى إلا لحظة ثم رآه لا يعه يرفع وجهه ويديه نحو السماء ، رانياً بنظرة ابتهال وضراعة وهو ينطلق فى المناجاة :

« اللهم إنك تعلم أنى ما كتبت فى عثمان سواداً فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ألبا وأجلبا على الناس . . . اللهم أنت أولانا بدم عثمان فخذه اليوم . . . »

وبأسرع من كرة الطرف نفض عنه هجمته أو ما بدا كأنه هدأة النعاس ! . جرت فى أوصاله حمية الشباب القديم دافقة فـكأن بها ثورة إعصار . فلم يكن ثمة بقية لإمهال ولا تريث ، ولا معدى بعد عن مقابلة هجومهم بهجوم يرد عنه العوادى بعد أن شد ابن الحارث على ميمنة الـكوفة شدة ألصقتها بالقلب حتى زوحم الإمام . . .

وهتف بين رجاله نفر يقول :

« الموت ليس منه فوت ، يدرك الهارب ولا يترك المقيم ! »

فـكانت هذه مجاز جنده إلى الثبات . تدافعوا نحوه من كل صوب تدافع الفراش للضوء ، فإذا هم حلقة حوله كأنها السوار .

وأخذت الشمس فى مستقرها تسير ، وئيدة الحركة ، رويداً رويداً لتتوسط السماء ، ضاحية السنا كعين يقظى راحت ترقب الجموع المزدخرة بميدان الوقعة . كان الوقت يقترب بهم من الظهيرة ، والجو الملىء بالدفء يزيد الجسوم توتراً وحرارة ، حتى لينهدفع المرء منهم إلى حتفه دون إرادة إلا بإملاء عصبه ، ويندفق بين ردائه وأعضائه ماء دافق سيال ، فلا يدرى أهو عرق الجهد أم دماء الجروح . ما كان فيهم امرؤ يستطيع أن يتحكم فى وعيه أو يدرك الشعور الذى يقوده إلى هنا أو هناك . فإن هو إلا مس يحرك المشاعر ما لهم عليه سلطان . . .

فلعله نشوة الصراع لعبت بعاطفتهم الفطرية لعب الحميا برأس المخمور ، وهل الناس إلا غريزة قديمة ، عريقة القدم إلى عصور الفطرة التي لم تعرف سطوة العقل ، ولم تدن له بطاعة ؟ .. جميعهم تحرر من ربقة إدراكه هذه اللحظة التي حجبت فيها الأسنة ما هذبته منهم العصور ورققته من طباعهم البدائية . فعاد الإنسان الأول ، الكامن فى أعماقهم ، إلى الظهور ...

بوحشية الغاب والكهف استمر القتال ، ذلك اليوم من جمادى الآخرة على أرض البصرة ، حتى لتشهد الميدان اكتسى بأناس اشتبكوا ، فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء . التصق الكتف بالكتف ، والصدر بالصدر ، والذراع بالذراع .. وكان بدء صراعهم بينهم بالنبل تتطاير عن أقواسها كرشاش الماء ذات يوم مطير ، ثم خلوا حديثهم بعدها للرماح والحراب . فلو كنت هناك لأعجزك أن تصل من صف أولئك إلى صف هؤلاء إلا أن تعبر جسراً من القنا الناشبة ! ...

فى هذه اللحظة الحازبة ، التى رخصت فيها الأرواح أيما رخص ، وهانت الأنفس على أصحابها كل هوان ، رأى على أن يشن على أعدائه هجومه المضاد .. ولم يكن هذا مما يسهل من فريق أوشك أن ينهزم جناحاه ، وضاقت عليه حلقة أخصامه ، حتى كادت أن تشل حركته . ومع ذلك فليس معدى للإمام عن القيام بكرة يسترد بها من الأرض موطئا لقدميه ، ولا سبيل أمامه إلا أن يقتحم ذلك الجند المعادى الذى أحرز بالسبق إلى الهجوم مزايا جعلته كالبنيان المرصوص ...

وأخذ الراية فدفع بها إلى محمد ابنه ، وقال يأمره :

« تقدم » .

فأجال الفتى بصراً حائراً فى القوم حياله — فى هذا السد من الجند الذى يسد دونه الطريق . أثمة على الأديم فسحة لقدمه يمضى عليها بخطوه ؟

ثم أحس يد أبيه تدفعه من الوراء ، وسمع صوته المهيب الآمر كرة أخرى يصيح به :

« تقدم ، لا أم لك ! .. »

فأجاب وهو مضيع حيران :

« لا أجد متقدما إلا على سنان رمح . . . »

« أدركك عرق من أمك ! . . »

وخطف راية القتال منه . فإن هى إلا رجمة الطرف حتى رأى الناس عليا يحمل العلم بيسراه ، ويشهر ذا الفقار — سيف رسول الله — فى يمينه ويقتحم وحده جند الأعداء . . .

لقد كانت هذه لحظة فذة فى تاريخ الشجاعة ليس لها قط مثيل : أن يخوض امرؤ فرد جيشا برمته فيشقه ، كما يشق أديم التربة سكين المحراث ! . . ولكنه ابن أبى طالب، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول فى تفهمه وأعياها إدراكه ، وإن عز شبيهه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال . . . إن إقدامه هو الذى كان يفتح له فى صفوف عدوه المكتلة — المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة قبل شفرة السيف ! . . فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلة بنصرها منذ قليل لم يكن إلى اجتنابها سبيل . وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها ، لم تترك جلداً ثبت لسيلها المجتاح ، أو رعديدا نكل وآثر السلامة من خلال الفرار ! . . .

شق جيش العدو وحده ، وفتح ثغرة عميقة فى بنيانه المرصوص ، والرقاب تتهاوى على حد حسامه ، والناس يسقطون صرعى بين يديه كأنهم أوراق الشجر وهو هبة قارسة من رياح الخريف ! ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فانثنى فى يمينه لما كف ولا عاد . . .

والتف به بنوه وأجلة صحبه ، وفيهم الأشتر وعمار ، يهتفون :

« نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . . . » .

فلم يجب ، وما رد إليهم بصره ، بل مسح بكمه قطرات العرق التى بللت محياه ، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفئ غلة عطشه بيعض ما فيه . . .

وقال بعد أن حسا حسوة :

« . . إن عسلك هذا لطائفى . . . » .

« نعم . وعجبا منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائش من غيره فى هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ! . . » .

فابتسم وقال بهدوء :

« يا ابن أخى ، إنه والله ما ملأ صدر عمك شىء قط ، ولا همه شىء . . . » .

وأمسك سيفه المحفى فأقامه بركبته ، وهب فجأة كالإعصار على عسكر أعدائه يغوص فى صفوفهم كما يشق سجف الظلمة السوداء شهاب ! . . .

٦

الآن حانت الظهيرة . رقت الشمس الضاحية محاور الرءوس ثم مضت قدما تتم رحلة النهار . . . قليلا قليلا راحت تزايل مستقرها العالى وتنحرف عنه إلى طريقها المذهب صوب المغرب البعيد فكأنها حينذاك كانت ميزان الوقعة المستعرة ، مالت فيه كفة فريق وشالت كفة الآخر بعد طول رجحان . . .

وخط القدر فى تلك اللحظة أو سطر من نتيجة الصراع المشبوب . بدأت عند ذاك نقطة التحول فشهد الجمل أولياءه فارين وقد كانوا سادة الموقف ومالكى مصيره منذ قليل . وأخذت البصرة تستقبل منهم فلولا مولية فى إثر فلول ! . . .

أما على فقد أينعت جرأته ، وأعرت هجمته الفذة ثم أتته على أعقابها بنصر مؤزر . . . وحين ألقى عينه على الميدان طالعته الفوضى تقود أخصامه ، فقد أعوزهم الآن التماس القواد ! . . غاب عنهم الزبير مؤثرا أن ينكل عن المعركة بجسمه كما نأى عنها قبل نشوبها بقلبه . . وغاب أيضا طلحة بن عبيد الله . مضى يلتمس لنفسه منتجعا نائيا عن مهاوى السهام والحراب عسى أن يجد هناك آسيا لجرحه فما كان أسرع نضوب أمانيه ! . . وما أشبه أمله الآن بجسمه الجريح ، راح ينزف حتى وشك أن يجف عوده ! . .

فلعل أعجب ما فى قصة هذا الحالم بالسيادة أن يتنكر له فى محنته ولى ويأسى له غريم . بل قد كانت نكبته هذه من نسج حليف له . . . عدا القدر عليه فى ثوب صديق طالما أبدى له الولاء والطاعة ثم لم يمهله فى وقدة النزال إلا ريثما يجعله

أمثولة أمام الناس لمن آوى الحية الرقطاء بين ردنيه وهو يحسب أنها سوف تجزيه وفاء صرفا على حسناه ! . . . ولكنها الحرب تنضو عن النفوس الزيف وتهتك المظاهر ، ثم تبديها عارية بلا طلاء : معادن خبيثة أو جواهر نقية الصفاء ، تريك النبل لا تشينه الخصومة ولا تنال منه . . .

لقد كان الأمر انكفأ على طلحة بأسرع مما تخيله وهمه حتى عجب لجنده المظفر كيف حاقت بهم هزيمة مباغتة ولما يكد ينعم بنصره إلا لحظات . بدت له آية ظفره المنهار كأنها سراب خدعته فى البدء عنه ثقته فلما انكشفت عنه نشوة اعتداده رآها بلقعا بلا ظلال . فما بقيت لجنده عزمة تحملهم على الثبات ، إنما غدوا شراذم نهكتها الحرب فمضت تستبق سبيلها إلى الفرار . . . كلهم فتنته نفسه عن الواجب ، وشغله حب الحياة . أما طلحة فظل بثوب الجندى وطبعه ، لم تخنه شجاعته ، ولم يفقد جلده . فراح يتذرع بالصبر عسى أن يسعفه الوقت بما يعينه فى هذه النازلة فيستطيع المقاومة ثم يستطيع بعدها الثبات . وهل الحرب إلا تأرجح دائم بين نعمة النصر ونقمة الهزيمة ؟ . . وهل حركات الجنود المصطرعة فى ساحات القتال إلا كمثل الأمواج ، يلعب بها المد آونة فتفيض ؟ . . ويكبحها الجزر أخرى فتغيض . فكذلك محنته الآن ، لعلها تنحسر عن شاطئه . وما دامت الحلبة لم تخل من رجاله فإنه سيعتصم بالرجاء . . .

وأهاب الرجل بمن بقى من جنده أن يؤازروه ، وثبت جهده للحشود الدافقة من رجال الإمام . فلو التف به نفر يبايعونه على النصر أو الموت لكان هذا أجدى عليهم وعليه ، إن ظفروا فلهم العزة أو قضوا فموت الكرام . . .

على أن ثمة امرءاً فى صفوفه كان قد أيس النصر ، وقر فى عزمه أن الثبات الذى يبتغيه طلحة ليس إلا خفقة السراج قبل انطفائه ، فقد جفت الفتيلة وفرغ الزيت ! . . بدت الآن الدولة المنشودة حلماً بدده الصبح . وصاحبها الحالم سوف يحتويه الغمار . وأنصارها البناة قد انقض بناؤهم ولما يرتفع عن أساسه فهم الآن صريع وقتيل ، وهم غداً أسير وشريد . فما غاية الناس من قتال مآلهم من ورائه قتل أو ذل ؟ . .

بهذه النظرة استقبل مروان بن الحكم عناد طلحة ورغبته فى المقاومة والكفاح ماوسعه الرمى بسهم أو الطعن بسنان . وعلى ضوئها رنا أيضاً إلى أطماعه تلك التى منته بسطوة جديدة فى الدولة الجديدة تعيد له بعض جبروته فى دولة عثمان . الحلم الجميل انقلب كابوساً ، ثم أضحى حقيقة مفظعة أهون على نفسه منها صرعة الكوابيس ! . . . غربت منه آماله إلى غير مآب وأوشك أن يشهد لها بهذا الميدان قبراً يضمها رفاتاً محطمة ! . . لم ينل من السلطة وطره ، ولا من الواتر ثأره . . أفيدع يا ترى الحلبة هكذا فى غمرة الهاربين دون أن يفوز بهدف واحد مما جاء هاهنا يبتغيه ؟ . . .

الآن بطلت المواربة وفرغ الرياء . لم تعد به حاجة إلى التوارى خلف أعذار مصنوعة هو يعلم أنها مصنوعة من زيف خالص . . . فدونه إذن الثأر إن عداه الوطر فى رجائه المعسول وحلمه الجميل . ولن يعود إلا بعد فراغه من الانتقام . .

وسل الرجل من كنانته سهماً ركزه بقوسه ، ورمى بعين يلتهب لحظها صوب حليفه الكبير الكسير ، ثم أتبع النظرة الرمية فأصاب ! . .

عندئذ اشتفت نفسه وأحس الراحة تملأ قلبه . فلأول مرة فى حياته أرضى مروان ضميره إذ استجاب لصرخة طالما ترددت فى أعماقه فلم يلبها إلا الآن . . . وحين رأى السهم قد نشب بطلحة أحس أنه نال شقا من هدفه ، هو الثأر لعثمان . .

فيا ترى قد فاء إلى الحق إذ رمى فأعلن للدنيا أى امرىء كان قد قاتل الشيخ أو فى القليل من كان أول عون فى القضاء عليه ؟ . . أم علم الثعلب أنه لن يشم بعد يومه فائدة ترجى من وراء الضيغم المهيض ، فاستأسد وأصماه ؟ . . .

إن وقت النفاق قد فات ، والحلف الذى كتبه الطمع بينه وبين طلحة لم يعد له الآن بقاء بعد هذه الهزيمة القاضية على المنى والأحلام ، وكذلك نزع الرياء عن ولائه الموقوت . .

وغامت عين القائد الجريح . فلعل بعض قطرات من عرق الجهد رانت على ناظريه ، أو لعلها دمعة سفحها وقد شهد كيف يكون تنكر الحليف للحليف . . . ولكنه مع ذلك لم يبرح أرضه ، ولم يحن ظهره أمام الأحداث التى راحت تنوشه

كأنها كلاب . . بل قوم الرجل من قامته ، وشد رأسه جليلا مهيباً كما يجدر بقائد يعرف لنفسه أنه العلم لجنوده ، ما يزالون يلتفون به ما بقى خفاق الديباجة . . .
ثم كظم آلامه المبرحة وصاح :

« إلى ! . . إلى عباد الله ! . . الصبر . . الصبر ! . . »

ولـكنها كانت صرخة فى فلاة . أو كأنها دعوة إلى النجاة ! . . إنه ليشهد قومه تأخذهم فزعة فلا يزيدون إلا انفضاضاً عنه ، وفراراً صوب البصرة إلى منتجع حسبوه يدخر لهم الأمن والسلامة . . . ولولا أن كبح من زمام مطيته الفزعة لخبت شوطها هى الأخرى مع الفلول المهزومة .

فما كان أمر عيشه تلك الآونة وما أقساه ! . . ود لو نزف الدماء الباقى من عمره مع دماء جرحه ولا يرى عاراً هو من الفشل عليه أشد . فكم غرته الأمانى كما غره الآن أولياؤه . وكم غلبه اليوم على شجاعته وهنه . ولو أسعفته كفه لصال سيفه ، وللقى مصرعا حريا بجلد الأبطال . . .

وإنه لنهب ضاع بين وجع جرحه وألم نفسه إذ مر القعقاع به فشهده يكاد أن ينوء ويتهاوى إلى الأديم لا يتماسك من ضعف ولا من هزيمة ، فرق له قلبه ، وأذاب النبل فيه حقد الغريم ، فأسنده فى عطف وقال :

« يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات . . »

فأرسلها إليه نظرة تفيض بشكره ، وهتف بخادمه بصوت واهن خفيض :

« يا غلام . . . أدخلنى ، وابغنى مكانا . . . »

وكذلك غاب الرجل عن الميدان ، مخلفا على أدعه مع الأشلاء المتناثرة لجنده ، أشلاء الآمال المريضة ، والأحلام الحلوة التى طالما راودته من قبل فى اليقظة وفى المنام ! . . .

٧

أمسكت عائشة فى يديها الزمام . .

إنها لحظة حازبة ، تذهل المرء عن كيانه . ندرت فيها الرؤوس ، وهاصت النفوس ، وغدا المصير وقفا على الأقدام السباقة ! . . ولكنه كان سبقا إلى فرار ومنتجع هزيمة . كلما رمت السيدة بمين متلهفة من خلال ستر الهودج طالعتها النتيجة المريرة ، مقبلة عليها سريعة كسرعة خطا جيشها الهارب ! .

ولم يكن ثمة شيء يمسك على قومها عزمهم المنهار ، فلا قوة لهم معنوية تثبتهم وإن توفر لديهم العتاد . . وهل النزال إلا رباطة جأش وثبات جنان قبل ضربة سيف أو طعنة سنان ؟ . . إنما أصحابها غدوا قطيعا من الشياه الفزعة أعارها الخوف أجنحة تنأى بها عن الذئاب المنقضة . . . وفيما بدا قد فرغت قلوبهم من الشجاعة لأنها فرغت من إيمانها بالقضية التى قاموا يناضلون عنها . فلو كانوا ذوى مثل سامية لعز على قوى البشر أجمعين أن تزحزحهم شبرا واحدا عن مواطىء أقدامهم فى الميدان . . .

أما الآن فليس معدى من علاج حاسم سريع حسبما تقتضى الآزفة وقد ذهب الراعى فانتشر أمر القطيع الجزع أيما انتشار ، وتفرقت هاهنا وهناك فلوله فرادى وجماعات . . . ذهب الزبير ، وذهب طلحة على أثره ، وتركا وراءهما شراذم فى حاجة إلى من يرأب صدعها ويربط بين قواها المحلولة ، أفتتقدم السيدة فتمسك الزمام الذى أوشك أن يفلت أم توجه «عسكرا» وجهة البصرة وتفر هى الأخرى مع المندحرين ؟ . . .

لم تعرف الجبن وإن كانت امرأة طبعها أميل إلى حب العافية والسلامة . فبقلبها بقية من إيمان بأنها أقبلت لهدف محمود هو إقامة حد من الحدود — الاقتصاص بالدم لدم حرام مسفوح يكاد أن يضيع . وكانت أيضاً تستشعر الرغبة فى الانتقام لطلحة بن عبيد الله ، فما تدرى وقد ترك الوقعة أقضى أم سيمهله جرحه حتى مطلع النهار . . . أما صاحبها الآخر ، الزبير ، زوج أختها أسماء ، فمصيره

بكفة القدر ، لا تعلم أى أرض الآن وطأتها قدماه أو أضحت مثواه . فلو قضى تحت عينها إذن لبرأت شيئاً من هذا القلق البالغ عليه لأن الدنيا كلها — فيما تشعر — مفروشة أمامه بالمصارع ! . . .

وكان حقا ما حدثها به قلبها عن أبى عبد الله ، فما ألقت عليه مرة عينها بعد لحظتها تلك ، حين رأته يوشك أن يكون فريسة سهلة لرمح عمار . . . إذ ذاك شهدته وبقلبها وجيب ، وبحلقها غصة بمثها الهلع ، وبعينها دمعة حيرى يرسلها الخوف الطاغى ثم يهم أن يمسكها الرجاء الذى يراود النفوس ساعة النكبات المجتاحة . فقد مشى عمار يشق الصفوف ، وإنه لشيخ أوفى به عمره على آخر مرحلة من مراحل الحياة ، فما أقعده الكبر ولا أبطأت به شيخوخته عن خوض غمرة الموت . . . ثمة شيء — فيما يلوح لعينها الرقيبة — يسير خطا هذا المعمر الواهن الحمش الساق . شيء غير القوة ، وغير حمية الشباب ، وغير الدم الحار فى العروق والأوصال كان يركب به من المواطن ما ينكل عن ركوبه الشباب الأجلاد من العزائم المواضى والصلابة التى لا تلين وكان مندفعا خلال جندها كأنهم أغصان تقصف لضغطه وهو إعصار ، فإن هى إلا لحظة حتى رأته قد نفذ إلى الزبير فى مستقره فخازه برمحه المسدد ، وسد عنه كل منفذ فلا عاصم ولا نجاة . .

عندئذ أحست الوجيب ، وعانت الغصة ، وعالجت برهة ، دمعتها الحيرى بين محجر العين وسياج الأهداب .. . لاح الزبير شارد النظرة ، مضيعا ، على قسماته مشى اضطرابه كمشى البغتة فى ملامح فريسة احتوتها الشراك ... ولاح ابن ياسر فى غبرة لونه ، وبما اكتساه من فراء ، كثعلب ، ثوبه الإهاب ورمحه المخلب ! ..

فلأمر ما أعاد الوحش الظافر ظفره إلى إهابه وعف عن الفريسة المخذولة بنابه ... فى اللحظة التى حسبت العيون الرقيبة أن ستشهد الدم يخضب سن حربته خلفته الضراوة ، ولم يكن ثمة ما يحمله على رد رمحه عن غريمه فى هذه الآونة التى يملك الحماس فيها النفوس وتأخذ المحارب صرعة الوغى حتى تشغله عن كل حواسه . . ومع ذلك فقد نكس الشيخ أداته الظامئة للدم . عاطفة غامرة شملت كيانه فامتلأ لها قلبه رقة على عدوه المغلوب نقضت للمألوف من الوحشية فى شريعة الحروب ... هتف به الزبير فى هوادة كأنها ضراعة :

« أتقتلنى يا أبا اليقظان ؟ . . »

فسرعان ما انتفض عمار للنبرات المبتهلة الحزينة ، فذاب عنفه ، وفاضت بقلبه الرحمة ... إن يكن ظفره بهذا الغريم نصرا فإن المروءة عنده فوق النصر ..

وقال مجيباً وهو يدلى رمحه إلى جانبه ، فى لفظ هزته عبرة غلبت عينه المغضية من استحياء :

« لا ... يا أبا عبد الله ... » .

وكان هذا آخر عهد الزبير بالقتال . ركب فرسه ثم خلا منه الميدان كما خلا بعده من رفيقه ، وراح مصير كليهما فى غمار المجهول

وتلفتت عائشة حولها من جزع وحيرة ... أهكذا تهن عزائم الرجال ؟ وهل من مهرب يا ترى من قضاء ؟ وأين ذهبت المروءات ؟ ... ما رأت جندها إلا رجلا مال عنها إلى يمين أو انحاز مسرعا إلى يسار ثم لا يجمع بينهما غير درب البصرة : مسلك الفرار . فكأنهم جميعا قد عميت أبصارهم عن الهودج القائم بينهم كالقلعة . شغلتهم عن المحنة المحيقة التى خلت البدن وأكلت الروع . ولكن المحن أحيانا تلهم ، وهذه زودت السيدة بما أجل هونا نكبة الهزيمة وأرجأ داهمتها حتى حين ... !

صرخت فيمن كانوا يعدون من حولها متلمسين النجاة . فإذا الخزى يوقف الأقدام الفارة ، ويشلها أن تمعن فى الهرب تاركة خلفها حبيبة الرسول للمصير المخوف ... آبت القلوب ، وقرت النفوس المذهوبة ، وعاودت الناس حمية بعثتها فيهم المروءة فإذا صرخة الحرب تنطلق ثانية من أفواههم ، مدوية الجرس فى نبراتها ابتهال مع الدعوة إلى القتال ...

وهتفت عائشة — وقد رأت الزمر المذعورة فاءت كرة أخرى إلى الثبات ، ملتفة بالهودج كأنها سياج — تدعو قائدى جناحى الجيش ، ابن عتاب وابن هشام ، أن قفا أمام السيل ...

وكان — أول من لباها مضر ، راحت تنضح عن الجمل ما وسعها الدفاع ، فقد مضت النبل ترشقه من كل مكان حتى غدا الهودج عليه كالقنفذ ، ثم تبعتهم

بقية المناصرين. ورويدا رويدا تكون القلب ، فما تكتلت فيه الجموع حتى انفصل بعضها يؤلف الميمنة والميسرة للجيش الوليد الذى تمخضت عنه المحنة ، وعاد القتال كبدئه مسعر الأوار ...

وكذلك أمهل فى عمر الوقعة . وإنك لتشهد الحماس يشيع فى الناس فتعجب كيف أوتيت صرخة امرأة قوة تستطيع أن تحيي موات الأنفس وتملأ القلوب رجـ. ـ ـورة . وما أسرع ما عادت صيحة الحرب على شفاههم إلى الحياة ، يزأرون بها ثانية كمثل صراخ القساورة فى بطن الغاب .. دوت من جديد « يالثارات عثمان » . فيها ضغينة الموتور وثورة الغاضب ، تتنقل بين الأفواه ثم تتجمع مع الأنفاس اللاهثة فى جو الساحة كأنها ملاءة كثيفة تحجب عن الآذان كل ما عداها من الهرج والضجيج ..

واندفعت عائشة فى حميتها المهتاجة فأخذت بكفها قبضة من حصى الأرض استقبلت بها رجال الأمام المتدفقين على حماتها تدفق السيل، فصبتم بها وهى تصيح:

« شاهت الوجوه ! ... »

ولكنها لم تجد شيئا من قوة الهجوم وإن لهجت بدعوتها تلك مرات . بل بلغ التدفق على هودجها أشده . وتلاحمت حوله الرماح ، ثم تلاصقت الأبدان حتى غدت الحراب فى أكف أهلها مشلولة ، عز عليها الحراك . فلعل وقعة قبل هذا اليوم لم تكن قط كالجمل من فرط اشتباك الأسنة حتى لتستطيع أن تسير فوقها مواكب حاشدة من المطى والخيول ! ...

وندت من رجال الأمام صيحة لحربهم جديدة . مضى الآن عهدهم بالترفق وإثارة الذكريات فى النفوس المدخولة عسى أن تفىء بها الذكرى إلى طهرها القديم ... كانوا فى بدء المعركة يهتفون : « يا محمد » كأنهم يشهدون الرسول على أمر إخوة لهم فى الدين آثروا الانقسام بعد الوئام ، ولكن الاسم الطاهر لم ينق الأنفس ولم يغير القلوب . ومضى أصحاب الفرقة وشأنهم ، بعيداً فى مشاقتهم ، وإن ساروا شوطهم على أرض رشوها بالدم . ولم يعد من دواء لهم فى الوطاب إلا العنف يشفى ما ملأ عروقهم من العنت والضغينة ...

هتفوا الآن صائحين :

« يا منصور أمت ! ... »

وانطلقوا على أثرها ينحون الموت فرائس جديدة ! ...

وهتف بهم على وقد شهد التحامهم بالخصوم :

« السيوف يا أبناء المهاجرين ! . . »

خلوا النبل والحربة وهزوا الحسام وهل غيره سلاح يستطيع الآن صيالا وقد التصق الغريم بالغريم ؟ . . إن السيف كان وحده أداة القتال فى هذه الآونة ، يصول ولا يكاد . ويهتز ثم لا ينال غير الأطراف ، من قدم أو ساق ، حتى لم ير قط معركة أكثر يداً مقطوعة أو رجلا بتراء . . .

ومع ذلك فقد نزع النصر وطال الصبر والناس على ما كانوا فيه من شدة التحام . كلما رميت بالعين فيهم أعياك أن ترى بينهم ثغرة تعر منها النظرة ! . . بل غدوا سوراً ضخماً ، وطيد القوام حول « عسكر » كأنه بناء وثيق الجدر ، لبناته وأحجاره من أجسام ! . .

وظلت الرحى دائرة ، قطبها الجمل ، لا تكف لحظة عن الدوران ، ولا تنى تطحن العظم وتعصر الدم ، ما وقع بين شقيها فريق من أولئك أو غيره من هؤلاء فكلا الفريقين وليمة شهية ، تستطيبها الوغى المنهومة ! .

٨

لم يفتر القتال حتى أوشك النهار يزول . وكان الجمل العلم بين أصحابه ، التفت به الكتائب الدافعة . بل غدا لهم مثل الحجر الأسود داخل البيت العتيق ، له قداسة جمعت القلوب والخواطر ، وهفت نفوس كثيرة مفتونة ، أطافوا به إطافة الحجيج بالحرم ، واستشمروا نحوه بما يحسه الوثنى لصنمه . . وهذه الأزد لا تنضح عنه فحسب بالروح إنما قنتت له ، وراح منها رجال يفتون بعره ويرفعونه إلى آنافهم يشمونه فى نشوة من التقديس الضال وهم يلهجون :

« بعر جمل أمنا ، ريحه ريح المسك ! . . »

وكانت عائشة قد راودتها الآمال . كلما ألقت البصر أحست الأمن يقاربها شيئاً شيئاً ، والنصر يلوح لها ببارقاته . فما دام جيشها عرف الثبات من بعد فراره ، فثمة فى رحاب المنى بقية . . لقد غدا الدفاع عنها شرفاً تسابقت عليه القبائل ، واستهانت بالردى فى سبيله . بل كانت تستقبله بالرضا والابتسام ، مشرقة الوجوه كما استقبل المياه ظمآن .

لم ينكل رجل قط إذ ذاك عن موقفه ، ولا أخذته على حياته خشية . فما غدت الحياة عندهم غاية كما كانت ساعة الفرار . دماؤهم الآن فدية رخيصة للجمل الدارع ، وللهودج الحصين ، وللسيدة التى رفعت لهم عصا القيادة . وإنها لترى ما غمر قومها من حمية فتزيدهم بحديثها حماساً على حماس ، وتنطلق الكلمات من ثغرها الذى شده العزم ونحله صلابة ، تهيب بهم ، وتذمرهم إلى المقاومة كأنها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة فيندفعون فى طرائق الموت سراعاً يبتغون الخلود . . .

التفتت يسرة ، وسألت حماتها هناك :

« من القوم ؟ . . . ؟ »

قال صبرة بن شيمان :

« بنوك الأزد يا أم المؤمنين » .

فردت تبث فيهم النخوة وتثير من أمجاد الماضى بأنفسهم مايشترون بمثله الموت سلمة ثمينة :

« يال غسان حافظوا اليوم على جلادكم الذى كنا نسمع به . . .

وجالد من غسان أهل حفاظها   وهنب وأوس جالدت وشبيب »

ونظرت يمنة وسألت :

« من القوم ؟ »

« بكر بن وائل »

فهتفت فيهم .

« لكم يقول الشاعر :

وجاءوا إلينا فى الحديد كأنهم   من العزة القعساء بكر بن وائل » .

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلا استبسل وثبت ثباتا لا يتزحزح عنه أو يهلك ، ثم يتلوه آخر من قومه مكانه ، كأنهم جميعاً شلال ماء ليس يبطل اندفاقه . . . وما سمعها امرؤ من قوم آخر إلا سقط على أجله يتصيده لعلها مزجية حديثا إليه يرفع فى السير شأنه شأوا عاليآ وشأن أهله . كان سباقا إلى الموت لم تخل حلبته ، تدافع فيه الناس غيرا كأفراس سبق كريمة . .

عسكر كان محور الحومة . على خطامه تساقط الأبطال من أعوانه كأنهم فراشات جذبتها وضاءة اللهيب . ولـكنهم ظلوا جهدهم يجالدون الهجوم الذى لم يفتر ولم تنحسر عنهم أمواجه . وما كانوا قط فريسة سهلة لجند الـكوفة المهاجمين بل جاوزوهم دراكا الهام بالهام والحسام بالحسام ، كلما استقبلوا منهم فئة خروا وإياها عند قوائم الجمل صرعى كأنما كانوا جميعاً على موعد والحتوف قرب أخفافه !.

فلعل الأرواح لم تعرض قط سلعة رخيصة كعرضها بهذه السوق !. . وكان اليوم قد صار أصيلا يصبغ الثرى بسيله ، حتى احمرت الأرض فلا يدرى أمن لون الشفق سكبته الشمس المائلة عند جانب السماء أم الأفق غدا صقال مرآة انعكست عليها حمرة الجروح . أما الأنفس فخالت غيرها منذ قليل ، إذا اقتحمت بخيالك الجسوم المـكدودة إلى القلوب فيها سمعت خفقها الدائب يردد أكرم الأحاسيس . الآن شغلها النبل عن الذات . خلفتها الأثرة البغيضة وملأها الإيثار . أصحاب عائشة أبدلتهم المروءة غيرهم رجالا تثور فى عروقهم دماء النخوة أن رأوا أمامهم أنثى توشك أن تـكون مرشقا للسهام ، وأعوان على زادتهم المقاومة صلابة فعادوا عزائم مشدودة كوتر القوس عند التصويب ، لا هدف لهم إلا أن يتبعوا التضحية بأخرى تشغل وعيهم عن نداء الحياة . .

وكانوا آية فى إنـكار الذات والفناء فى شخص قائدهم العظيم . كانوا سفرا حافلا من الإيمان بحقه تقلب صفحة فتطالع بعدها صفحات أجل من سابقاتها وأزهر ، فاقت الإحصاء وجاوزت الحصر حتى هان بها المجد ورخص الفخر !. .

من البدء كانوا أحرف الوفاء !. . الهول الذى خاضوا غمراته لم يباعد قط ما بينهم وبين إخلاصهم للإمام ولا بمثل خط اليراع . . ! ولا شابت الوغى

المحتدمة حبهم إياه بشائبة من ريبة وإن عم الكرب أو فدح الخطب . ولكم همت الحرب أن تدع بيوتاً لهم خواء إلا من أنة أرمل ثكلى ودمعة صغير يتيم ومع ذلك فلم تستطع الانتقاص من رجولة الرجال ، إنما مضوا أشواطهم جميعاً — من شباب وشيب — على أرض الساحة يستبقون متنافسين إلى موت أعز عندهم من الحياة . .

استبق الجند يعصفون بن حيالهم من حماة عسكر ، لا يردهم غير الهلاك وإن تشابكت حوله الأسنة ، وإن نافح عنه أقوام أشداء أجلاد بالعدد أو بالعتاد . ولقد وقفت مضر كالطود عزيزة النفر تنثر الموت لمن حدثته نفسه بالتقدم فلم تغن عنها عزتها ، بل انبرت لها طائفة قليلة فيها بنو صوحان يسدد خطاهم ولاؤهم للإمام ، ليس منهم رجل تمسكه خشية أو يرده وعيد . وحين سمع زيد من بين الناس صوتا محذراً يقول له :

« تنح إلى قومك يا ابن صوحان . مالك ولهذا الموقف ؟ . . ألست تعلم أن مضر بحيالك ، وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ . . » .

ابتسم على الأثر وقال :

« الموت خير من الحياة . الموت أريد ! . . » .

فكانت له على الفور طلبته . وسار سبيله إلى حتفه يتبعه أخوه سيحان ، ثم يوشك أخوهما صعصعة أن يرد نفس المورد لولا بقية من أجل حرمته أمنيته ...

وكذلك مضى المقاتلة من جند الكوفة يعصفون بأهليهم ورجال قبائلهم البصريين ، ويقصفون قصفا شديدا كل من وقف أمامهم بعقام صيال . وبقدر ما بلغت حمية أزد عائشة الذين قدسوا الجمل بلغ حماس الوغى بأزد على ذراه ، فتساقطوا على عسكر عسى أن ينالوه ، لا يعنيهم أن يقعوا تباعا صرعى بل يهمهم ويعلك بالهم أن تميل رايتهم . . . انبرى بها فى البدء مخنف بن سليم يشق قلب الجموع فصاده حينه ، فتناولها منه الصقعب فقتل ، فالتقطها أخو مخنف عبد الله . وظلت هكذا رافة خفاقة ، كلما أوشكت أن تفلتها كف قائد صريع بادر آخر من بيته يرفعها ليخلف سلفه على مزالق الحمام ! ...

بمثل هذا تتابعت فرائس الموت ذلك النهار . وبأبلغ منه نالت الحتوف نيلها من بكر وعلها إذ ذاك فى أيدى الذهليين . . فلعل قادتهم أمعنوا إلى أبعد الأشواط فى التضحية والفداء ، واسترخاص الحياة ، لأننا نسمع أبا العرفاء الرقاشى يقول للحارث بن حسان الذهلى ، حامل الراية ، وهو مشفق عليه :

« أبق على نفسك وقومك يا ابن حسان . . . » .

فلا يأبه لتحذيره ونصحه ، ولا يلقى نظرة نحوه أولى بهـا موقع القتال ، بل يهز علمه ويصيح بقومه بصوته الجهير :

« يا معشر بكر بن وائل . إنه لم يكن أحد له من رسول الله مثل منزلة صاحبكم فانصروه . . . » .

ويندفع راضيا نحو حتفه ، ويسير على أثره ابن له ، ثم خمسة إخوة يسلكون نفس المصير . . .

وتشيع المقتلة توآ فى الذهليين فيسقط منهم خمسة وثلاثون تباعا فى فترة من الزمن قصيرة كلمحة الطرف . إنهم تهاووا كما تهاوت السنابل على منجل الحصاد . ولكنهم لا ينثنون قط ولا ينكلون . وتمضى بقيتهم شوطها فى الحومة يتسامرون كمن فى ندوة . . يقول رجل منهم لأخيه وسيفه يقد الأعناق :

« يا أخى ، ما أحسن قتالنا إن كنا على حق »

فيعاجله الآخر وقد خشى أن يكون إيمان صاحبه مسته ريبة :

« فإنا والله على الحق . إن الناس أخذوا يمينا وشمالا وإنا تمسكنا بأهل بيت نبينا . . . » .

سفر حافل بآيات الإيمان بالهدف الذى قاموا يناضلون عنه ، ملأته صور من الوفاء والبطولة تجل عن الحصر ايهون معها المجد ويرخص الفخر ا .

٩

شاعت المقتلة فى أصحاب على شيوعاً عز مثله فى الوقائع والمعركة تسير سيرها إلى النهاية . وكان الموت إذ ذاك نقاداً يتخير الخاصة من القواد قبل الأجناد ، فهم على كتائبهم ، يشقون بها أمواج العدو كما يشق النيزك كسفة الظلمة . وما منهم إلا رجل قد وعى وصية إمامه التى أدلى بها إلى ابنه محمد حين دفع إليه براية الجيش وقال يبصره ويحضه على الثبات عند اقتحام الغمرات :

« تزول الجبال ولا تزل ! . . عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تدفى الأرض قدمك . ارم ببصرك أقصى القوم ، وغض بصرك : واعلم أن النصر من عند الله سبحانه . . . »

ما من رجل فيهم إلا اعتنق هذه الوصاة شرعة أعز على التبديل والتأول فكلهم للإمام ولد يأسره البر وتملكه الطاعة . وليس منهم إلا راغب فى مصير يشارك به رافع اللواء وإن فدحتهم المصاير ، فخظهم جميعاً سواء . وعندما أمر على ابنه أن « أقدم بهذه الراية حتى تركزها فى عين الجمل » لم يكن يدفع به لغير فكى الموت ، ولم يكن أيضا قد تجرد من شفقة عليه بل كانت نفسه تسيل رقة وخشية على فتاه أن يتخطفه أجله . ولكنه كان يرنو لغاية أعز من عاطفته يرخص فى سبيلها الفداء بالمال والولد والروح .

على أنه كان يحتجز ولديه الآخرين عن اقتحام المهالك ، فذانكم سبطا رسول الله لو ذهبا لانقطع نسله العاطر وعطلت دوحته الزهراء من ثمارها الطيبة . . فكأنه استهدى سنة محمد فى أخريات أيامه عندما احتجز علياً عن القتال بعد مصرع أخيه جعفر حرصاً عليه أن تنقطع ذريته الطاهرة بموته . وهل بقى الآن لرسول الله غير سبطيه أحد ينقل نسله إلى الأجيال ؟ . .

قيل ذات يوم لمحمد بن على :

« لم يغرر بك أبوك فى الحرب ولا يغرر بالحسن والحسين ؟ . . »

فقال الفتى الذى عرف لأخويه قدراً عند ربه وعند النـاس يغبطهما ولا يحسدهما عليه :

« إنهما عيناه وأنا عينه ، فهو يدفع بيمينه عن عينيه . . . »

وكذلك كان يركب المهالك ويخوض غمرات الموت راضى القلب رخى البال يقوده الولاء والإيثار ، وتدفعه شجاعة تدفقت فى أوصاله من صلب أبيه . وعندما انبرى للجمل ليركز فى عينه الراية لم يقعده الهول عن التقدم ، ولم تؤخره الوقدة الحامية التى شبها رجال عائشة حول حصنهم الحى حتى غدت الأرض دونه قطعة من الجحيم . . . فكأنه إذ ذاك أعدى جنده بهذه البسالة التى تغلغلت فى كيانه فاندفعوا إلى الغمار مثل اندفاعه لا ينكصون كأنما قد مات الموت ! . . وأخذت الرحى الدائرة تطحن منهم القادة ، كابراً بعد كابر حتى قتل على علم على من اليمن وحدها عشرة ، وعلى راية ميسرته طائفة موفورة ممن تألفت منهم كتائبها المختلفة الأصول والبطون . ولو نزع المرء إلى الحصر لأعياه أن يلم بالمصارع . ولكنها كانت منجلا حصاده الرءوس من كلا طائفتى المقتتلين ، يسبق قادتهم إلى الحتوف تتبعهم من الجند ألوف تلى الأوف ! . . .

ونظر على وما زالت المعركة أمامه مصطفقة ، بين مد وجزر كأمواج اللجة فى مهب العواصف . . هذا سراج البصرة يضطرب ويتذاءب ، يلعب بذبالته تداول الصراع ، وها هى خفقاته تلتمع آنا وهاجة وآنا آخر خابية الضوء كأنها أشرفت على الخمود . ولكنها لا تكف عن بعث سناها ينير لأصحابها طريق الجلاد المرور . وما دامت البهيمة الدارعة باقية بينهم على قوائمها فلا نجاء إذن لهم ولا لخصمهم سواء بسواء ، ولا حياة لامرىء أو بقاء .

الإمام علم هذا قبل أن تشيع المقتلة فى الناس كل هذا الشيوع . وحال من البدء أن يكف غائلة الهلكة فهتف بأصحابه :

« من رجل يحمل على الجمل ؟ . . . » .

فانتدب له هند بن عمرو المرادى ، ولكنه لقى مصرعه بسيف فارس كان يحمى البهيمة ، ويمسك بخطامها معتزاً كما أمسك فى يديه بوثن معبود ! . . ولقى أيضا مصارعهم حفنة آخرون من خيرة العلويين ، منهم زيد وأخوه شيحان ، وعلباء بن الهيثم ، كلهم اخترمه سيف الفارس ، ونفذ إلى صميمه برجفة الموت . . .

عندئذ دعا الإمام إليه الأشتر ، وعمار بن ياسر ، فوجههما نفس الوجهة وهو يقول :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخمد ضرامها ما دام حيا . . . إنهم قد اتخذوه قبلة . . . »

فانطلق الرجلان فى فتية من مراد . واستبق عمار سبيله فى ثوبه الفرو وقد شد خصره بحبل من ليف . . إنه ليسرع الخطا ما أمكنته التسعون التي قضاها بهذه الدنيا عازفا عن وجهها مستدبرا أطايبها وأمانيها المغرورة . حتى إذا شق له سيفه طريقا بين عدوه قطعه على الأشلاء والجماجم ، انبرى له نفس الفارس الرهيب الجناب ، يهم أن يستقبله ، كما استقبل الذين قبله ، بالحمام النهم على شفرة حسامه . . .

ذلك كان ابن يثربى ، سلف كعب بن سور على قضاء البصرة ، قد نشط وتيته ونفر عرنينه ! . . الشجاعة كانت لحنا يترنم به خفق قلبه ، والخيلاء جاءت صدى لنصره على تلك البضعة من أخصامه الذين راموا الجمل فدهتهم الردى من دونه . . . فلعله حين رأى الشيخ يدب نحوه حسبها خطوة لعمار نحو القبر فابتسم رثاء أو استهانة . وهل افان كابن ياسر طاقة بعجندل المغاوير ؟ . . .

ولكن عمارا كان أبصر منه بالمغامز ، أعرف بالنفوس من أين ينفذ إليها العطب نفوذ الديدان فى الحمأة الرخوة . كان الشيخ واسع الحيلة كثعلب ، عرف من غريمه افتتانا بالفخر فنفذ إليه من خلال خيلائه . فما أن سمعه يرد مزهوا شعرا غثا يشيد بانتصاره على ضحاياه حتى هتف به عمار :

« إن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة ، فلقد لعمرى لذت بحريز وما إليك سبيل . . . »

فكبر على ابن يثربى تحدى الشيخ المعروق ، وخشى إن هو لم يسرع فيلحقه بمن أصاب أن يتكث عليه فخره . . فليردينه إذن ثم يعود إلى خطام الجمل يمسك به ، وإلى الهودج ومن فيه يحميه . . .

واندفع غاضبا نحو عمار ، وهز سيفه سريعا ثم انقض به انقضاض صاعقة . ولكن الشيخ الواهن الضعيف كان أسرع منه حركة وأكثر يقظة . قبل أن تنتبه العيون الرقيبة سبقت درقته اللحظ كما سبقت السيف الهاوى فتلقت الضربة .. وفرت من ابن يثربى فرصة للمباهاة ! . .

فما أسرع ما انتقلت البسمة من فم الفارس الساخر إلى شفتى ابن ياسر ! . . وما أضل عين الكبرياء الجريحة ! . . فى سورة من غضبه اندفع ابن يثربى يعالج السيف المنتشب بدرقة غريمه فكان كمن شاء اقتلاع دوحة بعيدة الجذور فى أغوار الأرض . عصاه السيف وتخبطه الاضطراب الذى أوقعه فيه حرج موقفه أيما تخبط . فقد غدا الآن أعزل لا يملك شيئا لنفسه ، حياته ملهاة فى يد العدو الهزيل . . .

وشهد الناس إذ ذاك مجندل المغاوير مسلوب الحول ، ذلك الذى شق خندقا من الموت حول عسكر هم أن يحتويه خندقه ، وأضحى الرثاء كله الذى أحسته الجموع نحو الشيخ الواهن منذ قليل يحوط البطل الصنديد . ولم يمهله حينه ، ولا ترفقت به النازلة التى أعدتها خيلاؤه لخصمه المجترىء عليه ، بل جاءته سراعا فى برقة من حسام عمار لمعت ثم هوت فأطاحت عنه ساقيه . وتركته لقى على الثرى قد انهار دفعة واحدة كما انقض بنيان . . .

فكم من صريع إذ ذاك رقد عند قوائم البهيمة ؟ وكم علما انتكس ونجما هوى من الأعلام والنجوم ! . . طائفة جمة من الوجوه والأكابر . وزمرة بالغة لقيت الحتوف وافرة وما فيهم إلا أماجد وفحول ، حتى لقد ثكلت قريش من أعيانها على خطامه سبعين . . إن عائشة لتنظر فلا تبصر ، فالدمع حجب عنها مضاجع الهواجع والأسى السابح فى جو آمالها سحابة من قتام اليأس وسواده ، ردتها توا من نعمة الحلم إلى نقمة الواقع . . .

وأخذ الزيت فى السراج ينضب . وبدأت الذبالة تجف وتخفق خفقتها الباقية المؤذنة بالانطفاء . . أين من الحومة الآن بنو ناجية ، أولئك الذين كانت تذمرهم السيدة فتقول : « سيوف أبطحية وسيوف قرشية ! » ؟ . وأين الأزد التى فتت البعر

تشمه فى نشوة غامرة من الولاء والتقديس الضال ؟.. وأين بكر الدارعة فى الزرد والحديد ذات العزة القعساء ؟ . . تخطفتهم جميعاً المصارع ، وخلت منهم ساحة القتال إلا أشلاء منثورة على أديمها تؤلف أدسم وليمة للنسور والعقبان ! . .

ومع ذلك فلم يبرح الرجاء قلب عائشة بعد نزول كل هذا البلاء . وما زال النصر يخطف بخيالها خطف البرق فى ليلة قر كثيفة الغيوم . فثمة بحيالها بنو ضبة ، الذين دعتهم « جمرة الجمرات » تحملهم أقدامهم وترتفع هامهم ، وإنهم ليدفعون عنها كدفع الليوث ، وينطلقون فى جلادهم خفافا كأنما راموا هزيمة الموت ! . .

ولكن السور الذى بناه أولئك الأبطال من جسومهم حول الهودج راح يرق مع اللحظات ، كلما حميت الحرب وزاد الكرب . . أخذت تنثغر فى كيانه المتين ثغرة هنا وثغرة هناك ، الموت أعتى عليهم عدواً من أن يستطيعوا جلاده ! . وبدأت أيضا ترق معه غلالة الأمل التى كانت تغشى خيال عائشة وتمسك قلبها الشجاع أن يذوق وخزة الهزيمة .

عندئذ همست ، وصوتها الخفيض الراعش تحبسه أن يجاوز سمعها ، وقد سرح همها على خديها فى دمعة :

« ما زلت أرجو النصر حتى خفتت أصوات بنى ضبة . . . »

وردت نفسها عن اليأس الطاغى ، جاهدة ، إلى حفنة منهم بقيت فى الحياة . نعم ما كان من بلاء قومهم من أجلها ، ومن وفائهم لها وفاء لم يأكله الموت وإن أكل كثرتهم ! . . إن قلبها المثقل بالأسى لا يستطيع أن يكن حزنا عليهم يكافىء ما أبدوه من شجاعة . وإن عينها لتطيف بمواقع أقدامهم فتراها خواء لولا شرذمة أخرى من الجند ملأتها وخالطت بقيتهم ، تهم جهدها أن تناوهم فى مسارى الخلود . . .

وقالت عائشة تسأل عن الحماة الجدد :

« من أنتم ؟ »

« بنو عدى ، خالطنا إخواننا من ضبة . . . »

فزفرت من حسرة تقول :

« مازال رأس الجمل معتدلا حتى قتلت بنوضبة حولى . . . »

فكأنما لسعتهم من كلامها بنار ، سرت دماؤهم فى عروقهم شواظا فوقعوا تباعا على الموت يحاولون رد موكبه وسد السبيل دونه عن الهودج ومن فيه ، حتى أقاموا كرة أخرى رأس الجمل رافعة شماء . . .

ولكنها كانت الخفقة الباقية للسراج يلفظها ثم لا ينير . . .

وكما يسطع ضوء الذبالة أزهر وهاجا فى خفقته الأخيرة ، فكذلك أبدى رجال عائشة من ضروب الشجاعة والجرأة فى الدفاع عنها مالم يبده أحد منهم قط من قبل ، وما يعز مثله على طاقة البسالة .

١٠

هاض جيش عائشة .

لم يعد جيشاً بعد . لا ساقة ولا جناح . غدا كله قلبا ، بل شرذمة من القوم عند الجمل ، تنضح وسعها عنه فى اضطراب وزحام . يتنافس أفرادها فى مسك خطامه ، وفى رفع رأسه عاليا كما يرفع القائد اللواء . كلما سقط حام مجندلا تحت قوائمه زحف آخر ليمسك بعده الراية العجيبة ، ليتبعه إلى نفس مصيره . . .

ولم يعد لهم أيضاً قائد يوجه قواهم ويسدد خطاهم . كلهم غدا ذلك القائد ، يعمل عفو خاطره وحسبما تملى عليه حركة الصراع العنيف المشبوب . . . حتى ابن عتاب رضى مختاراً أن يترك عصا القيادة وآثر عليها الخطام ، بل آثر وهو مكره فلا مجال أمامه للاختيار وإنه ليظل حامل هذا اللواء حتى تأتيه ضربة سيف تفصل عنه يمينه ، ثم ترسله على أثرها حطاما بين الأشلاء . . .

وأضحت السيدة الآن لا تذمر الكتائب ، ولا تثير فى الناس حماس الحرب بالتحدث عن أمجاد قبيلهم وأهليهم ، فقد تفككت وحدتهم ، وباتوا فرادى بعد تكتل واجتماع . وراحت عينها تستهدف الزمام وحده ، كلما أمسكته يد سألت عن صاحبها ثم أثابته عن بلائه بلفظ مثير . . .

وسألت عن ممسك الخطام فقيل :

« محمد بن طلحة » .

فدعت له . واستلهمها الفتى ما تريد :

« مريني بأمرك يا أماه . . . » .

فقالت وقد أخذها الريب فى بقائه حيا إلى كثير :

« يا بنى . آمرك — إن تركت — أن تكون كخير بنى آدم . . . »

وكان هذا آخر ما سمعه فى الوقعة كلاما واضحا بغير إبهام . وكان آخر قوله أن صاح وهو يحمل على السيول الدافقة من جند عدوه :

« حم . . . لا ينصرون »

ثم إحتواه الرغام . . .

ثم أقبل امرؤ طوال نحيل ، أجرد الوجه لا يخف وجنتيه شعر ، أطلس اللون مثل ذئب الصحراء . فعندما أمسك زمام البهيمة لم يعلن نفسه كما كان يعلن سواه ، بل ختم على شفتيه بالصمت . . . قد كان يؤثر أن يجنب السيدة مغبة الإعلان . . .

ولكنها سألته . ثمة رجفة من القلق زحفت إلى صدرها ، لها مثل ملمس الرقطاء ، جعلتها تسأله فى اضطراب :

« من أنت ؟ . . »

« ابن أختك . . أنا عبد الله » .

فصاحت جزعة من خشية عليه :

« واثكل أسماء ! . . »

غير أنه لم يزايل مكانه ، ولم يتخذ لنفسه ملاذا بعيداً عن الموقف الذى كان شدقا للموت يزدرد كل من دنا إليه وإن جزعت خالته وودت مخلصة لو جاوزه وتركها وحدها لمصيرها كيفما يكون . . . بل وقف يذود ويصول . . .

فإن هى إلا لحظة حتى جاء الأشتر وقارب الوجار ؟ . . . إنه ليمشى إلى مربض الذئب الأطلس ، يروم صيداً يقصف به الجمل ، ويخضع صاحبته ، ويثكل أسماء !.

ولمحه من أعوان السيدة عبد الله بن حكيم بن حزام ، فأسرع يحول بينه وبين مبتغاه . لم يغب عنه قدر الأشتر ، ولا شك لحظة فى أنه جاءهم برسالة الهلاك . . . ولكن ضربة واحدة قضت على المعترض وفتحت الطريق . . .

ووقف القرنان وجها لوجه تلتمع فى حدقهم نظرة الضراوة . فما تقابلت عيونهما حتى تقابل سيفاهما ، وما اختلفا ضربات إلا كان لجسم عبد الله بن الزبير منها أوفى نصيب ، كلما رمى غريمه بطعنة أصابته مقابلها بضع طعنات . . .

أما السيدة فى هودجها فلعلها ذاقت الممات مرة بكل ضربة أسالت من ابن الزبير ولو قطرة واحدة من الدماء ... فخصمه شديد عنيد ، بدا كأن قد آلى على نفسه ألا يدع ربيبها إلا جدثا هامداً فارقته الحياة . . .

وصاحت كرة أخرى من قلبها الكسير :

« واثكل أسماء ! . . . »

وكان الأشتر حينذاك قد فل من حد مصاوله ، وأحاله كتلة صامتة من اللحم لا تنطق فيها إلا ألسن الجروح . . ومع ذلك فقد ترفق به وسمه ، ورد سيفه أن يجهز عليه . كم لقى المنتصر من هذا الكبح الذى حرمه لذة الظفر كاملا غير منقوص ! . . . إن بقلبه هاتفا رحيما يمسك عليه عنقه — ذكرى من الماضى الغابر يوم كانت النفوس كلها تدين بالألفة وقد صفت من شوائب الضغائن . . .

ولم يجد الرجل متنفساً لضيقه الذى أحسه غب الكتمان إلا أن يأخذ برجل خصمه المهيض فيقذف به فى الخندق كقذفك الصخرة وهو يقول :

« والله ، لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر ! . . »

وتركه حيث رماه نهبا تقاسمه الموت والحياة . . .

كان على حينذاك قد أبطأ عليه الحسم . فالبعير ما زال قائما ، رافع الرأس كالعلم بين الكتيبة ، وحماته نسوا الموت وإن لم تنسهم نوازله ... كلما مضت إليهم فئة من أخصامهم حكموا بينهم وبينها السيف حتى شاع القصف وذاع الحتف . وظل كلا الفريقين على عناده لايتزحزح ، ولا يطأطيء رأسه للشدائد ...

أبطأ على الإمام الفصل حتى غدا بينا لديه أن الناس لن ينفضوا أو تسقط عائشة صريعة فى الغمار . وخشى عليها هذه المغبة الحزينة التى ستجلل حتما بالعار جهاده وتسم جلاده . . . ومتى كان يستبيح من الأقران المغاوير إلا الأكفاء دع النساء ! ... وأين له النصرة عند الأجيال لو صرع رجاله امرأة وإن أجلبت عليهم بالخيل والرجل وعدة القتال الرهيبة بعد إجلابها بالحقد والضغينة ؟ . . وكيف يستطيع إذن أن يحتفظ بوفائه لذكرى صفيه رسول الله لو حم الآن فى امرأته القضاء ؟ . .

عندئذ صرخ فى أعوانه ممن هم أدنى إلى البعير منه :

« اعقروا الجمل . فإنه إن عقر تفرقوا . . »

ثم انثنى إلى رجل من ضبة فأمره :

« دونك الجمل يا ابن دلجة ! . »

نخف الرجل لما انتدب له يشق زحمة الخلائق المشتبكة على مواطئ البهيمة وإن شعوره ليدفعه دفعا إلى القيام بهذه المهمة الحبيبة إلى نفسه عسى أن يبقى على ما فضل من بنى ضبة أهله الذين راحوا صرعى إلا قلة . .

غير أن الاشتباك أوشك أن يفسد عليه أمره ، فما يرى فرجة فى الناس ينفذ من خلالها إلى البعير ، ولو نفذ لما أمن أن تهتبله طعنة يضيع على ظبة سيفها أمله كما يضيع دمه ... فلعل القعقاع رأى من حيرته حينذاك علائم علت ملامحه ، فقال له يبسط رأيا يحقق أربه :

« يا بجير ابن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين . . . »

فلمعت على الأثر عيناه الآن تدرك الحيلة مالا يدرك البأس

وصاح من مكانه بقومه الضبيين حماة البعير :

« يال ضبة ! ... يا عمر بن دلجة! »

فإذا صوت ابن عمه يأتيه :

« ما تريد يا بجير ؟ . . »

« ادع بى إليك . . »

فدعا به . حتى إذا بلغ مقربة منهم قال يستأمن :

« أنا آمن حتى أرجع ؟ . . »

« نعم . . . »

فما رنت بسمعه الكلمة حتى وثب وثبة شيطان جعلته من الدابة عند قوائمها. وقبل أن ينتبه أحد إلى ما يروم ، كان سيفه قد انسل ، ثم هوى فاجتث ساقها وأهوى بها تهدر من ألمها على الأديم .

حدث هذا ولما يطرف لحظ ، ولما ينقشع عن الجو صدى لفظة الأمان التى ألقاها ابن عمه إليه . ووجم الناس فقد أذهلتهم المفاجأة ، ولكنها وجمة مباركة، شلت حركة الحماة أن يعاودوا القتال . . . لقد ذهب العلم فهاض أمر الكتيبة ، تحطم الصنم الذى قدموا له كل هذه الضحايا والقرابين ! . .

وهتف على فى ذات اللحظة التى سقط فيها البعير :

« أيها الناس ، إنكم آمنون . . . »

فارتدوا إلى وعيهم حيارى ، ولكنهم منحوا الحياة . . . انطوت الآن محنة الحرب ، وبقيت محنة السلام ! . . .

بعد المعركة

١

هدأ النقع وهمدت النار . الجمرة التي تأورت فشبت جحيما عادت سيرتها الأولى سوداء باردة ، قد غلفها رماد الهزيمة ورماد الانتصار . . . وفاءت النفوس بعض فيئها إلى الطمأنينة . والقلوب التي تملكتها من قبل سورة الوغى حتى التمست أمنها فى المنايا ، غلبها الآن على مبتغاها الحياة فوجدت أمنها فى السلام . . .

وكانت كلمة الأمان قرب السيوف المسنونة . ما إن دوت حروفها فى أرجاء الميدان حتى أسلم القتال علمه ، فترجل الفارس ، ووقف الراجل ، ورقدت فورة الحماس فى ظلال السكينة ، ثم ألقوا جميعاً زمامهم إلى وجهة مذهلة ، لا يعرفون أيان تفضى بهم إلى مصيرهم الخفى المجهول . . .

ولكنه كان مصيرا لا يغشى الظلام دربه ، بل سطعت فى مسراه بارقات الرجاء . إن قلوبهم لخبرتهم بخير وإن امتلأت إلى حوافيها بمرارة الهزيمة ، فذلك عهدهم بابن أبي طالب وما يعرفونه من خلقه الرفيع . إنه الخصم الشديد العنيف حين البأس ولكنه المترفق الشريف حين القدرة إذا ما ضاقت عن عفو غيره من الغالبين جعبة الغفران . وما كانوا فى استمساكهم بالرجاء واهمين ، ولا أخطأوا تصور سماحته ، فها هو مناديه يجوب الصفوف رافعا صوته على ملأ من الناس :

« . . . ألا لا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر : ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . . . »

فأعجب بالنصر كيف غير النفوس الظامئة إلى دمائه ودماء ناصريه أخرى تزاحمت على ابتغاء رضوانه ! . . ولكنهم الناس دائما فى كل أرض وحين ، بطانة الغالب وخصم المغلوب ، والويل منهم لمن توطأت له المزالق . فإنك لتشهد ولما ينقشع عثير المعركة ، جموعا من أجناد البصرة أتوه صاغرين ، أحنت هامهم الطاعة ، يبسطون بالبيعة الأكف بعد بسطها بالسيف ! . . بل قد كان منهم فوج سارعوا إلى استرضائه والقتال مرفوعة بنوده ، بل لعلهم زمر إذ ذاك وأفواج ،

كتلك الطائفة من الأزد التى راحت تبث فى طريقه الحتوف ، فلما طحنتها المنايا سارعت تلوذ بالولاء له ... هتف أحدها حينذاك يهيجها وقد أخذته حمية الصراع :

« كروا .. كروا .. »

فاتبعوه ، ينزلون على عدوهم نزول الصواعق . فلولا أن لقيتهم من أصحاب على فئة مرست بالشدائد . لقصفوها . ولكنهم قابلوا أطواداً رواسخ ليست تميد ، يقودها حيالهم محمد بن على فيزلزل فى قلوبهم ثقتهم كما زلزل تحتهم الأرض .

عندئذ صاح من بينهم من كان يؤثر الحياة :

« يا معشر الأزد .. فروا ! .. »

فما أغنى عنهم الفر بعد الكر ، ولا جنبهم المصارع . إنما آبت بهم الضربات القاصمة التي اعتورتهم إلى اللياذ بالمعتصم الأوحد الذى يرد عنهم الغوائل ، فإذا بهم يصرخون ضارعين :

« نحن على دين على بن أبى طالب ! .. »

وكذلك آب مثل أوبتهم ، غب الموقعة ، سواد جند البهيمة ، وفاءوا يبتغون رضوان الغالب . وإنهم ليزدحمون على التحير إلى عسكر الإمام وإلقاء السلاح ازدحاما أشاع فيهم جلبة دونها جلبة المعركة المحتدمة ، فحب البقاء عادهم ثانية . ثم استبقوا يريدون الإدلاء بالبيعة إلى الرجل الذى حاربوه أشهراً بالسيف والضغينة ، إلى قلة منهم تفرقت فى مشارف البصرة تعتصم بالفرار ...

ولم يكن على ليأبه إذ ذاك بالأكف الممدودة . ثمة ما هو أولى الآن باهتمامه وأحرى بأن يلقى باله إليه قبل غيره من الأمور . ثمة عسكر والهودج وساكنه أم المؤمنين ، لئن أغضى عنها جميعها حتى حين فقد يعن حدث يخلط عليه العواقب . إنه لا يأمن أن تهتبل بضعة من الغوغاء فى جنوده فرصة الاضطراب السائد فتنال السيدة بشر يعيذها منه ، فما زالت النفوس فى أغلبها تجيش بالرغبة فى الثأر منها إذ هى عند أعوانه أصل الكرب وناشئة الحرب .. وهو أيضاً لا يأمن أن تفتتن بضعة كبيرة من جند البصرة بتلك البهيمة المضلة ، كمثل الأزد التي قدمتها ، لو خلى بينها وبين الحياة ولو خفقة نفس أو تردد زفير ، فما زالت فى أولئكم نفوس

ضعيفة ، تغلبها سذاجتها كما تغلبها جهالتها على تلويث عقيدة الفطرة التى لا تستجيب لزخارف الأباطيل . . لذلك ما كادت الموقعة تؤذنه بالنهاية بعد عقر الجمال ، حتى دعا على إليه محمد بن أبى بكر ، فوجهه إلى عائشة وهو يقول له :

« انظر هل وصل إليها شىء . . . »

وألحق به عمار بن ياسر ، فانطلقا سويا صوب الهودج فاحتملاه بعيداً وصاحبته فيه لم يصبها أذى ، بعد إذ قطعا بطان البعير ، ثم انتظرا ما يأمر به الإمام .

وكانت نجاة عائشة أول ما أفاء الهدوء على على وأعاد إلى قلبه الطمأنينة . فما يحمل بها قط ضغنا ، وإن نفسه لأصفى معدنا من أن تمتلج بها الأحقاد .

وألقى على الأثر قضاءه فى الدابة المضللة ولها إذ ذاك هدير يصم الآذان ، أمر بها أن تقتل ، ثم تحرق ، ثم يذرى رماد جثتها مع الريح فلا تبقى منها بقية تفتن البله وضعاف الإيمان ، وحين فرغ أصحابه من الجمل ، وغدا ترابا يذروه الهواء ، قال :

« لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى اسرائيل ! »

ثم تلا وعينه تنتقل من جند البصرة إلى ذرات الرماد المتطاير فى الجو فوق الرءوس :

« . . . وانظر إلى الهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ! . . »

وكان المساء قد أخذ يضرب خباءه على الجموع ، ظافرهم ومخذولهم ، وقد جرت فى هوائه قرة الشتاء — ولكن علياً لم يلذ بأسوار البلدة التي مدت إليه أكفها بالترحيب . آثر أن يظل حيث هو بساحة الموقعة حتى يفرغ من الأسرى والسلاح والغنائم ، وحتي يفرغ الناس من دفن موتاهم واستنقاذ جرحاهم . وقد ظن بعض صحبه أنه لن يدع من عدوه أحداً حياً بعد أن أظفره بهم الله فجاء إليه من قال :

« ياأمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى . . . »

فأبى وأجاب :

« لا أقتل أسيرا من أهل القبلة إذا رجع ونزع . . . »

وجيء إليه على الأثر بموسى بن طلحة والناس يتساررون بينهم : « هذا أول قتيل » . . . فما حسبوا قط أن يلين ابن زعيم الناهضين إمرة الإمام وإن وقع عنقه تحت شفرة السيف . ولكن الفتى أقبل فبايع ولقى من على رفقا أسكن بقلبه الطمأنينة . . .

ومع ذلك فلم يقتل الإمام امرأً من أخصامه أتت به إليه ذلته ، يستوى عنده من تاب وبايع ومن علم ألا خير من ورائه وإن أبدى طاعة هى فى حقيقتها بنت القهر ثم أخفى خصومة ناقمة كإخفاء الناب اللامع سم الثعبان ! . . بل هو اتسعت رحبة عفوه لأعتى خصومه عليه عداء وضغينة . وسنرى من آيات رفقه وحسناه جلائل رائعة فى القريب .

وقضى وقته من بعد ميدان الوقعة ، يتفقد فيها أمور جنده وأسراه ، ويعنى بجرحاهم وجرحاه . . . وهو لا ينى فى كل لحظة تسنح له عن كبح غلواء أعوانه ، وما استجاش بقلوبهم على أعدائهم من زهو النصر . كان يروض وسعه كراهتهم لأولئك الخصوم لعلها تعود ثانية إخاء ومودة ، فخير شعبه الآن فى الألفة ، ولا غناء فى رأيه لأحد من الفريقين عن تصفية النفس من أدران الحقد وشوائب الحزازة . . .

إنه ليضرب المثل لهم بلغة يتحدث بها فعله قبل قوله . فما مر بقتيل من عدوه إلا ذكره بخير أو بكاه فأبكى حوله الناس . ولا صادفته جثة منهم تبين صاحبها إلا نشر من فضائل خصمه الصريع صفحة مطوية . . . توقف هنيهة عند أشلاء كعب بن سور فترحم عليه ثم قال لمن حضره من رجاله :

« . . زعم أنه لم يخرج إلينا إلا السفهاء ، وهذا الحبر قد ترون . . . »

ولما شهد جثة محمد بن طلحة بان الأسى على محياه ، وقال وهو يرد دمعة تغالبه :

« رحمك الله يا محمد ، لقد كنت فى العبادة مجتهدا ، قواما آناء الليل ، صواماً فى الحدور . . . » .

ثم التفت إلى أصحابه وقال وعينه لم ترتفع عن الصريع :

« هذا رجل قتله بر أبيه ! . »

وكذلك ظل يرثى قتلاهم ، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته القصير . بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء . وأمر بقبر كبير أن يحفر ليحتوى الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدى والأقدام . . .

وحين مر فى البصرة بتلك الخربة التى شهدت آخر لحظات طلحة بن عبيد الله على أديم الحياة ، ذكر من مشاهد الصداقة القديمة والصديق القديم ما أعادته الجثة الطريحة إلى ذاكرته ، فإذا عينه تبتدر ، وإذا دمعه يلتمع تحت ظلمة الليل . . . ووقف برهة خاشعا ، قد ختم حزنه على شفتيه بالسكون وإن تحدث بقلبه أساه فى خفق دائب متذائب .

وقال بعد قليل ينفس عن بعض ما يعانيه :

« أعزز على أبا محمد أن أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفى بطن هذا الوادى ! . . أبعد جهادك فى الله ، ودفعك عن رسول الله ؟ . . أما والله لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب . . . »

وملكته العبرة حتى لم يسمع سوى صوت أنفاسه ، لولا أن هتك امرؤ عليه هدأة الحزن يقول :

« يا أمير المؤمنين ، أشهد لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بى : « من أنت » ؟ . . فقلت : « من أصحاب أمير المؤمنين » . . فقال لى : « امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين » فمددت إليه يدى فبايعنى لك ... »

فرفع على رأسه فى هدوء كأنما قد انجاب عنه إذ ذاك وقر ثقيل ، ثم قال :

« أبى الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتى فى عنقه .. »

ثم مضى طريقه وإن قلبه من صفائه ليرجو المغفرة للعدو قبل الصديق . وإنه ليرد طرفه الذى غشاه الدمع عن جثث القتلى المتناثرة فى جنبات الميدان ، ثم يهمس فى ابتهال وعينه على السماء :

« إنى لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقى قلبه إلا أدخله الله الجنة .. »

٢

كان محقاً إذا خشى أن تنوش عائشة سفاهة السفهاء، فماله على النفوس المغلولة سلطان ، ولا تستطيع عينه أن تكون رقيبا على هذه الألوف المحتشدة من جنده الذين تغريهم نشوة النصر ، فتدفعهم إلى ركوب المحظور .

ولقد صدق إذ ذاك حدسه ووقع بعض المكروه وإن لم يتسع الوقت لتكرار وقوعه ، ولكنه على أى حال صورة كانت حقيقة بالتكرار إذ ذاك ، لها دلالة واضحة على ما علق ببعض النفوس من زراية بعائشة ، والتهاون بقدرها الجدير بالسمو عن الزراية والامتهان فقد أقبل غب الموقعة أعين بن ضبيعة المجاشعى فمد عينه تقتحم الهودج حتى اطلع على ما فيه فروعت السيدة جرأته المبغوضة، وصاحت به مستنكرة :

« إليك لعنك الله ! . »

فضحك اللئيم باستهانة وقال وهو يهز كتفيه :

« والله ما أرى إلا حميراء !

وتركها تستنزل عليه أقسى الدعاء ..

جنبها على هذه المشاهد المرذولة التي تضيف على قلبها بعد ذلة الهزيمة مرارة الهوان ، فأمر أخاها أن يضرب عليها قبة بعيدة عن مهاوى الأشلاء وشماتة المظفرين . وكان الفتى وابن ياسر قد استنقذاها من بين القتلى واحتملا هودجها فوضعاه حريزا فى خباء بعيد ، فلما خفت حولهم حركة الجنود أقبل فمد يده من خلل الستر معلنة عنه .

حينذاك أجفلت مروعة ، وهتفت به .

« من أنت ، ويلك ! »

فلم يزد محمد على أن قال :

« أبغض أهلك إليك ! »

فعرفته فى التو :

« ابن الخثعمية ... »

« نعم . أخوك البر »

« عقوق ! . »

ولوت وجهها عنه مغضبة .

على أن نفسه السيالة عليها بالرقة ، المليئة بالعطف والرثاء ، لم تطاوعه أن يلقاها بمثل غلظتها التى أثارتها فى قلبها مرارة الخذلان ، فقال لها فى ترفق :

« يا أخية . . هل أصابك شر ؟ »

فسايرت غضبها إلى مداه :

« ما أنت من ذاك . . »

« فمن إذن الضلال ؟ »

« بل الهداة ! . . »

وساد الصمت بينهما لحظة غالب فيها كلاهما خفق قلبه ، فلما أن خلفتها سورتها ، وآبت نفسها إلى عواطف الأخوة التى جهد غضبها أن يكتمها عنه ، ارتدت كرة أخرى أنثى ضعيفة ، تنازعتها عواطف الحنان والتراحم ، فهمست له فى صوت جاش بفرحتها أن شهدته أمامها يزدخر فيه ماء الحياة :

« بأبى أنت وأمى ! . . الحمد لله الذى عافاك ... »

ونسيت فى هذه اللحظة ما كان بينها وبينه من خلاف . نسيت الغضب والحرب والحزازة ، وأقبلت عليه "عللا" ناظريها بمنظره ..

ووسعهما من بعد الحديث بفنونه ، وعا تشعب منه من عتاب وملام . أما هو فقد كفاه نصره الإمعان فى إثارة المواجد بنفسها المغلوبة ، وأما هى فقد جهدت طاقتها لتنأى بالكلام عن مغامز الألم التى ينكأها بقلبها الخوض فى محنة اليوم الناشئة عن أخطاء أمسها القريب ، حتى لقد ودت بعمرها لو لم يثر فيها الفتى الشجن حين قال :

« ... أما سمعت رسول الله يقول : على مع الحق والحق مع على ؟ ... »

بل قد علمت إن لم تكن سمعت لولا أن للزمن سطوة وللنفس كبوة . ولو قد خلى الآن بينها وبين عمرها فلعلها ترتد به إلى الوراء أعواما جمة ثم تغير من فعلها ما يجنبها اليوم مرارة الندم ووخزة الضمير ...

إن المرء لا يكون خالصاً لعاطفة بعينها تسيطر عليه ، وتوجه خطوه فى كل طريق ، بل هو دائماً نهب لقدر من العواطف ، فيها توافق وفيها تباين ، لا تنى تتجاذب نفسه وتلعب بخطاه . وما على غير هذا النحو كانت عائشة عندما عادت الإمام ، فهى صورة من النفس البشرية فى ميولها وفى استجاباتها للنزعات . طالعتنا بحقدها على على حقداً ألب عليه البنود والجنود ، ثم كشف لنا عن قلب جرى الندم فى عروقه جرى الدم ... ولم يكن ندمها إذ ذاك مستحدثا أبدعته الهزيمة ، إنما استشعرته ولما يبدأ بينها وبين خصمها الصراع ... ألست تراها عند بدء الوقعة تصيح وقد سمعت من جيشها اللجب ضجة وضوضاء :

« المنازعة فى الحرب خور ، والصياح فيها فشل ... وما رأيى خرجت مع هؤلاء ... »

فلعل إذن نزعة هاجتها وأخرى ردتها ! ... كبقية الأنفس البشرية لايسيطر عليها ميل فرد ، بل تكون دائماً نهبا تتقاسمه شتى الميول والنزعات ! .

وكذلك — فيما نحسب — بقيت السيدة حيرى ، لا تعرف على أى شاطىء ترسو سفينتها المضطربة بين نوء المشاعر . فلما أتتها الهزيمة بالاستقرار ، وفاء قلبها فيئا فلا تهزه الحمية ولا يفسده الحماس للصراع ، وجدت نفسها التائهة بين اصطخاب العواطف المختلفة التى كانت تتجاذبها فتضلها عن الصواب ...

نعم ذاقت الندم الآن حق ذوقه وطعمت صابه . وهل أبعث له من قدرها المهيض هذه الساعة فى أعين الناس وكانوا قبلها لا يكاد أحدهم يتناول اسمها على لسانه لفرط شعورهم نحوها بما يفوق الإكبار ويوشك أن يبلغ مرتبة التقديس؟ .. الآن غدت ملهاة الألسن العيابة وأضحى شأنها مخاض زراية الحثالة وعرض الجمهور . ولقد هز هذا من اعتدادها حتى أوشكت نفسها أن تنهار إلا بقية من الندم أورثتها إياها المحنة ... زارها ، بعيد انتشالها وهودجها من بين القتلى بعد نهاية المعركة ، القعقاع بن عمرو مسلماً فقالت له :

« إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدى وارتجزا ، فهل تعرف كوفيك منهما ؟ .. »

فأغضى الرجل يخفى تأثره ، وقال في خفوت :

« نعم ، ذاك الذى قال : أعق أم نعلم . . »

ثم أردف يهون عليها الأمر :

. . كذب والله . إنك لأبر أم نعلم ، ولكن . . لم تطاعى » .

ولكن تهوينه ومواساته لم يردا عن نفسها شعورها بالألم ولا وخزة الندم ، فقالت وهى تعالج دمعها أن يفيض :

« والله . لوددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

ثم راحت تتخيل من كرامة الموت ما كان أولى بأن يكفيها الآن ذلة الحياة . .

ولم يطل بها المقام بالقبة المضروبة لها على أرض الساحة . رأى الإمام أن ينزلها منزلا أكرم وأسهل ، فأمر بها أن تؤخذ إلى البصرة قبل أن يوغل المساء .

وغشى وجوه الناس تلك الليلة فسطاط عائشة ، مسلمين أو شامتين . وكان ابن ياسر ممن سعوا إليها ، مع الأشتر والنخعى ، فلما وقفا ببابها قال عمار :

« كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه ؟ . »

فهاجها حديثه الذى قطرت منه سخريته ، وقالت له :

« من أنت ؟ . . »

« أنا ابنك البار عمار »

« لست لك بأم »

« بلى وإن كرهت ! » .

فصاحت به فى غضب مهتاج :

« فخرتم أن ظفرتم وأتيتم مثل ما نقمتم . . هيهات والله ! . . لن يظفر من كان هذا دأبه . . »

وسكتت ملياً تذود عن نفسها الحنق الذى تملكها . وسكت أيضا عمار ولكنها استشعرت حركة بباب الخباء آذنتها بامرىء غيره هناك معه ، فقالت تسأله بعد قليل :

« يا عمار ، من معك ؟ . . »

« الأشتر » .

فقالت وهى تعنى النخعى بالحديث :

« يا مالك ، أنت الذى صنعت بابن أختى ما صنعت ؟ »

فأجاب :

« نعم . ولولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر ! »

عندئذ لعقت الجرح الذى أصابها من كلامه الصريح المرير، وهتفت به تؤنبه:

« يا مالك ، أما علمت أن رسول الله قال : لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير حق ؟ »

فلم تلجمه حجتها ، بل أجابها على الفور :

« على بعض هذه الثلاث قاتلناه يا أم المؤمنين ! »

ما كان أكرم الصمت لها ولهـذين الزاريين لو استطاعته وحملتهما عليه ! أما وقد عيراها فقد غلباها . إنها تشعر أن الوهدة التى انزلقت قدمها فيها كانت بتدبيرها هى ، ولو كانت أصغت من البـدء لأم سلمة ، ولقولة الحق فى منطقها حينما نصحتها أن تنأى عن الخروج وتقر فى بيتها مكنونة ، إذن لـكفت نفسها الشماتة وكفتها التعيير .

وسمعت من خارج الخباء صوتا يقول :

« يا أم المؤمنين . » :

فأصغت إليه . ثمة فى نبراته شىء غير مرارة الشماتة، هو أدنى إلى العتاب الرقيق:

« يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك . . »

حقاً ما أبعده مما كان أجمل بها وأجدر . . الآن تبلج لبصيرتها الحق الذى غم عليها من قبل . .

وقالت بصوت خفيض :

« أبو اليقظان ؟ »

« نعم » .

« والله إنك ما علمت قوال بالحق . . »

فنزلت الراحة على قلب عمار أن فاءت السيدة الطاهرة إلى الصواب وقال :
« الحمد لله الذى قضى لى على لسانك . . »

وكانت الظلمة إذ ذاك قد شملت جنبات المسكان ، والهدوء قر فى أنحائه فإذا الإمام يلم بموضع القبة عندما فرغ من بعض شواغله الجمة ، ويقف بالمضرب يستأذن ساكنته . . .

ولم يزد حين لقيها على أن قال :
« كيف أنت يا أمه ؟ . . »

فاختلجت لنبرة صوته الهادئة ، التى لم يبطنها شىء من صاب الغضب ولا زهو الانتصار ، وقالت تجيب :
« بخير » .
« يغفر الله لك . . . »
« ولك . . . »

٣

الآن قرت البصرة . وجد الأمن فى قلوبها مساكنه ، فأغلقت دورها على سلام . وآب الناس فيها إلى نفوسهم بعد طول اضطراب . ثم مسحوا أدمع المآسى التى أراقها القتال .

فى مشارفها رقد لهم أحباء ، تحت أعين النجوم الساهرة ، قد سبتهم المنايا النوازل ولم تخلف من حياتهم إلا أسطورة . وفى دروبها سارت جموع أحيائهم على أسى عميق كأودية ، شقه الحزن ومهدته الفجيعة . ولكن صرعاهم أحتوتهم المثاوى فسكنوا لهدأة غامرة ، الهدوء السابغ حيالها ضوضاء وضجيج . فللموت بيان بلا لسان تحت أطباق التربة ، وللصمت الحى ألسنة جمة تحت القبة . أليس للألم هواتف بأحناء القلوب الحزينة تملأ على أصحابها الدنيا نواحا وإن يتردد فى جنباتها صداه ؟ . .

ولكنه حزن أورث الراحة وقرت به أنفس قطان البلدة بعد طول قلق وحيرة . الآن بانت لهم طرائق الحياة مبسوطة ، لا يعوق راكبها خوف طالما سد

سبيله فى الليالى السوالف . مضى الغابر بما كان يبثه فيهم من خشية الترقب ورهبة انتظار الغد المجهول ، وامتد أمامهم حاضرهم صافياً شفافاً يرون من خلاله مستقبلا لا تحفه المخاوف . إنهم فى أبهج أحلامهم لم تطف بهم قط رؤيا أطلعتهم على مصيرهم رخيا بعد الهزيمة كما أطلعتهم عليه حقائق الحاضر . هم اليوم المغلوب خسب على سلاحه ، ولكن حياتهم وحياة الغالب تسير معا فى نفس المجرى لنفس المصير . الأخوة عادت ثانية تربط بين الفريقين ، وترتق ما مزقته المعارك . وما من رجل ضمته البصرة أصبح آسياً على هزيمته أو أحس لها فى فؤاده مرارة . . .

فنعم ما أولاهم الإمام ! . . . إن أحدهم لم يحسب مطلقاً أن غريمهم بمثل هذه السماحة . خلال الأيام الطويلة التى سبقت الوقعة ، كان طالما يثيبهم على لجاجهم أناته ويعدهم حسنى ، ظنوها من بوارق الوعود ، حقيقة أن تتقاب عليهم نقمة مستطيرة إذا سالموه أو أظفره الله . . . أما الآن فقد كشفته لهم المحنة التى أصابتهم صديقاً رفيقاً ، سرعان ما نسى إساءتهم واتسع لتمردهم عفوه وغفرانه . . .

الناس لا تكف ألسنتهم تتحدث عن ضروب رفقه بهم ودفعه عنهم . إنه ليغالب من أجلهم جنده الذين كتبوا له النصر سطوراً من الدماء وأقاموا له صرحاً باذخا على أشلاء الألوف من الضحايا والشهداء . فلقد أطمع الفوز الجند حتى غدوا يرون العدو سلعة حق أن تكون فى المغانم ، وحدثوا إمامهم أن يبيحهم رقابهم وأموالهم وذراريهم وكل مالهم من متاع . . .

قالوا له :

« اقسم بيننا أهل البصرة نتخذهم رقيقا ! . . . »

فعجب للجشع كيف ينسيهم رفق الإسلام . لو لم يبين لهم قبل الوقعة سيرته فى العدو ، فى كلا النصر والهزيمة ، لكان لهم بعض العذر . ولكنه كان أوضح لهم ناموسه ولما يشتبك سنان ، ولما يلتحم صف من رجاله بصف من أعوان عائشة الذين تجيشوا لحربه . . .

قال لهم حينذاك ، وهو بعد على حدود البصرة ، فى خطاب له طويل :

« . . وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا

بقتيل . وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا أستره ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف العقول والأنفس ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات . . . »

بهذا الدستور القويم طالع رجاله والمعركة لم تزل غيباً فى الغيب . وإنه لقضاء الدين ، وشرعة الفروسية ، وسنة مكارم الأخلاق . ومع ذلك فإنهم الآن أغضوا عن بيانه عين الأذهان . . . فيما يبدو قد أبطرهم النصر ، أو بهظهم عنه فغالوا اليوم فى تقويعه وتثمينه أيما مغالاة حتى لا يرضون دون امتلاك عدوهم المغلوب امتلاك السلعة أو رقاب الإماء والعبيد . . .

وأبى عليهم الإمام ما أرادوه :

« لا . فالقوم أمثالكم ! »

فأنكروا منه رأيه وصاحوا به :

« فكيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ . . »

« كيف تحل لكم ذرية ضعيفة فى دار هجرة وإسلام ؟ . . »

ثم راح ثانية يبصرهم ، ويرسم لهم الحدود والمحارم :

« أما ما أجلب به القوم عليكم فى معسكرهم فهو لكم مغنم . وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله . . . وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله ، لا نصيب لكم فى شىء منه . . »

عندئذ أغضب حكمه طائفة من الغلاة غدوا من أبعد نواة الخوارج الذين تربصوا له الدوائر بالسيف واللسان . ومضوا يهيجون من امتثل ويكثرون عليه باللجاج والعنت حتى ضاق بتفكيرهم وسئمتهم نفسه . فلما رآهم لا يردعهم شىء عن مجادلته ، أبدى الرضا لهم وهو يضمر درساً سوف يردهم عن جشعهم الفاحش البغيض . .

قال لهم فى هدوء :

« اقترعوا . . هاتوا سهامكم . . . »

فقماوا فرحين وهم يمنون النفس بالمغنم الجزيل . وإذا به يسألهم بغتة :

« فأيكم يأخذ أمه فى سهمه ؟ . . أقرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ! . . »

فبهت القوم وصاح سوادهم يعلنون التوبة :

« نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! »

وقضى بهذه الحكمة التى ابتدعتها بديهته على الفتنة ، وإن كانت بقيت فى نفوس بعضهم بقية موجدة عليه سوف تظهرها الأيام بعد حين . . .

وكذلك أبقى على عدوه كرامتهم ، وضرب للناس أمثولة عن الخصومة الشريفة التى تتنزه عن الدنايا كيف تكون . وما كان قضاؤها إلا شرعة لآداب الحرب وآداب النصر يجدر أن تحتذيها البشرية فى كل آن وجيل .

وأقبلت عليه الوفود تترى مبايعة ، دفعت بهم البصرة إليه لم تنتظر دخوله ، فقد سرى الحديث بهذه السماحة مع الهواء فاستشعر الناس لنبئه راحة تغمرهم ، إذ أمنهم — قبل أمنهم على المال والولد والرقاب — على كرامة الحياة . .

ثم دخل البلدة المغلوبة ، بعد مكثه بميدان الوقعة ثلاثة أيام فرغ فيها من شواغله . . . الآن لا تستشعر البصرة نحوه شيئاً من ضغن ، فقد استعبدها له أن جنب رقابها الاستعباد ! . . إنما الحياة عنده إباء وكرامة ، ود لو رآهما تسودان أنفس الناس ، فحفظ لعدوه حياتهم حرة ونفوسهم شماء كريمة . بل هو مد لهم فى مروءته ، يتفيأون من ظلالها ما لا يعده الولى الحميم . . . كانت حربهم إياه — فى اعتقاده — عن ضلالة ، الرفق أولى بكشفها عن قلوبهم الغاوية . كانت صفحة من الجهالة سودتها أيديهم ، فإذا به يمزقها ، ويلقى بها فى متاهة الغابر السحيق ليستقبل بصفحه الكريم من سفر حياتهم أخرى بيضاء ! . .

بهذا جرت سيرته فيهم ، لم يعدل عنه لحظة من نهار . إنه العدل والعطف والمروءة ، بل غدت كلها وأمثالها من المكارم ظلا له ! . . فمن عجب أن نرى هذه الخلال الشريفة التى استأسرت خصومه ، تثير عليه غضب بعض أوليائه . فما عدم حظه العاثر أن زوده بطائفة من أنصاره رانت على أبصارهم غشاوة التعصب حق

أرتهم الضياء ظلمة كثيفة أخفت عنهم حقائق الأمور . أولئك بلغ من حبهم إياه وإخلاصهم له أن أبوا عليه الرفق بأيما رجل كان قاتله أو خان عهده ، فقد كان أعداء الإمام فى رأيهم أئمة كافرين لا يستأهلون رحمة أو يكون راحمهم قد خالف فيهم شريعة الله ! . . وحينما بدا للإمام أن يعفو ويرفق كان إذن يسمح بمغفرة ليست من حقه لم يقره عليها أولئك الأنصار . . .

هكذا غلت تلك الطائفة من شيعته وأخشت فى الغلو حتى تنادت فيما بينها ذات يوم بكفر على إذ أباح أعداءه صفحه ونزل لهم عن بعض حقه عسى أن يعطفهم ويؤلف حوله كتلة الأمة الإسلامية ، ملمومة الشمل وثيقة الجماعة . وعندما تنطلق مواكب الزمن موغلة هونا فى درب المستقبل فإننا سنراهم حربا على الإمام أعتى عليه من خصومه ، ينالون بأسيافهم وألسنتهم من سلطانه ومن إيمانه . أما الآن فهم وليد تمخضت عنه اليوم خلاله الشريفة ، لن يلبث سوى قليل ثم يشب من الطوق ويصلب عوده . . .

عاده أمسية دخوله البصرة ، موسى بن طلحة ، فاستبقاه برهة لديه يحدثه حديث الصديق ، وقد صفت نفسه من مواجدها ورق قلبه للفتى الزائر . فلما أن عرضت لهما خلال الكلام سيرة طلحة بن عبيد الله ، قال الإمام ، وقد بان فى وجهه الرثاء :

« يا ابن أخى . . . إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :

« ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين : . . »

فما كان أبلغه من عزاء ، وما كان أجلها من إشادة بسيرة الراحل الكريم . .

وفارقه الفتى المرزوء فى أبيه وقد انعطف قلبه ، وخفف رفقه السابغ شيئاً من حزنه ومن فجيعته . . .

على أن هذه السماحة كان لها صدى خبيث الدوى بنفس امرىء من غلاة أنصاره هو ابن الكواء الذى غدا فيما بعد رأس الخوارج . فما إن دخل ، عقيب خروج موسى على الإمام وسمعه يلهج بعطفه على زائره ، حتى سأله عنه .

قال على :

« كان عندى ابن أخى . . . »

« من هو ؟.. »

« موسى بن طلحة » .

فصاح الرجل صيحة نكراء :

« شقينا إن كان ابن أخيك ! . »

عندئذ عصف الغضب بالإمام أن رأى عونا له قد نزع التزمت من قلبه عاطفة الرحمة حتى غدا كالصخر الصلد وران التعصب على بصيرته حتى خفى عنها الهدى . وهتف به يلومه ويرد غلوه البغيض :

« ويحك ! . . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم . . . »

فخزى ابن الكواء . ولكنه خزى ساعة ستتحرر نفسه منه فى القريب لتعود كرة أخرى أصلب عوداً فى العناد ، وأشد شكيمة فى المغالاة .

٤

أين الحفنة الغالية فى عدائه ، الحالمة أمسها القريب بالمجد ، السابحة — فى بحار من النكث — للصولجان ؟.. أى أرض توطأت لهم مراطئ ، وأى منزل أثابهم مرقداً ناعماً وضجعة رفيقة ؟ .. ومن ذا ترى فى الناس أمدهم بالسلام الذى منعوه أمتهم وأبدلوها به الدماء ؟

إنهم لضالون . بالأمس ضلوا نفوساً وقلوبا عن محجة الحق الواضح واليوم ضلوا جسوما حيرى وعقولا فزعة. فما لهم الآن من مثابة الأمن وإن عرفوا الأمن قد مد على غيرهم رواقه . يكاد القلق أن يسوقهم للمصارع . هم من خشية الموت فى موت داهم ، ومن خوف الأسر فى أسر دائم ، خيفتهم خفيتهم الملكة ثم جثمت على صدورهم تنازعهم الحياة ، وحجبهم عن العيون الهروب ولا طمأنينة !.. وهل من فرار من الفرار ؟ ..

تستروا بالظلام . نسجوا من سواده ردنا تسربلوا بطيلسانه ... أصاحب الليل آمن وفى قتامة رهبة تهد القلب ووحشة تزعزع الجنان ؟ كلما خفقت النسمة

الندية تلفت جزعا بلفتة المستريب ، فهى تحمل إليه وقع أقدام طالبيه . أو كثف السكون حوله حسبه هدأة متربص يتحين منه سانحة غرة . إنه الطريدة الحيرى ، والظلمة مسرب لكلا الفريسة والمطارد .. لا راحة له قط فى شعابه ، والصمت عليه ثقيل ، والليل طويل طويل !

ود الفرار لو صبروا ساعة بأرض الموقعة يعرفون بعدها مصيرهم إلى أى قرار: أعيش العبيد أم ممات الأحرار ؟ . أم العفو يمسح عن جباههم غبرة الذلة كما يحقن عليهم دم الحياة ؟ . ولو كانوا قدروا عدوهم حق قدره إذن لرأوه فياضاً قلبه بالرحمة على سربهم الخائف ، رحبا حلمه وغفرانه . فما حركوا شيئاً من نفسه حين قاتلوه حتى يحركوه الآن إذ هم فى أيدى الفلاة أو حبيسو جدران . وكفاهم هوانا عليه أن خشوا لقاءه . وسيفه مغمد !

غير أن فيهم من عزت على الإمام عقباه . . ذلك الزبير . طواه حينه وهو عنأى عن ساحة القتال فهلك هلكة هارب لا ميتة محارب ، وكان المجلى بين الأبطال . فما للقدر تعقبه حتى أصماه ؟ . لتوشك المنايا أن تبدو كلفة به حتى تأثرته بعد نأيه عن الصراع ثم طحنته غيلة ، كأن قتله كان نذراً حق عليها وفاؤه ! . . إن عليا ليأسى وقد جاءه نبأ الفاجعة التى ختمت أجل الرجل وطوت سجل حياته الحافلة من بعد نشور ، أبعد ما كان من رجوعه للصواب . . وركوبه إلى الهداية ؟ . . وتوبته الخالصة لله ؟ .

ود على لو أبقى الزمن فى عمر غريمه النادم بقية ينعم فيها براحة التوبة . ولو استدبر الآن من أيامه القلائل مافات فلعله كان احتجز الزبير عن مصيره . ولكنها أمانى ، تخفف عنه هوناً وطأة الفجيعة ، وفيها ملاذ لنفسه الحزينة المرزوءة ، وإنه يستجلب جهده الصبر بالتصبر . فعسى التأسى أن يمسح أساه ، والزمن أن يمحو الشجن ، وقد رد صاحبه وديعة إلى الله

ونفض الإمام عنه بعض دمعه . من عجب أن تحسب طائفة دم الزبير قربى إلى على تدنيهم منه وتفىء عليهم رضوانه . وها هو ذا الأحنف بن قيس قد دخل عليه يخبره الخبر ، وجاء معه فى ركابه ابن جرموز ، الرجل الذى تلطخت

بدم الضحية البريئة كفاه ... فلو علم الأحنف أى حزن سوف تثيره الفاجعة فى قلب على ، وأى غضب عليه وإنكار لكان جنب نفسه اللقاء .

ورأى الريبة فى عينى الإمام ، وسمع صوته بطنته المرارة وهو يهتف به فى هدوء رهيب :

« تربصت يابن قيس ! .. »

فأجفل . قد كان حقا ذا يد فى الخاتمة الأليمة التى انتهت بها حياة القتيل . لعله وحده هو الذى رسم خطوطها دون غيره من الناس وإن لم تعلق بكفه قطرة دم . فليته ظل قابعا بوادى السباع فى معتزله لم يشترك فى هذه الخاتمة بشىء كما لم يشترك قبلها فى القتال ، ولكنها كانت محنة سارعت إليها نفسه وهو يحسبها منة يسديها إلى الإمام فتقربه منه ، وترفع درجة مكانته التى هبط بها الاعتزال . ظن فى البدء أنه حقيق برضوان على إذا كفاه عدوه الزبير ، فلما أتبع ظنه المؤامرات التى قضت على حياة الغريم ، غدا نهبا للحيرة ، لا يدرك أهو أحسن أم أساء حتى إذا وقف الساعة بين يدى الإمام تبددت عنه حيرته وهو يرى لمح الغضب يكاد أن يلسعه بشواظ من نار ..

وأغضى مليا . ما لكلامه يعصيه ؟ .. شفيعه الآن نيـة رامت الخير فضلت عنه ...

ثم ألهم الجواب من بعد ، حديثا رقيقا فيه وعد وابتهال ومعذرة :

« ما أرانى إلا قد أحسنت ، فارفق يا أمير المؤمنين .. إن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس . فاعرف إحسانى ، واستصف مودتى ... ولا تقولن مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحا .. »

وتلبث ليسمع كلمة ترد قلقه . ولكن الإمام آثر الصمت ، وأشاح عنه . ما جدوى لومه الآن بعد نزول القضاء .. وهل من سبيل إلى إجازة اعتذارة بنية مكنونة فى طى ضميره ؟ .. إنما أمر هذا الحرض وأمر الضحية كليهما إلى الله هو أعلم بما تكنه السرائر ...

ثم دعا إليه بالقاتل الخاتل ، فإذا ابن جرموز أقبل وهو يمشى على نغر ، الرجاء يملأ قلبه ، والأمانى تحرك خطواته . . أم لا وطمع نفسه ماونى يحدثه طوال الطريق بجزالة المثوبة المأمولة جزاء وفاقا بما قدمت يداه ؟..

وسأله الإمام بصوت خافض عميق :

« أنت قتلته ؟ . . »

فأجاب بخيلاء :

« نعم يا أمير المؤمنين . »

غير أنها رنة للمباهاة لم تلبث سوى قليل . بددها على الأثر أن سمع عليا يقول فى مرارة وحزن :

« والله ما كان ابن صفية جبانا ولا لئيما ولكن الحين ومصارع السوء . . »

وحلقت غيمة من الصمت كثيفة فى جو المكان ، سترت الحاضر هنيهة عن على ، وأرسلت بخياله بعيـــداً يرود وادى الذكريات . . هذه ملاعب الصبوة ومراتع الشباب جمعته وغريمه أخوين على صفاء ، قد فرغ قلباهما إلا من حب وسلام . . من بطحاء مكة ومشارف بيتها العتيق إلى حدائق المدينة وبساتينها النضيرة وثقت بينهما دعوة السماء وألفتهما جنديين فى كتائب الله ، يدفعان عن رسوله ، كتفا لكتف ، بخفق القلب ، ومنطق الشفة ، وبطش الكف . وبين ماء بدر وسفح أحد ووادى تهامة سارا معاً يخضدان عوسج الضلالة ، ويغرسان فى الأرض الطيبة زهر الهداية . كلما ركز المضلون فى سبيل الدعوة قنا ورماحا تثير الحرب وتشعل نيرانها مسعرة عصفت بها الكتائب الهادية فخبا الضرام وانتشر الإسلام ، حتى رفرفت بنوده على العالمين خفاقة .

ذاك أمسه البعيد ، فليت الزمن لم يطلع بأمس القريب الذى شاب الحب وفرق القلب من القلب ، ولكنها مشيئة سبقت فى الغيب ، وسنن جرت عليه المقادير ، ولا دافع اليوم لواقع ، ولا راد لحاضر . . .

وآب موكب الذكريات بالخيال السارى فآن لغيمة الصمت أن تنقشع وحان أن ينثلم بناؤه الركين عندما هتف الإمام بابن جرموز .

« ناولنى سيفه . . . »

ففعل الرجل ، ومد إليه يده المغتالة . . .

وهز على السلاح فى كفه ثم قال فى نبرة آسية :

« سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله »

ترى أن خاطر راود الآن ذهن القاتل الأثيم حتى عدا به بعيدا عما يجيزه له المقام ؟ . . أى خطل ركبه الرجل الطامع فى المثوبة على إثم ، النهم إلى إحسان على مضلة ووزر ؟ . . ابن جرموز أركبه جشعه مركبا ليس يحمده ، ليته لم يركبه ولم تود به سقطة من لسانه . فقد اجترأ فى هذه الآونة أخبث جرأة وأسوأها وقال للإمام :

« الجائزة يا أمير المؤمنين . . »

فاخترمته نظرة قاسية على الأثر ، أخف من وقعها ضربة رمح تغوص فى فؤاده وسمع بعدها جواب على . رهيباً كأنه كلمة القدر الداهم والقضاء القاصم :

« النار ! . . ورحم الله أبا عبد الله . . »

ثم سرح باله هنيهة إلى بعيد ، وراء الأعوام السوالف ، وعاد يهمس محدثا نفسه :

« أما إنى سمعت رسول الله يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . . . »

٥

أورد الغدر صاحبه الهلكة . . .

وإنها لهلاك الروح لا هلاك الجسد . . اللعنة التى تتبع المرء وهو مزيج من اللحم والعظم والدم على ظهر دنياه ثم لا يستطيع الفكاك ، وإن غدا ذكرى تعيش فى الخواطر فى حياته الآخرة تتعقبه تعقب الظل ، وتظل تنهش بقاياه نهش السباع فريستها الدسمة ! . .

فلعله كان قد غاب عن وعى ابن جرموز حين باغت الزبير ثم أرداه أن اللعنة ستكون له كفاء غدره . ولكنه كان أمراً مسطورا وقدراً عليه مقدوراً ، همس

به الوحى ذات يوم فى صدر رسول الله . ولم يكن هـذا الجزاء سراً خافياً تام الخفاء ، فقد تحدث به بضعة ، وروته طائفة ، وبشر به على القاتل فلم يعد ببشراه ما نطق به محمد منذ أعوام ! . .

وكان المصرع قصة الجشع والغدر والخديعة . . .

وهل من مناقص أسـفل دركا من كل أولئك وأحرى منها باصطلاء الجحيم ؟ . . .

من اللحظة الأولى التى شهد ابن جرموز خلالها فريسته ، لعبت بنفسه الأثيمة أوزارها ودفعته دفعا إلى الـكيد للهارب التائب ، عسى أن يتحين منه سانحة تمكن له من حياته ، وتفىء عليه سلبه ، ثم تجعل الزبير فى نهاية الأمر سلعة يساوم عليها ويبيعها بغنم من عروض الحياة . .

جاش ذلك بذهنه ساعة أن شهده ، وقد ترك الموقعة ، وهام يجتاز وادى السباع . . .

كان الزبير قد رأى الفىء للمدينة ، لعل عودة إلى حاضرة على تؤذن الناس فيها بندمه على ما سلف منه فى حق الإمام . أو عساه آثر المـكث فى جوار قبر الرسول ، يقضى بالبقعة الطاهرة ما بقى من حياته فى هدوء ودعة ، بعيدا عن الأحداث التى أخذت تعصف بأرض الإسلام . .

وشهد الناس ذلك اليوم فارسا يتستر جهده ، ومطيته تخب به ، وخادم له يتبعه ، وقد شق سبيله من البصرة وراح يجتاز وادى السباع . ومرت القافلة الصغيرة فى سيرها بمضارب الأحنف بن قيس ، وهو منحاز إذ ذاك بقومه عن وقعة الجمل ، يعتزل القتال . . عندئذ لعبت الشكوك بقلب الأحنف والفارس ينساب مستخفياً عنـه وعن سواه ، وعجب أى عجب لأمر الزبير وتخلفه عن المعركة وهى إلى سيفه وشجاعته أحوج الآن إذ اشتد ضرامها والتحمت النصال .

وهمس الرجل لنفسه بنبرة المستريب :

« والله ما هذا انحيازا ! . . . »

وحق له أن تنوشه الريبة . . لأمر ما يخرج الزبير هـذا الخروج ويدع أطماعه وأمانيه لقى بالميدان . لأمر سوى أن يكون قد فاء إلى الحق بعد لجه فى العناد وما اشتهر من إبائه الصلح والمهادنة ، فلعله رأى اليوم من غرعه قوة تستعصى على جيوشه ، نخرج يؤاب أقواما ممن لم يلحقوا بعد بأحد من الفريقين ، أو يستمد لعسكره أمداداً من هنا وأخرى من هناك تدعم أداة حربه . . .

وتلفت الأحنف حوله يستحث بعض رجاله ممن شهد معه فرار الزبير :

« من يأتينا بخبره ؟ » .

فنهض على الفور عمرو بن جرموز وقال :

« أنا آتيك . . »

فـكأنما الشقاوة أنطقت لسانه ، أو الشيطان نفسه تحدث فى فيه ! . . منذ تلك اللحظة تحدد مصير الرجل ، وكانت اللعنة نصيبه ، فقد قام يتبع الزبير وإنه ليضمر له الغدر فى دخيلته ، ويعدو بإضماره الحد الذى رسمه له الأحنف بن قيس . لم يرض أن يقوم بمهمة الجاسوس يتقصى خطوات الطريدة ويستكنه سر الأمر الذى تهم أن تسير له ، بل غلب الجشع عليه فسل الخديعة وأخفى الغدر وبيت المـكيدة ، كلها أدوات تنيله مأربا غثاً من مآرب الحياة . . .

وحانت له الطريق لحظة أدنته من فريسته فسارا معا كعابرى سبيل جمع بينهما السفر والمصادفة ، حتى إذا امتد هنيهة بينهما الحديث فاجأ الزبير بقوله :

« يا أبا عبد الله ، أحييت حربا ظالما أو مظلوما ثم تنصرف ؟ . . . أتائب أنت أم عاجز ؟ .

فتوجس سامعه الشر ، ولـكنه جنح إلى الصمت يلوذ به عسى أن يكون فى الصمت ما يدفع عنه فضول الغريب . غير أن ابن جرموز بقى على دربه ، يسير فى آثاره كما يزحف ظله ولا يحيد قط عن سبيله . . .

وكذلك أوجس غلام الزبير ، ومال على أذن مولاه يحذره هذا المتأثر خطاه :

« إنه معد يا أبا عبد الله . . . »

فهز الفارس كتفيه مستخفا وقال :

« وما يهولك من رجل ؟ . . .

ثم التفت صوب مقتفيه :

« ما وراءك ؟ . . . »

« إنما أردت أن أسألك . . . »

فتفكر أبو عبد الله هنيهة . ماذا لو مد للرجل شيئاً فى حبل الحديث فأشبع فضوله ثم فرغ منه بانقضاء الكلام ؟ . . .

« فقل . . . »

« حدثنى عن خصال خمس . . »

« هات ما عندك . . . »

« خذلك عثمان ؟ . . »

فأغضى الزبير برهة ثم قال بصرامة :

« أمر قدر الله فيه الخطيئة وأخر التوبة » .

« وبيعتك علياً ؟ . . . »

« ما وجدت من ذلك بدآ وقد بايعه المهاجرون والأنصار . . . وخشيت القتل . . . »

« وإخراجك أم المؤمنين ؟ . . »

« أما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره » .

« وصلاتك خلف ابنك ؟ . . »

« إنما قدمته عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لى — سوى صاحبي — أمر » .

« ورجوعك عن الحرب ؟ . . »

فتفرسه مليا قبل أن يجيب :

« ظن بى ما شئت غير الجبن ! . . »

هنا فرغت جعبة الفضول والتساؤل ، فبدا ابن جرموز كمن اقتنع بما سمع ، وسار صامتا مع القافلة الصغيرة . ولكن نفسه الخبيثة هتفت به وقد حركها ما ركب فيها من طبيعة الغدر :

« أضرمها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ . . قتلني الله إن لم أقتله ! » .

ثم وارى بغضاءه الآثمة خلف ابتسامة . الآن يفعل الختل مالا تفعل الشجاعة ، والمكر ها هنا أمثل . . إنه ليبدي العطف ويظهر الرقة لرفيق الطريق ، ويمضي وإياه في الحديث ناصحاً له ، ويمحضه وده في لفظ حلو . مالزبير علم بالغيب ليستشف ما وراءه . . . حتى إذا رآه قد وهت فرسه ، أو لاح كأنها قد عسر عليها نوعا قطع رمل الصحراء ، وأمامها منها حتى غايتها البعيدة أشواط طويلة شاقة ، رسم الغادر على شفتيه بسمة حانية ، وفي نظراته لمحة رحيمة وقال :

« يا أبا عبد الله هل أدلك على أمر هو خير لك ؟ . . . »

« نعم . . »

« إن دون أهلك فيافي ، فخذ نجيبي هـذا ، وخل فرسك ودرعك فإنهما شاهدان عليك بما تكره . . . »

فتريث الزبير برهة ثم أجاب :

« حتى أنظر في ذلك . . . »

وأقبل عليهما المساء . ومضى طرف منـه ولما يخرج الركب بعد من مشارف البصرة . إن دون مدينة الرسول مشقة تعي أجود الأفراس وأكرم الجياد ، والرمال تحت حوافر فرسه لينة رخوة ، تكاد تغوص فيها قوائمها فتحرن به ، وتوشك ألا تسير . فلو كان قد أعد للرحلة عدتها الحقة ، إذن لاختار ناقة تسبح على أديم هذه الصحراء الشاسعة كالسفينة . أما الآن فما أهون الظفر به على من أراد إدراكه . . .

ويبدو أن إلحاح ابن جرموز ظل يلاحق الزبير حتى نزل عند غرضه ، أو قصور مركبه عن بلوغه الغاية هو الذي دله على الأخذ بالنصيحة ، لأنه ما لبث أن بادل رفيقة نجيبه نظير درعه وفرسه ، وقد أنس إليه ولم يعد يخشاه .

غير أنها طمأنينة موقوتة ، ما لبثت أن تبددت من فؤاده وعاوده القلق والتوجس . . . فما هو إن نزل منزلا يستريح فيه ويقضي به بعض ليله ، حتى جاءه النذير في رجل من بني كلب تحين غرة من ابن جرموز وهمس للزبير :

« يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف . . . وقد ندم الأحنف على خذله عليا ولعله يتقرب بك إليه . . »

فوجم الزبير وشم رائحة الكيد حوله فى هذا الجو الذى علقت به أنفاس رفيق الطريق . . .

وراح الكلبي يتمم حديثه :

« . . لقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك » .

« فما ترى يا أخا كلب ؟ . . »

« بت عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومه فإنك إن فتهم لم يطلبوك . . »

إلا أن المستريب الذى تتداوله أيدى الشك تضيق عليه دائما رقعة الأمان . .

وهل كان ليأمن الآن على نفسه من هذا العابر — الذى ود لو استضافه بين جدر — أكثر من أمنه عليها من ذلك الآخر ؟ . . أما إن كليهما الآن عنده متهم ، وغيرهما أيضاً ، وبقية الناس حتى يبلغ مأمنه بعيداً ببلدة الرسول .

وأمضى طرفا من وقته ، ذلك المساء ، يستكنه سر الرجلين : أيهما غادر خائن وأيهما ناصح أمين ، محاولا أن يقطع فيهما الشك باليقين . . ولكن ظنه لم يسعفه ، ولم يفتح له إلى تعرف الصواب . .

وكرة أخرى همس له الكلبي فى صوت نذير :

« يا أبا عبدالله إنى أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذهما ، فإن أحداً من الناس لا يقدم عليك أبداً وأنت فارس » .

غير أن الضياء جاءه بالسكينة . مشت فى نفسه الطمأنينة مشى إشراقة الصبح فى السكون المستيقظ فنسى معها رنة النذير . أم أنعش البكور فيه شجاعته الوسنى فأودع الخوف دبر ظهره ؟ . . لقد كان الزبير دائما ثبت القلب راسخا جنانه لا يكاد يهزه وعيد ، فما يهوله الآن من رجل فرد يسير فى ركابه ويتمسح فيه تمسح هر أليف ؟ . ولقد غاب الليل وامحت بامحائه مسارب الدسيسة . . أما عينه فيقظى ، وأما حسه فرهف ، وأما جوارحه كلها فعلى بصيرة من رفيقه ان شاء إبداء غدره وكشف ما فى طواياه . .

وراحت البكرة ، وجاءت الضحوة والركب يسير . وخطت الشمس خطوها من الشرق تمد ظلة من اشعتها على القافلة حتى أوشكت أن تتسنم الرءوس . ثم مضت أيضا صعدا ومضوا قدما تحت وهجها المذهب ، والهدوء فى البيداء الممتدة والأمن فى القلوب .

عندئذ هتف هاتف منهم :

« الصلاة ! . . الصلاة ! . . »

فهذه هى الظهيرة حانت ، وحل موعد فريضتها اللحظة . .

وتوقفت القافلة . وراح ابن جرموز يردد نداء السماء حتى تهيأت لها الرفقة الصغيرة . ثم انثنوا معا يتخذون مسجدا لهم من رمل الصحراء يقرب ما بينهم وبين الله . . .

فى تلك الآونة التى يبتعد فيها المرء بروحه عن دنياه ، ويتجرد من مادية جسده الثقيلة ، ويتحرر قلبه من شواغل الحياة حتى يغدو عنصراً من الصفاء والنقاوة ، ويدنو إلى خالقه بغير حجاب ، مستودعا إياه جل شأنه شعوره ودبعة . . فى تلك اللحظة التى تخمد فيها مطامع الجسد وتنشط آمال الروح ، وعلى هذه البقعة التى غدت باسم الله حرماً أقدس ، وطهر أديمها الركوع والسجود . . . فى تلك البرهة الحافلة بالسلام ، وعلى هذه الأرض النقية المطهرة ، جرت نوازع الشر ، وسرح شيطانه ، بغير حائل من قداسة يرده فقد ركب مطية ذلولا إلى خباثته : نفس ابن جرموز ! . . .

وحين سجدة عنت فيها جبهة الزبير لله ، وقرت روحه ، وخشعت جوارحه ، قطع الغادر الأثيم الصلاة ، واستدبر خلسة إمامه الآمن ، ثم ضربه برمحه ضربة مغتالة ، نفذ بها السن من الظهر إلى القلب حتى غاص فيه . . .

وحقت عليه عندئذ نبوءة الرسول . كتبت على روحه اللعنة والشقاء الأبدى يتبعانه منذ الآن إلى أن يغدو رمة بالية تتأذى من خبثها حجارة قبره ، ثم روحا معذبا تتداوله الزبانية فى الأوابد . . .

أما نفسه فقد غاب عنها سوء ما اقترفته في حق الله . استبد بها شرها إلى غايته ، وحسبت نصراً ما أتته يجمل أن يتلوه نصر يشفي ما تحسه من الغدر ، فعدا صاحبها على الجدث الهامد فاحتز رأسه ، وأخذ ثوبه وسلبه ثم خلفه جيفة ببطن الفلاة يتولى الغلام مواراتها التراب .

وعاد ابن جرموز فخوراً مزهواً من رحلة غدره ، قد نال السلب والدرع والسيف ، تخب تحته فرس ضحيته . . . عاد إلى منتجع قومه ونفسه لا تني تحدثه بالفوز الأعظم : ذلك المغنم الذي لا بد سوف يهبه الإمام إياه حين يستقضيه عن وزره . . .

وأقبل عليه الناس عندما قارب المضارب . فلما عرفوا من لسانه القصة ، آذتهم فعلته ، وأنكروا ضراوته ، وصاح أحدهم به في تقزز ونفور :

« ويحك يا بن جرموز ! . . فضحت والله اليمن . أتقتل الزبير رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله ، وحواريه ، وابن عمته ؟ . . والله لو قتلته في حرب لعز علينا ذلك ، ولمسنا عارك . . . »

فأشاح بوجهه استكباراً وقال :

« . . والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً . وإن مثله على لهين ! . . . »

وانطلق يسير ، نحو البصرة ، ليقبض الجائزة من الإمام . . .

٦

حليف الهموم لو ذاق طعم الوسن لنامت همومه ! . . لكن عينه الساهرة ردت الغمض . ففيها قذى يهيجها ويقرحها ، ودمع سخين ينثال ، وأهدابها غدت كشوك ! . . ليت عائشة تستطيع الرقود ساعة من ليل لعل ادكارها ينام . الفراش تحتها يؤرقها . ويؤذي جنبها المستسلم لغفوة عصية كأن حشوه قتاد . .

ليس يثيرها الهوان الذي سبحت فيه ، ولا هذه الهزيمة النكراء قد أكلت هدفها واهتضمته . بل وقر التبعة الثقيلة التي ألقتها على كتفيها الأقدار . بكل قطرة مهدرة من جرح ، وبكل شلو مقطوع ، وبكل حياة استباحها الموت

الداهم في مجال الصراع طالعتها الرؤى المثيرة ، مرة بعد مرة ، في ساعات صحوها الطويل البادى بغير انتهاء ، بمشاعر أسى محض مرير . لكأن حياتها غدت بحيرة من الدمع ! . .

حتى البيت الذى استضافها اليوم كان بؤرة ألم . فما نى صفية بنت الحارث تملؤه عليها بالعويل والنواح إن أسفر صبح ، وتهيم فى جنباته أنات بكائها المكتوم إن جن ليل تفجعا على زوجها عبد الله بن خلف . بل البصرة كلها صارت مأتما قائما ، تتجدد فيه مظاهر الشجن يوما فى إثر يوم ، كأن أهلها أنسوا للحزن واستطابوه ! . . وفيم هذا كله ؟ فيم الحرب التى نثرت المصارع وبثت الفواجع ؟ ولأية غاية من الغايات ؟ .

إنه سببه ودت بقلبها أن تنساه لو أجدى عليها النسيان . وأنى لها اليوم إغفاله ؟ . تتاجه المشئوم لا يكف يطالعها مع اللحظات وإن أشاحت بناظريها عنه ، فإن لضميرها لعينا تراه . . وكانت النواة نزوة — جمحة عاطفة عدت بها طور الحكمة فلم تزل تعدو حتى رمت بها وبأمتها بهذه الوهدة السحيقة . من لها اليوم بمن يبصرها بغبة السكره الذى آثرت به الإمام لعلها تثوب ؟ . .

الأحداث الآن بصرتها . . الكوارث التى أحاقت بالناس لأنها ذات لحظة مشئومة أطلقت للسانها العنان تؤلب على صهرها ، ابن عم زوجها ، أحقاد خصومه . . ومع ذلك فأين الجنى الذى اجتنته بيد الكراهية ، والحصاد الذى حصدته بمنجل البغضاء ؟ . . إنها لترى ثمار فعلتها قانية الحمرة خضبها الدم ، ذابلة جافة نضرها الموت . . فى المدائن تراها وفى البيد ، فى الغريب والقريب ، فى الدور والمضارب . . فى فمها أيضا تحس لها طعم العلقم ، وفى قلبها تستشعر لها برودة تجمد الحياة . .

لها الله ! . . ألا ينام عنها همها هنيهة ؟ . .

ما زال بالها يهيجه الادكار كلما رنت بذهنها إلى الجنوب ، نحو أرض الحجاز ثمة أخية حبيبة تستروح الأنباء ، ثمة أسماء . وحين تقطع الأخبار هذه الشقة الواسعة من الرمال فسيكون من نصيبها الترمل ، ومن يدرى ؟ ألا يكون أيضا

من نصيبها الثكل ! .. فهذه المفازة انشقت قبرا يضم زوجا باسلا قضى قضاء آبق فرار ولم يمت ميتة بطل . وفيها عدت قدما ابن طموح شاب تتلمس له مسالك النجاة ولا نجاة ، هرب من الأسر إلى أسر ، وفر هائما على وجهه فرار أطماعه ! ..
أفتغفر أسماء ؟ . . .

عائشة لا يهولها أن تنقم أختها منها أنها كانت سبب النكبة القاصمة . لم يعد بقلبها موضع لغير القلق الذى ملأه بعد فرار عبد الله بن الزبير ، ربيبها الأثير .. عندما بشروها بنجاته ، إبان الوقعة ، من سيف الأشتر ، دفعت عشرة آلاف درهم لناقل الخبر نظير بشراه . أما اليوم فكم تود لو دفعت نصف عمرها لمن يخبرها عنه . بل لتؤثر أن تغمض أجفانها غمض الموت إن أمنت عليه الذل والخوف والهلاك . فما من امرئ غيره يملأ عليها دنياها التى أفعمتها الأحزان . . .

فكأن القدر عاد فهادنها بعد حربه المسعرة ورسم بسمة على شفاهه أضاءت لها قتام القنوط . ها هنا رجل يسعى ، ويمشى يخطو المريب ، قد أقبل وفى وفاضه الخبر المرقوب . . .

وقال ذلك الأزدى ناشراً رسالته :

« إنى أعلم مكان عبد الله ! . . »

فابتدرت من فرحة عيناها حتى غامتا بالدموع . . . وقالت عندما استطاعت الجـواب :

« على بمحمد . . . »

« يا أم المؤمنين ، إنه قد نهانى أن يعلم به محمد بن أبى بكر . . »

فلم تبال شيئاً من الأمر . ودعت إليها أخاها وأمرته :

« انطلق مع هذا الرجل حتى تجيئنى بابن أختك . . »

وحين جاءها الفتى الجريح ، وملأت عينها بمشهده ، ثابت نفسها وعرفت الهدوء . الآن قد أمن سربه ، واحتقن دمه ، ففى كنفها سيطعم الطمأنينة ، وتعتد به الحياة ، ولن يستطيع أحد أو شيء أن يناله بمكروه . إنها لعلى يقين . عاودتها ثقتها فى ذات اللحظة التى دخل فيها مثابها الآمن . . وحتى ابن أبى طالب لن يخرق

عليها اعتدادها الوطيد ، فهو أسمى شأنا من أن يفسد عليها فرحتها بربيبها الحبيب ، أطهر نفساً من أن يثأر من عدو مغلوب . . .

وصدق حدس السيدة فى الإمام . فقد نسى كل مساءة سلفت من الفتى الطموح فى حقه ، ونسى عداءه السافر البغيض ، وقذفه فيه وسبه إياه على رءوس الأشهاد يوم الجمل حين أفحش السب فقال للناس :

« . . قد أتاكم الوغد اللئيم على بن أبى طالب ! . »

عن ابن الزبير أغضى على كل الإغضاء ، وأوسع فى صدره للصفح عنه . فلما أن استشفعته عائشه لم يزد على أن رمى ربيبها بنظرة ثاقبة نكراء وقال له فى غير مبالاة :

« اذهب فلا أرينك ! . . »

بمثل هذه السماحة كان الإمام يلقى خصومه ، فتلك سجية فيه عزيزة فى طباع البشر . بل قد كان أيضاً يمنحهم الود فوق رفقه ومغفرته ، ويأبى على رجاله أن ينالوا منهم بمنطق اللسان النابى ، دع القصاص والعقوبة وإن حقت عليهم قسوة الجزاء . . دخل البصرة فرأى لزاما عليه ، عن بر وليس عن مجاملة ، أن يزور عائشة حيث نزلت ليعرف بنفسه أطابت لها الإقامة ، فإذا به ييمم شطر مقامها على الأثر بعد خروجه من بيت الله ، لم تشغله شاغلة ، حتى إذا انتهى إلى دار عبد الله ابن خلف ، وشهدته صفية ابنة الحارث ، قطعت نواحها على زوجها القتيل وراحت تصيح :

« يا على ! . . يا قاتل الأحبة ! . . يا مفرق الجمع ! . . أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه . . »

فلم يرد شيئاً على المرأة المحزونة . وما زاد على أن قال لعائشة عندما استقبلته ، بصوت هادئ رحيم :

« جبهتنا صفية . . أما أنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . . »

نفسه طوعه ، راضيا على الفضائل . بل الفضائل هى التى نبعت منه . . عرف كيف يستقبل العقوق بالبر ، والشر بالخير ، والإساءة بالحسنى والمغفرة . وما من عدو له آذاه ذات يوم وأمعن فى الإيذاء إلا تلقاه ساعة ظفره وانتصاره بصفح كريم .

وعندما فرغ من زيارته ، وهم أن يخلف مثاب عائشة ، لم يملك أن يرد بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغره . . أحسب القوم أن قد خدعوه ؟ . . إنما غرهم الوهم إذ ظنوه طعمة هينة وظنوا سكوته عليهم غفلة ! . فمن اللحظة الأولى التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكنون . ثمة في جو المكان شيء قد علق مع الأنفاس ، له رائحة الغدر ، أو الخديعة ، أو المؤامرة حيك نسيجها على حياته . الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرها له ، وأبدت ما ضمته الحجرات . . ومع ذلك فإنه استمسك بأناته ، وأغضى عينه ، وكتم عن مضيفته أنه فهم ما أخفته الدار .

ولما ودع السيدة ، وغدا على مبعدة من مثابها قليلة ، ألقى نظرة عابرة على الأبواب المغلقة وراءه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر ، وقال :

« أما لهممت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه . . ثم هذا فأقتل من فيه . . »

فلقد كانت الحجر تضم طائفة من أعدائه ، جرحى أصحابه ، ضاق بهم فرارهم فآوتهم عائشة سراً لديها دون أن تعلمه . فمنذا كان يدريها أن أحدهم لاتهيجه مواجده ولا يطلق سهما على حين غرة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها فيرديه ؟ . . لعلها ظنت الخوف كفيلا بشل جوارح أولئك المختبئين ، أو جبانتهم مقعدتهم عن ركوب هذا المركب العسير . . أو لعلها حينذاك عاهدتهم على ألا يغدروا وفيهم بضعة ، حرية بألا يقيدها عهد ، غدرة فجار ! . . كيفما كان شأن السيدة مع صحبها أولئك فقد كان لزاما عليها ألا تستغل في على طبيعته السمحاء وكان أولى بها وأكرم أن تجنبه الوقوف على حافة الهاوية . .

أما هو فلم يكن يهاب موقفه . فمنذا يملك أن يحرمه ساعة من حياة سجلها الله له في صفحة عمره ؟ . . إنما الموت قدر ، موقوت بأجل ، ليس تقدمه غفلة ولا يؤخره حذر . . .

وكانت ابنة الحارث ما زالت بمكانها ذاك عند الباب تنوح على زوجها وتبكيه فلما أن شهدت الإمام يغادر دارها عاودت شتمه بأقذع ما يستطيعه لسان عياب فانظر كيف لقيها ثانية بحلمه وأناته وعندما سمع رجلا استاء منها يصيح :

« والله لا تفلتنا هذه المرأة ! . . »

أصماه غضبه حينذاك على الغاضب له ، وهتف به يذكره رأيه السالف بوجوب الرفق بالنسوة العاديات ، ثم قال يحذره وصحبه الحاضرين .

« لا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنـكل به شرار الناس ! . . »

وانظره أيضاً كيف قابل تدبير عائشة ، أو سوء تدبيرها ، إذ آوت من عدوه من كان حريا أن يفتك به غيلة لو لم تـكن له فسحة من الأجل باقية . . .

لحق به امرؤ ممن سمع حديثه عن ابنة الحارث ، فلقيه ببعض طريق العودة وقال له :

« يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفية . . »

فجزع وصاح :

« ويحك ! . . لعلها عائشة . . »

« نعم . . قام رجلان منهم على الدار ، فقال أحدهما :

جزيت عنا أمنا عقوقا . . .

وقال الآخر :

يا أمنا توبى لقد خطئت . . »

فما أسرع ما بعث إليهما بالقعقاع بن عمرو فأحضرهما إليه . ولم يمهلهما برهة يفران فيها من غضبه . فلولا أن استشفع لهما الناس عند ذاك لأرداهما قتيلين جزاء على عيبهما السيدة التى لم تـكف عنه عيبها وأغرت به الضغائن . . ومع ذلك فلم تنقذهما من بطشه الشفاعة ، بل قال وهو محنق :

« لأنهكنهما عقوبة ! . . »

وفعل . فقد أمر بهما فجلدا مائة مائة أمام الأشهاد . .

وكذلك نراه يغضى عن عدوه ويوسع لهم فى صفحه ، ثم يشتد على أصحابه أيما شدة وأبلغها . ذلك لأنه أراد أعوانه على أن يكونوا قدوة تأتزم مكارم الأخلاق ويسير فى هديهم الناس . أما أولئك الذين كانوا ينالون منه فإنهم فى عافية ،

بصبره أو بغفرانه ولعل خير ما يصور لنا سيرته فى أخصامه ذلك القول الذى غدا شعاراً له ، وكان يردده دائماً بأمثال تلك المواطن :

« متى أشفى غيظى إذا غضبت ؟ .. أحين أعجز عن الانتقام فيقال لى : لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت ؟ .. »

وهكذا كان أبدا دأبه : يؤثر الرفق والصفح والصبر عمن ألحق به المساءة والشر . إن قدر غفر ، أو عجز صبر . .

٧

ما وراء هذا التجمع ؟ .. دار صفية ابنة الحارث غدت خلية تطن فيها همسات خصومه ، أولئك الذين أبت عليهم المواجد أن يسيروا إليه يستأمنونه على أنفسهم ، ويرجون مغفرته ، وكلهم لقومه حينذاك رأس مدبر .

ولكنهم كانوا آمنة لا يخشون عادية نقمته ، فبينهم وبينه عائشة سياج ولو جال يوما بباله أن يقتص منهم أو يثأر لما وسعه الأمر وهم فى نجوة عنه بتلك السيدة التى ما زال يراها صاحبة حق عليه . ولن يجول قط بخاطره الثأر فذلك يخالف سجاياه . إنه ليملك مصيرهم فى يديه ، لو شاء ترك أو شاء أهلك .. ولكنه كان دائما إلى العفو أميل ، فليس يستطيع قهر نفسه على ركوب ما تنفر منه .

عقب نصره قالت له عائشة فى ضراعة :

« يا بن أبى طالب ، ملكت فأسجح . . »

فكان قولها صدى لإحساس قلبه ، ورسما صادقا لما ألهمته من تصرفاته حيال أعدائه . فلم يعنف قط بامرئ منهم ظفر به ، بل وسعت مغفرته عدوانهم ، وأباحهم صفاء نفسه كفاء ما تجرعوه من غصة الهزيمة . أمن الخائف ، وحرر الأسير ، وأملى للهارب فى حبل فراره إلى أن أتيحت له أرض ثابتة لا تميد تحت قدميه . . حتى هذه الطائفة الغالية فى عدائه أغضى عن ماضيها الملىء بالضغينة والحقد عليه ، هى التى أججت سعر الحرب وأصلت أمتها الهموم والكوارث .

كان يعلم أن عقابهم عداله مطلوبة ، ولكنه كان يعلم أيضا أن العفو شيمة كريمة ، حريه بأن تسبق العدالة ، فالعادل الظافر أقوى منه الظافر الغافر . ولن يزيد شيئا فى بأسك أن تنال من عدو مهيض

ومع ذلك فقد بدوا كأنما استباحوا منه هذه الأريحية النفسية إلى غير حدود ، وبلا احتراز ولا تعفف . ولو أنهم أنصفوا لجاءوا إليه سراعا ، فى قلوبهم الندم ، وعلى شفاههم التوبة ، وفى أكفهم الطاعة ، ولكنهم عدوا ما هو جميل بأمثالهم من المغلوبين ، واتخذوا دار صفية بنت الحارث ندوة تسرح فيها همساتهم الناطقة بالدس والضغينة . وها هى عائشة تؤويهم إليها بدون إذنه ، كأنما تملك دونه العفو وتملك المثوبة . . .

لم يكن شأنهم ليكرثه حين نصره بعد أن دانت البلدة له وسجدت تطلب الصفح وتقدم الخضوع . غير أنها بلدة حديثة العهد بالولاء له حرية — إن سنحت فرصة — أن تفتتن عن الطاعة . فما زالت بها بقيه مريبة ، ملكها القهر لم يملكها الولاء ، لا تنى تتطلع إلى ساعة ثأر ترد عليها ما ضيعته الهزيمة . وإنها لترنو بعين اللهفة فتديم الرنو إلى دار ابنة الحارث ملاذ الزعماء المستظلين ظل عائشة ، عسى أن يخفق من هناك ، ذات يوم قريب ، لواء تمرد جديد . . .

ولقد يحسن المرء بالسيدة الظن فيراها آوت أولئك الحفنة الباغية عن رحمة ولكنه لا يستطيع أن يأمن عليها من وسوسة البغاة وهمسهم فى ضميرها بمعاودة العصيان ، فكلهم حاقد أو موتور . . وكلهم قادر أن يهيج بصدرها مواجدها على على وضغنها القديم ، فتلك عواطف غائرة فى النفس حتى الأعماق ، سارية مع الدماء فى الجوارح ، لم تجتثها الهزيمة ، ولن يكفها شىء إن خلى بينها وبين الانطلاق ..

إن فى طبيعة البشر من أمثال هذه المشاعر كثرة موفورة ، تقود خطوهم دائما إلى الخطيئة . . . وعائشة ضرب فى النسوة جامع الأحاسيس . أو هى هكذا على الأقل كما نصبت من شعورها حكما فيصلا بينها وبين الإمام . ولقد طال حكم هذا الشعور بينهما ، فى الماضى الغابر والحاضر الماثل ، فكان الغلو الذى لا تكبحه حكمة ينطلق بها مسرفاً فى انطلاقه بغير روية أو قصد ، كأنه السيل الدافق ، لا يحكمه حابس ولا يمسكه سد . . . أفئن غدت اليوم طعمة لوسوسة بضعة من

دعاة الشر فى أصحابها الموتورين تهيج ما نام من حفظيتها ، أليست حرية إذن بالإصغاء لهم ، حقيقة بتلبية نداء حقدها القديم ! .

بلى ! . . . هذا أنسب عشاعرها ، أدنى إلى سخطها على على وإن رأيناه عدلها فى رقاع كرمه ، ويجازيها على موقفها السالف منه برآ بنسكران، ومروءة بعصيان . فما الناس إلا عبيد العواطف ، إلا من عصم الله وحصن نفسه بسياج من الإرادة عصى على غلواء الأهواء . . ولقد كانت فيما نحسب ولا ننكر ، تود لو كبحت نفسها عن الجموح فى عداء على بعض أشواطها البعيدة ، فلم تفدها هذه الرغبة فى القصد ولم ترد عاطفتها عن الجموح .

وكان الإمام لا تغيب عنه هذه الحال ، ويترفق هوناً بالسيدة العادية عليه فيعزو عدوانها إلى قلة تبصر ليست غريبة فى طباع النساء . ومع ذلك فلم يكن لينسى لها ما هى به جديرة من احترامه وتوقيره كفاء قدرها بين الناس ومنزلتها عند رسول الله . . وإنك لتصغى إلى حديثه عنها فتسمعه رأياً يجيدرسم مشاعرها ثم لا يغمطها شيئا من حقها . . . قال فأجمل المقال :

« . . . أدركها رأى النساء ، وضغن غلا فى صدرها كمرجل القين ! . ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلى ، لم تفعل ! . . ولها بعد حرمتها الأولى . والحساب على الله تعالى . . »

فإذا بلغ منها بعد هذا أن تستفئ إليها طائفةمن غلاة عدوه وأعتاهم له خصومة يستظلون جناحيها ، ويحتفون حتى لتدنو خفيتهم درجة من التربص والمؤامرة . . . وإذا استباحت لنفسها من كرمه ما يجتليه هيبته فى عين الناس ،ويبديها كمن يملك العفو دونه عن كل عاد عليه : كاشح أو سافر . . إذا كان هذا وذاك فإنها إذن صاحبة مشيئته ، تجرى على سلطانه كالقضاء فتنتقصه ، بل تشله وتقضى عليه ثم لا يكون من ورائها إلا إغراء العصاة وسفهاء الحلوم به ، فى بلدة مغلوبة ، وبين ظهرانى قوم قد قهرهم على الولاء .

لذلك كان حقا عليه حيال إمرته وحيال أمته على السواء ، ان يخلى تلك الحلبة التى راحت تطن بها همسات أعدائه ، فإن هى إلا مثابة للدسيسة . . ولقد

كان بوسعه أن يعصف بلاجئيها ولـكنه كره ، لوفعل ، أن ينال من قدر السيدة التى منحتهم الامان ،وأبى أن تهون كلها وإن بذلتهامن وراء ظهره . ولم ير خيرآ من تسييرها عزيزة الى دار لها بالحجاز ، وفى جوار قبر الرسول ، فيتفرق عنها دعاة العدوان .

على أن بقية من كبرياء العناد انحرفت بعائشة عن مسلك الحـكمة . فلقد بدا كأنها أبت الامتثال للأمر بالرحيل لعلها ظلت لا تعرف لعلى عليها حقا بأمرة هى قد أغراها بعصيانه اليوم وسواس الطائفة الذين آوت ، عسى أن ينالوا منه بالتمرد الجديد وكيفما كان الحافز الذى جعلهاترفض العودة إلى المدينة فلم يقرها الإمام وأبى إلا أن تطيع أمره . .

ودخل عليها ابن عباس ، رســــولا من لدنه . فما رأته حتى لقيته بما يشبه الازدراء أو قلة المبالاة . ثم لوت عنه جيدها نافرة ، ولم تقدم له وسادة ليجلس ، ولم تأذن له ...

عندئذ مد هو يدآ إلى متاعها فأخرج منه ما جلس عليه . فآذتها جرأته ونالت من كبريائها ، فصاحت به مغضبة :

« يا بن عباس ، أخطأت السنة ، فقعدت على وسادتنا ، فى بيتنا ، بغير إذننا . . . »

فليتها لم تهج لسانه بالـكلام ! . . ذلك اللسان الذى عرفته قبل غيرها بصيرا بجوانب الجدال ، فياض المنطق ، حار الألفاظ كالشواظ ! . .

أجابها على الأثر ، فى هدوء أشد إيلاما لسمعها من فورة البراكين :

« وليس هذا بيتك الذى أمرك الله أن تقرى فيه ! . . »

فلم ترد على حديثه بشىء . . .

وعاد يبلغها ما جاء فيه :

« إن أمير المؤمنين أرسلنى إليك يأمرك بالرحيل . . . »

فقطعت عليه جملته فى تهـكم واستنـكار :

« أين أمير المؤمنين ؟ . . ذاك عمر ا . . ؟

« عمر وعلى . . . »

« أبيت ! . . . »

وتنبئنا رواية الخبر بتتمة لهذا الكلام إن تكن وقعت فليست تجمل بمن كان مثل ابن عباس ، وإن أثارته السيدة ، وأمعنت فى إهاجة ثائرته . . فلقد طوف بسيرة أبى بكر فتحيف على الشيخ غير مقصد ، ونال من قدره بغير ما ضرورة أجازها الجدال أو دعت إليها طبيعة الحديث . ولا نظنه إلا شطحة رواية ، أراد أن يضفى على خبره بعض المتعة ، فركب خياله المسرف إلى حد أساء به إلى عبد الله ..

وندع جانبا ما ننزه عنه لسان ابن عباس ولا نقره عليه . ثم نتناول بقية جدله فإذا فى بعض أطرافها عنف مقبول ، أعانته السيدة على أن يلقاها به . وهل حسبناه يصبر لها على التزامها العناد وإباء الصدوع بأمر مولاه وإن أغرتها كبرياؤها بالعصيان ؟

قال لها وهو يذكر ما أتته من خروجها على الإمام ، وتأليبها عليه نزغ الأنفس وعدة القتال :

« . . والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين »

ووضعها بألفاظه حيث كانت ، ، وحيث يكون كل مغلوب . .

عندئذ آلمتها الحقيقة التى أسفر عنها كلامه الصريح ، وأحست بكبريائها تنالها جروح سال عنها دمعها يبتدر . . وحين وسعها أن تملك روعها ، أبت مع هذا أن تقر بالهزيمة ، وراحت تخفى قهرها خلف جواب تغمز به غريمها العاتى وإن شابت نبرات غضبها الجامح رجفة البكاء ...

قالت له :

« إنى معجلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله . . . والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أنتم فيه ! ... »

فلم يمهلها أن تستشعر لذة غمزتها ، وأسرع يجيب :

« ولم ذاك ؟ »

وتريث برهة عسى أن يأتيه رد استنكاره . فلما رآها اعتصمت بالصمت عاود حديثه بهدوء بطنته سخريته :

« . . . والله لقد جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك صديقا ! . . »

فثارت به :

« يا بن عباس ، أتمن على برسول الله ؟ . . »

« ما لى لا أمن عليك بمن لو كان لمننت به على ! . . »

وحينذاك آثرت أن تلوذ بالسكوت لتكف عنها جدل صاحب اللسان الإزعيل ! . .

٨

تهيأت عائشة للرحيل .

ما لها اليوم معدى عنه . طلع عليها فجر السبت غرة رجب فأرسلت على خيوط ضوئه عيناً دامعة ، املها لم تذق بليلتها ، تطوف نظراتها الساهمة بما يبدو لها من البصرة تحت نور البكور . . . أى شىء ها هنا أودعته الثرى الصامت ؟ . . وأى مقام كان على أديمه ؟ . وبأية حال تهم أن تخرج الآن ؟ .

الفى المريضة انطوت فى الرمال . كأنها كتبتها على صفحتها الرخوة ثم جاءت هبة ريح فمحت السطور ! . . والمقام لم تلن لها جوانبه . نزلته مقهورة فنبا بها المنزل حتى خلفته مقهورة . . . غدت أداة تحركها الأيدى ليست لها على نفسها مشيئة . فتلك الأيام القلائل التى قضتها بالبلدة أطلمها هم وأنهاها هم ، كلما انقضى منها يوم أسلمها بعده إلى غد شر منه .

إنها لتشعر أن حياتها لم تعد لها خالصة . أصبحت كلها منة أسداها الصفح والترفق : عيشها ، وتفكيرها ، وحريتها .. فما تملك أن تعيش أو تفكر أو تنطلق إلا بقدر قدروه . ليست الآن من أطاعتها الطاعة وأطاعها معها العصيان ! . . ليست صاحبة الكلمة لاتكاد حروفها تلتئم على شفتيها فتجيبها الجيوش والوفود والنفوس مؤتمرة . . . ليست حتى ذات الدار المهيبة والذمار المصون فى القلوب والعيون . بقى لها فحسب من حياتها أن تعيش عيشاً تفضلوا عليها به فى حرية إن جنبتها مذلة الأسر فهى كأسر ، وبذهن يتبع الفكر ولا يبدع الفكر ! .

ثم ها هم اليوم أولاء ، يحبسون روحها فى سياج من منهم منيع ، وما أبغض منة القاهر إلى قلب المغلوب ! . . حتى الأشتر أيضا لم يعفها من تجرع غصة الذلة . أزجى إليها جميلا لو تقبلته لهان قدرها لديها ، ولكنها أبته كل الإباء . . . إنها لتنعم بأن تجتر حقدها على الرجل ثم تعود فتستره ، وتعيذ نفسها الآن من قبول هبته خشية أن يخف نفورها منه ويقل سخطها عليه ! . .

وكذلك استقبلت رسوله ، غضبى نافدة الصبر مهتاجة . . .

قال لها :

« يا أم المؤمنين ، مالك يقرئك السلام ويقول إن هذا البعير مكان بعيرك . . »

فصاحت حانقة :

« لا سلم الله عليه ! . . . »

وردت عليه الهدية .

ومع ذلك فلم تكن لتستطيع رفض كل ما قدموه أو تؤذيها الحاجة . . . رأت لزاما عليها أن تنزل بكبريائها درجة ، وإلا فمنذا هنا يجهزها لكل هذه الشقة البعيدة حتى تبلغ الحجاز ؟

جهزها الإمام وأعد لها قافلة طويلة لا ينقصها فيها شىء . ثم منحها اثنى عشر ألفاً من المال تستعين بها على الزمان . .

وكانت هبة سخية حقا . منة أخرى من مننه الكثيرة التى طوق بها جيدها على كره منها . . غير أن ابن أخيه : عبد الله بن جعفر أبى إلا أن يثقل فى وقر السيدة من المنن والهبات ، فقد استقل المنحة ، وأخرج من لدنه مالا وفيرا يعيي الإحصاء ، أفاءه عليها وهو يقول :

« إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو على . . . »

ووقفت عائشة مليا خافضة الرأس قبل أن يسير بها الركب ، أثقلتها أريحية غريمها كما أثقلتها مروءته ونقاوة نفسه . فلم يحتجز عنها شيئا علم أنها تحتاج إليه من مركب أو زاد أو متاع ، ولا تهاون قط فى توفير ما يحفظ عليها كرامتها من مظهر ومجد . بل قد بالغ فى كرمه ما شاء حتى أباح كثرة من صحبها الذين حاربوه أن يرافقوها فى الرحلة . . .

وحين أوشك الركب أن يتحرك قال لابنه :

« تجهز يا محمد فبلغها . . . »

وأمر الحسنين أن يسيرا معها نهارا وليلة .

عندئذ وقفت وهى تشرف من هودجها على الجموع التى أقبلت مودعة ، وقالت بصوت اختلج من فرط التأثر :

« يا بنى . . . تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشىء بلغه من ذلك . . . »

ثم مدت بصرها حيث وقف الإمام ، ومضت تقول :

« . . . إنه والله ما كان بينى وبين على فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها . . وإنه عندى على معتبق من الأخيار . . . »

فما سمع على هذا منها حتى خاطب الجمع :

« يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت . ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة . . . »

على أنها ، مع ما أكرمها به ، لم تنس أن تناله بمقذع اللفظ وهى ببعض الطريق . فلقد أرسل معها حرسا ضخما من عبد القيس أربعين فردا ، وقام على شأنها قيام العبيد والإماء ، فهالتها كثرته . وظلت كلما وقعت عينها على فرد منه ، تهتف برمة وتقول مظهرة سخطها على الإمام :

« هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى ! . . . »

ذلك أنها حسبت الحرس رجالا وكن فتيات تنكرن فى ثياب الفتيان ! . .

فلما بلغت غاية رحلتها ، ودخلت دارها ، أقبلن فكشفن عن رءوسهن العمائم ، وهتفن ضاحكات :

« إنما نحن نسوة ! »

وكان هذا آخر عهدها بالرجل الذى حاربته بالبغضاء فحاربها بالحلم والمروءة ، وغالبته بالعنف والتآمر فغلبها بأريحية نفسه وصفاء قلبه من الحقد والضغينة .

وكان أيضا آخر عهدها بالشئون العامة ، فقد أغلقت بابها عليها ، وقرت ببيتها بعيدا عن معترك الحرب والسياسة ...

أما هو ففرغ لشأنه وقد خلت خلية الدسيسة ، وتفرق عنها ما كنوها البغاة . . . فقد أباح بقيتهم صفحه ، ونسى كل ماسلف منهم من الغدر والعدوان. اتسعت رحبة عفوه لأعاظم عداوة له ولم يستشعر ندما على معروفه ، حتى مروان ابن الحكم ظفر بغفرانه وإن كان أعدى عدوه وأجدرهم أن ينال منه عذاب الهون . . . جئ به إليه مستضعفا ذليلا ، قد ضاقت عنه مسالك النجاة فلم يمسه بشىء ، وأغضى عابساً وهو يصغى لشفاعة الحسن والحسين فيه . . .

وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه ، واستنزال عفوه على الباغى المقهور ، ثم أردفا يقولان :

« يبايعك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يزد على أن رشق عدوه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه . .

ومد مروان نحوه كفاً مرتجفة ، فيها خضوعه وذلته . ولكن عليا عف عن تناولها ، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطى رسول الله ، وإلى من حضره من رجاله حينذاك ، وقال يوجه إليهم الخطاب :

« أولم يبايعنى بعد مقتل عثمان ؟ . . لا حاجة لى فى بيعته ، إنهـا كف يهودية ! . . . »

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك الغادر الذى كانت حياته لا تساوى غير لفظة لسان أو إشارة بنان . وراح يتبعه فى مسرب انطلاقه بنظراته حتى اختفى عنه خلف المجهول . .

غير أن اختفاءه عن العيون لم يحجبه برهة عن بصيرة الإمام . إنه ليراه الآن بعين الإلهام ،ويخترق إليهأسجاف الزمن ، وأستار السنين ، وظلمة الغيوب. ثم يظل يتبع خطوه السارى فى المستقبل، الموفى به إلى نهايته، الممتد بعده لذراريه . .

ويسمع الحضور صوت الإمام ، عميقا خافتا كأنما يأتيهم لفظه من قرار سحيق بعيد الأغوار :

« . . . أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه ! . . . وهو أبو الأكبش الأربعة . . . وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر ! . . . »

ويصمت لسانه الناطق بنفثة البصيرة ، ويدع الحديث للزمان . . .

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤٤٠